بول أوستر

مكتبة

‘سيد الرواية الأميركية الحديثة’

The Independent

مستر فيرتيغو

رواية

ترجمة
مالك سلمان

دار الساقي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

مستر فيرتيغو

بول أوستر

مكتبة
t.me/soramnqraa

مستر فيرتيغو

ترجمة

مالك سلمان

دار الساقي

t.me/soramnqraa

Paul Auster, *Mr Vertigo*, Penguin Books, 1995
Copyright © Paul Auster, 1994
All rights reserved
This edition published by arrangement with Viking, an imprint of
Penguin Publishing Group, a division of
Penguin Random House LLC

الطبعة العربية
© دار الساقي 2024
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2024

ISBN 978-614-03-2310-0

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi
Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP
Tel: +44 (0) 20 7221 9347

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تابعونا على

@SaqiBooks X @DarAlSaqi

@SaqiBooks f دار الساقي

Saqi Books in DarAlSaqi

@saqibooks @daralsaqi

تصميم الغلاف: عفيفة حلبي

الجزء الأول

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما مشيتُ على الماء لأوّل مرّة. تعلّمتُ ذلك على يد الرجل باللباس الأسود، ولن أتظاهرَ بأنّني تعلّمتُ تلك الخدعة بين عشيّة وضحاها. وجدَني المعلّم ياهودي عندما كنتُ في التاسعة، صبيّاً يتيماً يتسوّل القروشَ في شوارع سينت لويس، وقد عمل على تدريبي ثلاث سنوات متواصلة قبل أن يسمح لي باستعراض ما تعلّمتُه أمام الناس. حدث ذلك في سنة ١٩٢٧، التي تألّق فيها لاعبُ البيسبول بيب روث والطيّارُ المغامر تشارلز ليندبيرغ؛ السنة التي بدأ فيها الظّلامُ يخيّم على العالم إلى الأبد. ثابرتُ في عملي حتى قبل بضعة أيام من انهيار أكتوبر، وكان ما فعلتُه أعظم ما بمقدور ذينك السيدين أن يحلما به. فعلتُ ما لم يتمكن أيُّ أميركي مِن فعله قبلي، وما لم يستطع أحدٌ أن يفعله منذ ذلك الوقت.

اختارني المعلّم ياهودي لأنني كنتُ الأصغرَ والأكثرَ قذارةً وبؤساً. "أنتَ لستَ أفضلَ من حيوان"، قال لي، "مجرد نكرةٍ بشرية". كانت تلك الجملة الأولى التي قالها لي. وعلى الرغم من مرور ثمانٍ وستين سنةً على تلك الليلة، لا يزال بمقدوري سماع الكلمات وهي تخرج من فم المعلّم. "أنتَ لستَ أفضلَ من حيوان. وإن بقيتَ حيث أنت، فسوف تموت قبل رحيل الشتاء. أمّا إن جئت معي، فسوف أعلّمك الطيران".

"لا يمكن لأحد أن يطير، يا سيد"، قلت له، "الطيور فقط تستطيع

أن تطير، وأنا أعرف جيداً أنني لست عصفوراً".

"أنتَ لا تعرف شيئاً"، قال لي المعلّم ياهودي. "أنتَ لا تعرف شيئاً لأنّك لا شيء. إن لم أعلّمك كيف تطير قبل عيد ميلادك الثالث عشر، يمكنك أن تقطع رأسي بفأس. يمكن أن أتعهّدَ بذلك كتابيّاً إن شئت. وإن فشلتُ في مهمّتي هذه في الوقت المحدّد، فسيكون مصيري بين يديك".

كانت ليلة السبت في مطلع شهر نوفمبر، وكنا نقف أمام "بارادايس كافيه"، وهو مطعم وبار راقٍ في وسط المدينة تعزف فيه فرقةُ جاز ملونة وتتجول فيه بائعاتُ السجائر بفساتينهنّ الشفافة. كنت أتسكّع هناك خلال نهاية الأسبوع، أتسوّل الطعامَ والنقود وألبّي بعضَ الطلبات وأوقِف سيارات الأجرة للزّبائن الأثرياء. اعتقدتُ في البداية أن المعلّم ياهودي مجرد سكّير ثريّ يترنّح في الليل في سترة توكسيدو سوداء وقبّعة حريرية. بدت نبرتُه غريبة، لذلك اعتقدت أنه من خارج المدينة، لكنّ تفكيري لم يذهب أبعد من ذلك. يتلفظ السّكارى بأمور غبية، ولم تبدُ لي قصة الطيران تلك سوى واحدة من القصص التي يطلعون بها عادة.

"أنت تحلّق عالياً"، قلت له. "حذارِ أن تكسر رقبتك عند الهبوط".

"سوف نتحدث عن التقنية لاحقاً"، قال المعلّم. "ليس من السهل على المرء أن يتعلّم، ولكن إن استمعتَ إلي وتقيّدتَ بتعليماتي فسوف نصبح أثرياء".

"أنتَ ثري سلفاً"، قلت له. "ما حاجتك إليّ؟".

"لأنني مفلس تماماً، أيها الولدُ البائس. ربما أبدو لك أشبه بلصّ ثريّ لأنّك شخص غبيّ. استمع إليّ جيداً. سوف أقدّم لك فرصة العمر، ولن تحصل على فرصة كهذه إلّا مرّةً واحدة في حياتك. لديّ عرضٌ سأقدّمه في "بلو بيرد سبيشل" في السادسة والنصف صباحاً، وإن لم تصعد إلى ذلك القطار فلن تراني بعد الآن".

"لكنّك لم تجب عن سؤالي"، قلت له.

"لأنّك الجواب على صلواتي، يا بنيّ. ولهذا السبب أريدُك أنت. لأنّك تملك الموهبة".

"موهبة؟ أنا لا أملك أية موهبة من أيّ نوع. ولو كانت لدي موهبة، فكيف لك أن تعرف بها، أيها المهرّج المضحك؟ أنت لم تعرفني إلا منذ دقيقة واحدة فقط".

"أنت تخطئ ثانيةً"، قال المعلّم ياهودي. "أراقبُكَ منذ أسبوع. وإن كنت تعتقد أن خالك وزوجته سيحزنان لرحيلك، فأنتَ لا تعرف الأشخاص الذين تعيش معهم منذ أربع سنوات".

"خالي وزوجته؟" قلت وقد أدركت أن هذا الرجل ليس مجرد سكّير عادي، بل أسوأ من ذلك بكثير؛ ربما يكون موظّفاً تربوياً يتعقّب الأولاد المتغيّبين عن المدرسة أو شرطياً، وقد أرعبتني الفكرة حتى الموت.

"خالك سليم تحفة فنية"، تابع المعلم قائلاً بشيء من الرويّة الآن بعد أن ضَمِنَ اهتمامي بما سيقوله. "لم أكن أعرف أن هناك مواطناً أميركياً بهذا الغباء. ففضلاً عن رائحته الكريهة، إنه خسيسٌ وقبيح حتى النخاع. لا عجبَ أنك تحوّلتَ إلى شخص زقاقي ماكر.

تحدثتُ طويلاً مع خالك هذا الصباح، وهو مستعدٌّ للتخلّي عنك من دون أي مقابل. تخيّل ذلك. حتى إنه لم يطالبْني بقرش واحد. زوجته، تلك الخنزيرة، كانت جالسة هناك ولم تكلّف نفسَها عناء الدفاع عنك ولو بكلمة واحدة. فإن كان هذا أفضلَ ما يمكنك أن تقدّمه لعائلة، فأنت محظوظ للتخلي عن هذين الأحمقين. القرار يعود لك، ولكن حتى لو رفضتَ عرضي فليس من الحكمة أن تعود إليهما. سوف يصابان بالإحباط لعودتك، أؤكد لك ذلك. ستكون فجيعتُهما كبيرة، إن كنتَ تفهم ما أعنيه".

ربما كنتُ مجرد حيوان، ولكن حتى أدنى الحيوانات لها مشاعر، وعندما فاجأني المعلّم بهذه الأنباء شعرتُ بأنني تلقيتُ لكمةً قوية. لم يكن خالي سليم وزوجته بيغ شخصين استثنائيّين لكنني كنت أعيش عندهما، وقد ذهلتُ لمعرفتي أنهما لا يريدانني. إذ لم أكن قد تجاوزت التاسعة. وعلى الرغم من أنني كنت قوياً في تلك السن الغضّة، لكنّني لم أكن قوياً كما أتظاهر. فلو لم يكن المعلّم ينظر إليّ بتينك العينين الداكنتين آنذاك، لأجهشتُ بالبكاء حينها في الشارع.

عندما أفكّر في تلك الليلة الآن، ينتابني الشكّ إن كان يقول لي الحقيقة أم لا. ربما تحدّث إلى خالي وزوجته، ولكن أيضاً ربما يكون قد اختلق ذلك كله. لا أشك في أنه التقى بهما – فقد وصفهما بدقة شديدة – لكن معرفتي بخالي سليم تؤكد لي أنه ما كان ليتخلى عني دون أن يستغلَّ تلك الصفقة ويحصل على بعض المال. لا أقول إن المعلّم ياهودي قد حنث بوعده له، لكن ما حدث لاحقاً أكّد لي أن الساقط قد شعر بالظلم، سواء كان على حق أم لا. مع ذلك، لن

أضيع وقتي في التفكير في ذلك الآن. المهم أنني وافقت على اقتراح المعلّم، وفي نهاية الأمر هذه هي الحقيقة الوحيدة الجديرة بالذكر. فقد أقنعني أنني لا أستطيع العودة إلى المنزل، وحالما قبلتُ تلك الفكرة لم يعد يهمّني أي شيء. ربما أراد أن يولد فيّ ذلك الشعور بالذات؛ الشعور بالتخبط والضياع الداخلي. فمن الصعب أن تهتمَّ بما يحصل لك، إن لم ترَ سبباً يدفعك للاستمرار في العيش. تقول لنفسك إنك ترغب في الموت، وبعد ذلك تكتشف أنك مستعد لأي شيء كان، حتّى لشيء جنونيّ مثل التلاشي في عتمة الليل برفقة شخص غريب.

"طيّب يا سيد"، قلت له وقد أخفضت صوتي قليلاً وحدّقتُ فيه بشيء من القسوة، "موافق. ولكن أعدك بأنني سأقطع رأسك إن لم تفِ بوعدك لي. صحيح أنّني فتى صغير، لكنني لا أسمح لأي رجل كان أن ينسى وعداً قطعَه لي".

كان الظّلام لا يزال مخيّماً عندما ركبنا القطار. انطلقنا غرباً نحو الفجر، عبر ولاية ميزوري، بينما ضوء نوفمبر القاتم يجاهد للنفاذ عبر الغيوم. لم أكن قد غادرت سينت لويس منذ أن دفنوا أمي، وكان العالمُ الذي اكتشفتُه في ذلك الصباح موحشاً وكئيباً، شاحباً وعقيماً، حيث تحفّ بنا من كلا الجانبين حقولٌ مترامية من قصب الذرة اليابسة. وصلنا إلى مدينة كانساس بعد الظهيرة بقليل، ولكن خلال الساعات الطوال التي قضيناها معاً لا أظنّ أن المعلّم ياهودي وجّه إليّ أكثر من ثلاث أو أربع كلمات. كان ينام معظم الوقت وهو يهزّ رأسه مغطّياً وجهَه بقبعته، لكنني كنت خائفاً جداً واكتفيتُ بالنظر عبر النافذة

ومراقبة الأرض وهي تمرّ بي بينما كنت أفكر في المأزق الذي أوقعت نفسي فيه. كان أصحابي في سينت لويس قد حذّروني من شخصياتٍ مثل المعلّم ياهودي، رجالٍ منزوين هائمين على وجوههم ومليئين بالنوايا الشريرة، وشاذّين يسعون إلى تصيّد الصبيان الصغار لإشباع رغباتهم الدنيئة. كان من المخيف أن أتخيّله وهو يخلع عني ثيابي ويلمسني في مناطقَ لا أريد لأحدٍ أن يلمسها، لكن ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع المخاوف الأخرى التي أخذت تعصف برأسي. كنت قد سمعت عن صبيّ ذهب مع رجل غريب ولم يُعرف عنه شيء بعد ذلك. وفي فترة لاحقة، اعترف الرجلُ أنه قام بتقطيع الصبي إلى قطَع صغيرة ثم سلقه وصنع منه عشاءً له. كما قُيّدَ صبيّ آخر إلى الحائط في قبوٍ معتم ولم يتناول سوى الخبز والماء طوال ستة أشهر. فيما سُلِخ جلدُ صبيّ آخر عن عظمه. والآن، بعد التفكير في ما فعلتُه، تخيلتُ أنني سوف ألقى المعاملة نفسها. فقد سمحْتُ لنفسي بالوقوع في براثن وحش، وإن تبيّن أنه مخيف كما يبدو، فمن المحتمل ألّا أرى طلوع الفجر مرّةً ثانية.

ترجّلنا من القطار وأخذنا نسير على الرصيف ونحن نشقّ طريقنا عبر الحشد. "أنا جائع"، قلت وأنا أشد معطفَ المعلّم ياهودي. "إن لم تُطعِمْني حالاً، فسوف أسلّمك لأول شرطي أراه".

"وماذا عن التفاحة التي أعطيتك إياها؟".

"رميتها من شباك القطار".

"لا تحبّ التفاح إذاً؟ وماذا عن سندويشة اللحم؟ هذا عدا عن ساق الدجاج المقلي وكيس الدّونَت".

"رميتها كلّها. هل تظن أنني سآكل هذه القمامة التي تعطيني إياها؟".

"وما المشكلة في ذلك، أيها الرجل الصغير؟ ستذبل وتموت إن لم تأكل. الجميع يعرف ذلك".

"على الأقلّ تموت ببطء بهذه الطريقة. تقضم شيئاً مليئاً بالسمّ، ثم لا تلبث أن تقع في أرضك".

للمرة الأولى منذ أن التقيت به، رأيت ابتسامة ترتسم على فم المعلّم ياهودي. وإن لم أكن مخطئاً، أظنّ أنني رأيته يضحك.

"تعني أنّك لا تثق بي، أليس كذلك؟".

"أنت محقّ تماماً. لا يمكن لي أن أثق بك في أتفه الأمور".

"هوّن عليك، ولا حاجة إلى هذه الوقاحة"، قال المعلم وهو يربت على كتفي برفق. "أنتَ مصدر دخلي، أتذكر؟ ولا يمكن أن أمسّ شعرة من رأسك".

كانت تلك مجرد كلمات بالنسبة إليّ، ولم أكن غبياً إلى الحدّ الذي أصدّق فيه مثل هذا الكلام المعسول. ولكن عندها وضع المعلّم ياهودي يده في جيبه وأخرج ورقة دولار جديدة صلبة ووضعها في راحة يدي. "هل ترى ذلك المطعم هناك؟" قال لي وهو يشير إلى مطعم صغير في وسط المحطة. "اذهبْ واشترِ أكبر وجبة غداء يمكن أن تحشو بها بطنك. أنتظرك هنا".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"وأنت؟ هل لديك شيء ضدّ الطعام؟".

"لا تقلق عليّ"، قال المعلّم ياهودي. "يمكن لمعدتي أن تهتمّ بنفسها". في ذلك الحين، وبينما كنت أستدير لأذهب إلى المطعم،

أضاف قائلاً: "نصيحة صغيرة، أيها الصبي التافه. في حال كنت تخطط للهرب، هذه هي الفرصة المناسبة. ولا تفكّر في الدولار الذي أعطيتك إياه. يمكنك الاحتفاظ به لأنك ستحتاج إليه".

دخلتُ إلى المطعم وحدي وأنا أشعر بالطّمأنينة بعد تلك الكلمات التي قالها لي. فلو كان يخطط لشيء شرير، لماذا يقدّم لي فرصة للهرب؟ جلستُ إلى الطاولة وطلبتُ الوجبة اليومية وزجاجة "سارساباريلا". وفي غمضة عين، دفع النادلُ بكومة من اللحم المملح والكرنب أمامي. كانت أكبر وجبة أراها في حياتي، وجبة تضاهي ضخامة الملاعب الرياضية في سينت لويس، وقد التهمتُها حتّى آخر قطعة فيها، بالإضافة إلى قطعتين من الخبز وزجاجة ثانية من "سارساباريلا". لا يمكن لأي شيء أن يضاهي ذلك الشعور الجميل الذي سرى فيّ وأنا أجلس إلى تلك الطاولة القذرة. فحالما امتلأت معدتي، شعرتُ بنوع من القوة وكأنني أصبحت منيعاً على الأذى. ثم جاءت اللمسة الأخيرة عندما أخرجتُ ورقة الدولار من جيبي لأدفع الحساب. كان الحساب الإجمالي خمسة وأربعين سنتاً فقط، وحتى بعد أن تركتُ بخشيشاً للنادل بقيت معي أربع قطع نقدية. لا يبدو المبلغ كبيراً اليوم، لكنّ نصف دولار كان يمثل ثروة بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. هذه هي فرصتي للهرب، قلت لنفسي وأنا أنهض عن الكرسي وأتفحّص المكان. يمكنني أن أتسلّل من الباب الجانبي دون أن يشعر بذلك الرّجلُ في اللباس الأسود. لكنّني لم أفعل ذلك، وفي ذلك الخيار تكمن قصة حياتي كلّها. عدتُ إلى حيث كان المعلم ينتظرني لأنه وعد أن يجعل مني مليونيراً. معززاً

بتلك السنتات الخمسين التي تبقّت لي، فكّرتُ في أن الأمر يستحق المغامرة لمعرفة حقيقة ذلك الوعد المزعوم.

ركبنا قطاراً آخر بعد ذلك، ثم قطاراً ثالثاً قبيل نهاية الرحلة التي أوصلتنا إلى بلدة سيبولا في السابعة مساءً. على الرغم من صمته الذي امتدّ طوال الصباح، لم يتوقّف المعلّم ياهودي عن الكلام بقية اليوم. كنت قد تعلمتُ ألّا أقفز إلى أية افتراضات لما يمكن أن يفعله أو لا يفعله. ففي اللحظة التي تعتقد أنك عرفتَ خباياه، كان يستدير ويفعل عكسَ ما توقّعتَه تماماً.

"يمكنك أن تخاطبني باسم المعلّم ياهودي"، قال لي معلناً اسمَه للمرة الأولى. "وإن شئت، يمكنك أن تدعوني اختصاراً بالمعلّم. ولكن إياك أن تخاطبني باسم ياهودي في أي ظرفٍ كان. هل هذا واضح؟".

"هل هذا اسمُك الحقيقي"، قلْتُ له، "أم أنك اخترت هذا اللقب بنفسك؟".

"لست بحاجة لأن تعرف اسمي الحقيقي. يكفي أن تناديني باسم المعلّم ياهودي".

"أنا اسمي وولتر. وولتر كليربورن رولي. ولكن يمكنك أن تناديني باسم وولت".

"سوف أناديك بأيّ اسم أريده. فإن أردتُ أن أناديك باسم دودة، سأناديك باسم دودة. وإن أردتُ أن أناديك خنزير، فسوف أناديك باسم خنزير. هل هذا مفهوم؟".

"اللعنة يا معلّم، لا أفهم شيئاً ممّا تقوله".

"كما أنني لن أقبل بأي نوع من الكذب أو الخداع. لا أعذار، ولا شكاوى، ولا أحاديث من خلف الظهر. فحالما تلتزم بهذه التعليمات، سوف تصبح أسعدَ ولدٍ على وجه الأرض".

"أكيد. وإن كان لرجل كسيحٍ ساقان، فسوف يتمكّن من التبول واقفاً".

"أعرف قصتك يا بنيّ. لذلك لست مضطراً لتلفيق الأكاذيب. أعرف كيف قُتل أبوك بالغاز في بلجيكا سنة سبعَ عشرة. وأعرف ما حصل لأمّك أيضاً، وكيف كانت تعمل عاهرةً في شرق سينت لويس لتحصل على بعض المال، وما حصل لها قبل أربع سنوات ونصف عندما وجه إليها ذلك الشرطي المجنون مسدّسه وأطلق النار في وجهها. أنا أشفق عليك، يا ولد، لكنك لن تحقّق أي شيء إن راوغتَ وكذبت عليّ".

"طيب، يا سيد بنطلون. إن كنتَ تملك جميع الإجابات، فلماذا تتعب نفسك بإخباري عن أشياءَ تعرفها سلفاً؟".

"لأنك حتى الآن لا تصدّق كلمة واحدة مما قلتُه. تعتقد أن موضوع الطيران هذا مجرّد كلام فارغ. سيكون عليك أن تبذل جهداً كبيراً يا وولت، أكبر من أي وقت مضى، وسوف ترغب في التوقف عن التدريب كلّ يوم تقريباً، ولكن إن واظبتَ على العمل ووثقتَ بما أقوله لك، فسوف تتمكّن من الطيران بعد بضع سنوات. أقسم لك. سوف تتمكن من رفع نفسك عن الأرض والطيران في الهواء كالعصفور".

"أنا من ميزوري، هل تذكر؟ لا يسمّونها ولاية 'الخرا لا يصدّق حتى يرى' اعتباطاً".

”نحن لسنا في ميزوري الآن، يا صديقي الصغير. نحن في كانساس. وهي مكانٌ منبسط ومقفر أكثر من أي مكان رأيتَه في حياتك كلها. عندما جاء كورونادو ورجاله إلى هنا في سنة ١٥٤٠ بحثاً عن مدن الذهب، تاهوا في المكان إلى درجة أن نصفهم أصيب بالجنون. ليس هناك أي شيء يصف المكان الذي أنت فيه الآن. لا جبال، ولا أشجار، ولا مطبّات في الطريق. فالمكان مسطّحٌ كالموت هنا، وعندما تقضي بعض الوقت هنا، فسوف تفهم أنّ وجهتك الوحيدة هي إلى الأعلى، أنّ السماء هي صديقك الوحيد“.

كان الظلام قد حلَّ عندما دخلنا إلى المحطة، لذلك لم يكن هناك شيء يؤكد وصفَ المعلّم لموطني الجديد. وتبعاً لما لاحظته، لم يكن المكان مختلفاً عمّا يتوقعه المرء من بلدة صغيرة. أبرد قليلاً ربما، وأكثر ظلمة مما اعتدتُه، ولكن بما أنني لم أزر بلدة صغيرة من قبل، لم تكن لدي أية توقعات مسبقة. كان كلّ شيء جديداً عليّ، كلّ رائحة غريبة، وكلّ نجمة في السماء جديدة عليّ. لو أن أحداً قال لي إنني دخلتُ لتوّي إلى أرضٍ سحرية، أعتقد أنني لما كنت سأعرف الفرق.

سرْنا عبر المحطة ثم توقفنا خارج الباب لوهلة ونحن نتفحّص البلدة المظلمة. لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً، لكن جميع الأماكن كانت مغلقة. وباستثناء بعض المصابيح المضيئة في المنازل البعيدة، لم تكن هناك أية علامة على الحياة. ”لا تقلق“، قال المعلّم ياهودي، ”سوف نتحرك في الحال“. حاول الإمساك بيدي، لكنني سحبت ذراعي قبل أن يحكمَ قبضته على يدي. ”أبعد مخاليبك

عنّي، مستر معلّم"، قلت له. "ربما تعتقد أنك تمتلكني الآن، لكنك لا تمتلك شيئاً".

بعد تسع ثوانٍ من تلفّظي لتلك الكلمات، ظهر حصانٌ رمادي ضخم في نهاية الشارع وهو يجرّ عربة صغيرة. بدت أشبه بشيء من فيلم رعاة البقر لتوم ميكس الذي كنت قد شاهدته في ذلك الصيف في سينما "بيكتشر بالاس"، لكن الفيلم ظهر في سنة ١٩٢٤، وعندما رأيت تلك العربة القديمة وهي تقعقع في الشارع، اعتقدت أنها مجرد شبح. لوّح المعلّم ياهودي بيده عندما رآها قادمة، وعندها توقف ذلك الحصان الرمادي العجوز أمامنا بمحاذاة المنعطف والبخار يتصاعد من منخريه. كان السائقُ شخصاً مربوعاً يعتمر قبّعةً بيضاء عريضة ويلفّ جسمه بالبطانيات، وللوهلة الأولى لم أعرف إن كان رجلاً، أم امرأةً، أم دبّاً.

"أهلاً، ماما سو"، قال المعلّم. "انظري ماذا وجدت".

حدّقت المرأة فيّ لثانيتين بعينين فارغتين وباردتين كالصخر، ثم ارتسمَت على وجهها أدفأُ وألطفُ ابتسامة أراها في حياتي. لم يكن في فمها أكثر من سنَّين أو ثلاث، واستنتجتُ من الطريقة التي برَقت بها عيناها السوداوان أنها غجرية. إنها ماما سو، ملكةُ الغجر، وكان المعلّم ياهودي ابنَها، أمير الظلام. كانا يخطفانني إلى قلعة اللاعودة، وإن لم يأكلاني على العشاء في تلك الليلة فسوف يجعلان مني عبداً مخصياً ذليلاً يضع حلقاً في أذنه ويربط منديلاً حول رأسه.

"اصعدْ يا بنيّ"، قالت ماما سو. كان صوتُها عميقاً ورجولياً إلى درجة كنت سأشعر معها بالخوف حتى الموت لو أنني لم أعرف أنها

قادرة على الابتسام. "سوف تجد بعض البطانيات في الخلف. وإن كنت تعرف مصلحتك جيداً، فسوف تستخدمها. أمامنا رحلة طويلة في هذا البرد القارس، ولا تريد أن تصل إلى هناك بأنفٍ متجمّد".

"اسمه وولت"، قال المعلّم وهو يصعد إلى العربة ويجلس بجانبها. "قط صعلوك أهبل من مدينة الملاهي. وإن صدق حدسي، فهو الشخص الذي أبحث عنه طوال هذه السنين". ثم التفت نحوي وقال لي بنبرة فظة: "هذه ماما سو. عاملْها بلطف ولن ترى منها سوى الطيبة والحنان. أما إن أزعجتَها فسوف تندم على اليوم الذي وُلدتَ فيه. ربما تكون سمينة وبلا أسنان، لكنها الأم الوحيدة التي ستحظى بها في حياتك".

لا أعرف كم استغرقنا الوقت للوصول إلى المنزل. كان يقع في مكان ريفيّ، على بعد ستة عشر أو سبعة عشر ميلاً عن البلدة، لكنني عرفت ذلك لاحقاً لأنني حالما دفنت نفسي تحت البطانيات وتحركت العربة استسلمتُ لنومٍ عميق. وعندما فتحت عينيّ ثانيةً كنا قد وصلنا إلى هناك، ولو لم يوقظني المعلّم بلطمة على الوجه لنمْتُ ربّما حتّى الصباح.

قادني إلى المنزل بينما راحت ماما سو تفك الأغراض وتنزلها من العربة. كان المطبخ الغرفة الأولى التي دخلنا إليها؛ مكان فارغ معتم قليلاً يحتوي على موقد حطب في إحدى الزوايا ومصباح كاز يومض في زاوية أخرى. كان صبيّ أسود في نحو الخامسة عشرة من العمر يجلس إلى الطاولة ويقرأ كتاباً. لم يكن بُنيّاً على غرار معظم الأشخاص الذين كنت أراهم في مدينتي، بل بلون

العتمة؛ كان أسودَ إلى درجة بدا معها سوادُه مائلاً إلى الزرقة. كان عبداً إثيوبياً صغيراً من قلب أدغال أفريقيا، وكاد قلبي أن يتوقف عندما لمحتُه. كان صبياً هزيلاً ونحيلاً ذا عينين جاحظتين وشفتين هائلتين، وحالما نهض عن كرسيّه ليحيّيني، رأيت عظامَه الناتئة والمنحرفة وظهرَه الأحدب.

"هذا إيسوب"، قال لي المعلم، "أروعُ صبيّ يمكن أن تراه في حياتك. سلّم عليه يا وولت وصافحه. سوف يكون أخاك الجديد".

"لن أصافح زنجياً"، قلت له. "أنت مجنون إن كنت تعتقد أنني سأفعل شيئاً كهذا".

أطلق المعلّم ياهودي تنهيدة عالية طويلة. لم تكن تعبيراً عن الاستياء بقدر ما كانت تنطوي على الحزن؛ رعشة هائلة طلعت من أعماق روحه. ثم، وبقدر كبير من التأني والهدوء، عقفَ سبابة يده اليمنى على شكل خطافٍ صلبٍ ووضع رأسَ ذلك الخطاف المتأهّب تحت ذقني تماماً، عند نقطة التقاء اللحم بالعظم. ثم بدأ يضغط، وسرعان ما شعرت بألمٍ فظيع يتولد في نقرتي ثم يطلع إلى جمجمتي. لم أشعر بألم كهذا من قبل. جاهدتُ لكي أصرخ، لكن حَنجرتي كانت مسدودة، ولم يخرج مني سوى صوتٍ مخنوق خافت. استمرّ المعلم بالضغط بإصبعه، فشعرت بقدميّ ترتفعان عن الأرض. كنت أعلو وأرتفع في الهواء مثل ريشة، وبدا لي أن المعلّم يفعل ذلك بسهولة بالغة وكأن الأمر لا يعدو نوعاً من التسلية بالنسبة إليه. رفعني حتى صار وجهي مقابلاً لوجهه وعيناي تنظران مباشرة في عينيه.

”لا نستخدم هذا النوع من اللغة هنا، يا ولد“، قال لي. ”فجميعُ الناس أخوة، وفي هذه العائلة نتعامل مع الجميع باحترام. هذا هو قانونُنا. فإن لم يعجبك، عليك أن تعتاد عليه. القانون هو القانون، وكلّ من يخرج عنه يتحول إلى بزّاقة ويتمرّغ في التراب بقية حياته“.

أطعموني وكسوني وأعطوني غرفةً خاصّة بي. لم أتعرض للضرب أو العقاب، ولم أتلقَّ الإهانات أو اللكمات. ولكن على الرغم من الحياة المقبولة التي كنت أعيشها، لم يسبق لي أن شعرتُ بذلك النوع من الكآبة والمرارة والغضب. ففي الأشهر الستة الأولى، كانت الفكرة الوحيدة التي تراودني هي الهرب. كنْتُ صبياً نشأ في المدينة وأدمن الاستماع إلى موسيقا الجاز، صبياً اعتاد على الشوارع واقتناص الفرص العابرة، صبياً يعشق الحشودَ والأماكن المزدحمة وأصوات السيارات والأضواء وروائح الويسكي الرخيص. كنت فتى شقياً مخادعاً، مسخاً خبيثاً طويل اللسان وواسع الحيلة وجد نفسَه عالقاً في مكانٍ مقفرٍ، تحت سماء كئيبة مكفهرّة.

كانت أملاك المعلّم ياهودي عبارة عن سبعة وثلاثين هكتاراً من التراب، ومنزل ريفي من طابقين، وقنّ دجاج، وزريبة خنازير، وحظيرة. كانت هناك اثنتا عشرة دجاجة، وبقرتان والحصان الرمادي في الحظيرة، وستة أو سبعة خنازير في الزريبة. لم يكن هناك كهرباء، أو تمديدات صحية، أو هاتف، أو لاسلكي، أو فونوغراف، أو أي شيء آخر. فقد كان البيانو الموجود في الردهة مصدر التسلية الوحيد، لكن إيسوب كان الوحيد الذي يجيد العزف عليه، وكان يعزف أبسط الأغاني بطريقة مروعة إلى درجة أنني كنت أغادر الغرفة في اللحظة التي يجلس فيها إلى البيانو ويلمس المفاتيح بأصابعه. كان المكانُ

قاذورة حقيقية وبؤرة للضجر والإحباط وقد سئمتُ منه بعد مضيّ يوم واحد على إقامتي فيه. حتى إنهم لم يعرفوا شيئاً عن البيسبول في ذلك المنزل، ولم أجد أحداً أكلّمه عن فريق "كاردينالز"، وهو الموضوع الوحيد الذي كان يثير اهتمامي حينها. شعرت كأنني هويتُ في صدعٍ تشقق في الزمن وهبطتُ في العصر الحجري، في بلدٍ لا تزال الديناصورات تجوب الأرض فيها. وتبعاً لرواية ماما سو، كان المعلّم ياهودي قد ربح المزرعة من رهانٍ على شخص ما في شيكاغو قبل سبع عشرة سنة. يا له من رهان عظيم، قلْتُ لها. الخاسرُ هو الرابح، والرابح هو شخصٌ أحمق يمضي بقيّة حياته في بَنغهولفيل في الولايات المتحدة الأميركية.

كنْتُ صبيّاً متّقداً ومغفلاً في ذلك الوقت، أعترف بهذا، لكنني لن أقدّم أية اعتذارات بهذا الشأن. فقد كنتُ ما كنت عليه، نتاجَ الأشخاص الذين عرفتهم والأماكن التي عشت فيها، ولا حاجة للتباكي حول تلك الأشياء الآن. الشيء المميّز الذي ترك فيّ انطباعاً مؤثراً خلال تلك الأشهر الأولى هو الصبرُ الذي أبدوه تجاهي وتفهّمُهم لي وتحمّلُ مزاجي وسلوكي. هربت أربعَ مرّات خلال أوّل شتاء، ووصلتُ ذاتَ مرّة إلى ويتشوتا، وفي كل مرة كانوا يُعيدونني دون أية أسئلة. كنْتُ مجرد نكرة، عبارة عن جزيئة أو جزيئتين فوق النقطة المتلاشية لما يكوّن كائناً بشرياً، وبما أن معلّمي قدّر أن روحي لا ترتقي فوق روح حيوان، فقد وضعني هناك؛ في الحظيرة مع الحيوانات.

على الرغم من كرهي للعناية بتلك الدجاجات والخنازير، فقد كنت أفضّل رفقتَها على البشر. كان من الصعب عليّ أن أحدّد

الشخصَ الذي يحظى بكرهي الشديد، وكنت أعيد ترتيب الأسماء بشكل يومي. حصل كلّ من ماما سو وإيسوب على حصة كبيرة من الازدراء الداخلي، ولكن في النهاية كان المعلّم ياهودي هو مَن يثير فيّ أكبر قدرٍ من الحنق والاستياء. فقد كان الوغدَ الذي خدعني وأقنعني بالذهاب إلى هناك، والوحيد الذي يتحمّل مسؤولية ما آلت إليه أحوالي. لكن ما أغاظني أكثر من أي شيء آخر هو سخريته، والشتائم والإهانات المتواصلة التي كان يقذفني بها، والطريقة التي كان يهينني بها دون أيّ سبب وجيه لكي يثبتَ تفاهتي وانحطاطي. كان مهذباً مع الآخرَين، مثالاً رائعاً للّباقة واللطف، لكنه لم يكن يوفر فرصة لتوبيخي وتحقيري. بدأ ذلك في الصباح الأول، ولم يتوقف بعد ذلك. وقد أدركتُ بعد فترة وجيزة أنه ليس أفضل من عمّي سليم. ربما لم يرمِ بي كما فعل سليم، لكن كلمات المعلم كان قوية ونافذة وقد أصابتني بقدر كبير من الأذيّة.

"حسناً، أيها الوغد ذو الريش الجميل"، قال لي في ذلك الصباح الأول، "هات كلّ ما لديك عن خلفياتك الثلاث".

"الثلاث؟" قلت له بشيء من التذاكي. "ليس لدي سوى خلفية واحدة، وأستعملها كلما جلست. كما يفعل الجميع".

"أعني المدرسة، يا غبي. هل دخلت إلى قاعة دراسية في حياتك؛ وإن حصل ذلك، فما الذي تعلّمته هناك؟".

"لست بحاجة إلى المدرسة لكي تعلّمني أي شيء. لديّ طرق أفضل من ذلك لإضاعة وقتي".

"ممتاز. إجابة تليق بطالب علمٍ حقيقي. ولكن كُنْ أكثرَ دقّة. ماذا

عن الأحرف الأبجدية؟ هل تستطيع كتابة الأحرف أم لا؟".

"بعضها فقط. الأحرف التي تفيدني. أما الأحرف الأخرى فلا حاجةَ لي بها. لا تجلب لي سوى الألم، ولذلك لا أفكر فيها".

"وما الأحرف التي تفيدك؟".

"دعنا نرَ. هناك الألف، أحبّ هذا الحرف، وهناك الواو. ثم هناك، ماذا تسمونها، اللام، والراء، وذلك الحرف الذي يبدو أشبه بصحن الطعام. التاء. أحبّ هذه الأحرف فقط، أما البقية فيمكنها أن تذهب إلى الجحيم".

"تعرف كيف تكتب اسمك، إذاً".

"هذا ما أحاول قولَه لك، يا معلّم. أعرف كيف أكتب اسمي، وأعرف كيف أعدّ أيضاً، وأعرف أنّ الشمس نجمٌ في السماء. أعرف أيضاً أن الكتب للبنات والمخنّثين، وإن كنتَ تفكر في تعليمي أي شيء من الكتب، فمن الأفضل أن نلغي الاتفاق الذي بيننا في هذه اللحظة".

"اهدأ يا ولد. ما قلتَه لي الآن أشبه بالموسيقا على أذنيّ. فكلّما كنتَ أكثر غباءً، كان ذلك أفضل لكلينا. بهذه الطريقة، هناك أشياءُ أقل عليّ أن أنسيكَ إياها، وهذا سيوفّر علينا الكثير من الوقت".

"وماذا عن دروس الطيران؟ متى نبدأ بها؟".

"لقد بدأنا بها سلفاً. فمن الآن وصاعداً، كل ما نفعله سيكون مرتبطاً بتدريبك. ربما لن يكون ذلك واضحاً لك على الدوام، لذلك حاول أن تتذكر ذلك. وإن لم تنسَ ذلك، فسوف تحتمل كل شيء عندما تصبح الأمور صعبة. سوف نخوض في رحلة طويلة يا بنيّ،

وأوّل ما عليّ فعله هو أن أحطّم روحك. أتمنى لو أن هناك طريقة مختلفة، لكنها الوسيلة الوحيدة. وإذا فكرنا في القاذورة التي طلعت منها، يجب ألا تكون المهمة صعبة".

وهكذا قضيتُ أيامي وأنا أنقل الزبلَ في الحظيرة وأعاني من البرد القارس بينما الآخرون يتمتعون بدفء المنزل. كانت ماما سو تهتم بالطبخ والمهامّ المنزلية، وكان إيسوب يستلقي على الصوفا ويقرأ الكتب، ولم يكن المعلّم ياهودي يعمل أي شيء. بدا أن همّه الوحيد هو الجلوس في كرسي خشبي منذ طلوع الشمس إلى مغيبها والنظر من النافذة. فباستثناء أحاديثه مع إيسوب، كان ذلك الشيء الوحيد الذي يفعله قبل مجيء الربيع. وكنت أحياناً أصغي إلى أحاديثهما دون أن أفهم منها شيئاً. كانا يستخدمان الكثير من الكلمات المعقدة وكأنهما يتواصلان من خلال لغة خاصة بهما. ثم بعد أن ألفْتُ الحياة هناك قليلاً، عرفتُ أنهما يدرسان. فقد تكفّل المعلّم ياهودي بتعليم إيسوب وتثقيفه في الفنون الليبرالية، وكانت الكتب التي يدرسانها تدور حول مواضيع مختلفة مثل التاريخ، والعلم، والأدب، والرياضيات، واللاتينية، والفرنسية، إلخ. كان يخطط لتعليمي الطيران، لكنه كان أيضاً منكباً على تثقيف إيسوب وتعليمه، وقد لاحظت أن المشروع الثاني كان أكثر أهمية بالنسبة إليه. فكما قال لي المعلّم في أحد الصباحات بعد فترة قصيرة من وصولي: "كان أسوأ منك أيها البهيم. فعندما وجدْتُه قبل اثني عشر عاماً، كان يزحف في حقل قطنٍ في جورجيا بأسمالٍ بالية. لم يكن قد تناول الطعام منذ يومين، وقد ماتت أمه، التي كانت طفلة أيضاً، من

السلّ الرئوي في كوخهما الذي يبعد أربعة عشر ميلاً. كان الطفل قد ابتعد كل هذه المسافة عن البيت. كان يتضور جوعاً، ولو لم أقع عليه بالصدفة حينها لما كان بمقدور أحد أن يتوقّع ما الذي سيؤول إليه. صحيح أنّ جسمه مشوه بشكل مأسَوي، لكنّ عقلَه رائع، وقد تفوّق عليّ في معظم المجالات والحقول. أخطّط لإرساله إلى الجامعة بعد ثلاث سنوات من الآن. يمكنه متابعة دراسته هناك. وحالما يتخرّج ويخرج إلى العالم، فسوف يصبح قائداً لعِرقه، ومثالاً ساطعاً لجميع السود المضطهدين في هذا البلد العنيف والمنافق". لم أفهم شيئاً مما يقوله المعلّم، لكن الحبّ الكامن في صوته تسرّب إلى دواخلي وترك فيّ أثراً عميقاً. فعلى الرغم من غبائي، تمكنتُ من فهم شيء ما. كان يحب إيسوب كأنّه ابنه، أما أنا فلم أكن أكثر من جروٍ حقير، أو حيوانٍ هجين جدير بأن يبصق عليه الآخرون ويتركوه وحيداً تحت المطر.

كانت ماما سو شريكتي في الجهل والأمية والكسل، لكن هذه الأشياء التي نشترك بها معاً لم تساهم في تعميق العلاقة بيننا. لم تكن تُظهر أيّ نوع من العدوانية، لكنها كانت تخيفني في الوقت نفسه، وأعتقد أنني وجدت صعوبة في الاعتياد على شخصيتها الغريبة أكثر من الشّخصَين الآخرين، على الرغم من شخصيتيهما الغريبتين. فحتى عندما كانت تزيح البطانيات عنها وتخلع قبعتَها، لم أتمكن من تحديد جنسها. أزعجني ذلك بعض الشيء. وحتى بعد أن لمحتُها عاريةً من خلال ثقب باب غرفتها ورأيت بعينيّ الاثنتين أنها تمتلك ثديين وليس لها عضوٌ يتدلى من دغلها، لم أقتنع بشكل كامل. كانت يداها خشنتين كأيدي الرجال، وتملك كتفين عريضتين وعضلاتٍ

تنفر من أعلى ذراعيها، وباستثناء تلك المرة التي منحتني واحدة من ابتساماتها الجميلة والنادرة كان وجهُها نائياً ومنكمشاً كقطعة من الخشب. وهذا ما أزعجني أكثر من أي شيء آخر؛ صمتها، وتلك النظرة التي تخترقني وكأنني غير موجود. وتبعاً للنظام المعمول به في المنزل، كنت آتي في المرتبة التي تليها، مما يعني أن علاقتي معها كانت مباشرة أكثر من علاقتي مع الآخرين. كانت تحدد لي المهمات وتشرف على إنجازي لها، وكانت تتأكد من أنني غسلتُ وجهي ونظفت أسناني قبل النوم. ولكن على الرغم من الساعات الطوال التي كنت أقضيها برفقتها، كنت أشعر بوحدةٍ فظيعة. كان ينتابني شعورٌ طاغٍ بالفراغ في حضرتها وكأن مجرد الاقتراب منها يزرع فيّ شعوراً بالانقباض والانكماش. ولم يكن سلوكي ليغيّرَ في الأمر شيئاً. فسواء قفزْتُ إلى الأعلى والأسفل، أو وقفْتُ ثابتاً بلا حراك، أو صرختُ بأعلى صوتي أو لذتُ بالصمت، كانت النتائج واحدة دائماً. كانت ماما سو عبارة عن جدار، وكلما دنوْتُ من ذلك الجدار أتبخّر وأتحوّل إلى غيمة صغيرة من الرماد سرعان ما تبدّدها الريح.

كان إيسوب الشخصَ الوحيد الذي يعاملني بلطف حقيقي، لكنني رفضْتُه منذ البداية ولم يكن لأي شيء يقوله أو يفعله أن يغيّرَ من موقفي ذاك. لم يكن الأمر في يدي. كان احتقاري له شيئاً يسري في دمي، وبما أنه أقبح كائن تراه عيناي، لم أحتمل فكرة عيشنا معاً تحت سقفٍ واحد. كان ذلك مغايراً لقوانين الطبيعة وانتهاكاً لجميع المقدسات والأعراف، ولم أكن لأسمحَ لنفسي بتقبّله. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن إيسوب كان يتكلم بطريقة مختلفة عن أي

صبيّ أسودَ على وجه الأرض – مثل لوردٍ إنكليزي، وليس كشخص أميركي – وأنه الشخص المفضّل لدى المعلّم، لم أكن قادراً على التفكير فيه دون أن تجتاحَني مشاعرُ الغضب. ومما زاد في الطين بلّة هو إرغامي على التزام الصمت في حضرته. أعتقد أنّ كان من شأن بعض التعليقات أن تخفف قليلاً من غضبي، لكنني كنت أتذكر إصبعَ المعلم وهي تضغط على حنجرتي ولم أكن مستعداً لذلك النوع من التعذيب والعقاب. مكتبة سُر مَن قرأ

كان أسوأ ما في الأمر كله أنّ إيسوب لم يأبه لفكرة ازدرائي الكبير له. عملتُ على إتقان مجموعة من الإيماءات والحركات البغيضة التي ألجأ إليها في حضرته، ولكن في كل مرة كنت أرميه بتلك النظرات الحاقدة يهزّ رأسَه ويبتسم. وكان ذلك يُشعرني بنوع من البلاهة. فبغض النظر عن محاولاتي اليائسة لإيذائه والنيل منه، لم يكن يسمح لي بالتأثير عليه أو تسجيل أي نقطة ضده. وبذلك لم يربح الحربَ الدائرة بيننا فقط، بل فاز بمعارك هذه الحرب كلها، وفكرتُ في أنني إن لم أفلح في التغلب على شيطانٍ أسودَ في تبادلٍ عادلٍ للإساءات، فلا بد أن تكون براري كانساس تلك مسحورةً. لقد جيء بي إلى أرضٍ تعجّ بالأحلام المخيفة، وكلما حاولتُ الاستيقاظ صار الكابوسُ أكثرَ رعباً.

"أنتَ تبذل جهداً كبيراً في المحاولة"، قال لي إيسوب في إحدى الأمسيات. "إن حسّك الأخلاقي يستهلكك إلى درجة أنه أعماكَ عن الأشياء الموجودة حولك. وإن لم تستطع رؤية الأشياء الماثلة أمامك، فلن تتمكن أبداً من رؤية نفسك ومعرفتها".

"أعرف نفسي جيداً"، قلت له. "ولا يمكن لأحد أن يسلب ذلك مني".

"المعلّم لا يسرق أي شيء منك. إنه يهبكَ العظمة".

"اسمع، هل لك أن تقدّم لي معروفاً؟ لا تذكر اسم ذلك الأفّاق أمامي. إنه يسبّب لي القشعريرة، معلّمك ذاك، وكلما تناسيتُه شعرت براحة أكبر".

"إنه يحبك يا وولت. إنه يؤمن بك ملء روحه".

"يؤمن بي، نعم! هذا النصّاب لا يأبه لأي شيء. إنه ملك الغجر ببساطة شديدة، وإن كان يملك روحاً – ولا أعني بذلك أنه يملك أية روح – فهي مجبولة على الشر بشكل كامل".

"ملك الغجر؟"، جحظت عينا إيسوب من وطأة الدهشة. "هل هذا ما تظنّه؟". لا بدّ أن الفكرة قد دغدغته، فقد أمسك بمعدته بعد لحظة وأخذ يضحك بقوة. "أنت ماهر في ابتكار الأفكار الظريفة"، قال وهو يمسح الدموع عن عينيه. "من أين أتتك هذه الفكرة الجهنمية؟".

"إن لم يكن غجرياً"، قلت له وقد احمرّت وجنتاي من الارتباك والخجل، "فماذا يكون إذاً؟".

"هنغارياً".

"ماذا؟" قلت متلعثماً. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً يستخدم تلك الكلمة، وقد أربكَتْني إلى درجة أنني فقدتُ القدرة على الكلام.

"إنه هنغاري. ولد في بودابست وقدم إلى أميركا عندما كان صبياً

صغيراً. نشأ في بروكلين، في نيويورك، وكان أبوه وجدّه حاخامين".
"وماذا يعني ذلك؛ نوعاً أدنى من القوارض؟".
"يعني معلّماً يهودياً، أشبه بالكاهن أو القسّ في الديانة اليهودية".
"حسنٌ إذاً"، قلت له. "هذا يفسر كل شيء، أليس كذلك؟ إنه أسوأ من الغجري، الدكتور العجوز ذو الحاجبين الداكنين – إنه يهودي. وهو أسوأ شيء على وجه البسيطة".
"من الأفضل ألّا يسمعك تقول أشياء كهذه"، قال إيسوب.
"أعرفه جيداً"، قلت له. "ولن أسمح لأي يهودي أن يتأمّر عليّ، أقسم على ذلك".
"على رسلك يا وولت. أنت تبحث عن المشاكل".
"وماذا عن تلك الساحرة اللعينة، ماما سو؟ هل هي يهودية أيضاً؟".

هز إيسوب رأسَه وأطرق في الأرض. كان الغضب يعتمل في صوتي فلم يتمكّن من النظر إلى عينيّ. "لا. إنها من قبيلة أوغلالا سيو. كان والدُها شقيقَ سيتينغ بول، وعندما كانت صغيرة كانت أفضلَ فارسة في عرض الغرب المتوحش الذي يقيمه بافالو بيل".
"أنت تمزح بالتأكيد".
"لا، لا أمزح أبداً. فما أقوله لك هو الحقيقة بعينها. أنتَ تعيش في منزل واحد مع يهودي، ورجل أسود، وهندية. وكلّما تقبّلت هذه الحقائق سريعاً، تحسّنت حياتك وأصبحتَ أكثر سعادة".
كان من الممكن أن أنتظر ثلاثة أسابيع، ولكن بعد تلك المحادثة مع إيسوب أدركتُ أنه لم يعد بمقدوري أن أحتمل الوضع. هربتُ

في الليلة نفسها. انتظرت حتى نام الجميع؛ خرجتُ زاحفاً من تحت الأغطية، ثم تسلّلت على الدرج، ومن ثم غادرت المنزلَ وضعتُ في ظلمة ديسمبر الباردة. لم يكن هناك قمرٌ فوقي، ولا نجمة تضيء طريقي، وحالما تجاوزتُ عتبة البيت صفعتني ريحٌ قوية قذفت بي إلى جانب المنزل. لم تكن عظامي أقوى من القطن في مهبّ تلك الريح. كان الليلُ يزأر بالأصوات القوية والهواءُ يعصف بقوة كأنه يحمل صوت الله ويصبّ جامَ غضبه على أي مخلوق أحمق يجازف بالوقوف في وجهه. صرتُ ذلك الأحمق، إذ كنت أنهض عن الأرض مرة بعد أخرى وأمخر عبابَ تلك العاصفة الهوجاء، ثم أدور كالعجَلة وأنا أدفع بجسدي نحو الساحة المفتوحة. وبعد محاولات عديدة، شعرت بإنهاك شديد. كنت قد وصلت إلى حظيرة الخنازير، وفي اللحظة التي حاولت الاتكاء على ركبتيّ مرة أخرى أُطبقَت عيناي وسقطت مغشياً عليّ. مرّت الساعات. استيقظتُ مع مطلع الفجر لأجد نفسي محاطاً بأربعة خنازير نائمة. لو لم أقع وسط تلك الخنازير، لتجمدتُ ربما حتى الموت في الليل. عندما أفكر في ذلك الآن، يبدو الأمر كمعجزة، ولكن عندما فتحتُ عينيّ في ذلك الصباح ورأيت أين أنا، كان أول شيء فعلته أنّي وقفْتُ على قدميّ وبصقت ثم لعنتُ حظّيَ التّعِس.

كنت متأكداً أن المعلّم ياهودي مسؤول عما حدث لي. ففي تلك المرحلة المبكرة من علاقتنا، كنت أعزو جميع أنواع القوى الخارقة إليه، وكنت على قناعة تامة أنه هو الذي أثار تلك الريح الشرسة لا لأي سبب سوى أن يحول دون هربي. فبعد عدة أسابيع

من تلك الحادثة، احتشدَت في رأسي مجموعةٌ كبيرة من النظريات والاعتقادات الجامحة. كان أسوأها يتعلّق بإيسوب وبقناعتي المطلقة بأنه وُلِد شخصاً أبيض. كان مريعاً التفكير في ذلك، ولكن بدا لي أن جميع الدلائل تدعم استنتاجي ذاك. كان يتكلم كرجلٍ أبيض، أليس كذلك؟ وكان يتصرف كرجل أبيض، ويفكر كرجل أبيض، ويعزف على البيانو كرجل أبيض، فلماذا أصدّق عينيّ وأكذب حدسي لمجرد أنّ له سحنة سوداء؟ الإجابة الوحيدة هي أنه ولد أبيض. فقبل سنوات طويلة، اختاره المعلّمُ ليكون تلميذه الأول في فنّ الطيران. كان قد طلب من إيسوب أن يقفز من على سطح الحظيرة، وقد قفز إيسوب؛ ولكن عوضاً عن التعلق بالتيارات الهوائية والتحليق في الهواء، هوى ساقطاً على الأرض وكسر عظامه كلها. سبّب ذلك التشوه الجسدي الذي يبدو عليه، ولكي يزيد الطين بلّة عاقبَه المعلّم ياهودي على فشله. استحضر قوة مئة شيطان يهودي ووجّه إصبعه نحو تلميذه وحوّله إلى زنجيّ شنيع. آلت حياة إيسوب إلى الدمار، وكنت واثقاً أنّ المصير نفسه بانتظاري. فلن أتحوّل فقط إلى شخص بسحنة سوداء وجسد مشوّه ومعاق، ولكن سيكون عليّ أن أقضي بقية أيامي في دراسة الكتب.

هربتُ مرة ثانية في فترة بعد الظهر. كان الظلامُ قد أحبطني بسحره، لذلك طلعْتُ بإستراتيجية جديدة وهربْتُ في وَضَح النهار ظنّاً مني أنّي لو تمكنتُ من رؤية طريقي فلن تعيق حركتي أيّةُ شياطين. خلال الساعة الأولى، أو أول ساعتين، سار كلّ شيء تبعاً للخطة المرسومة. تسلّلتُ خارجاً من الحظيرة بعد الغداء مباشرة وسرتُ

متوجهاً نحو سيبولا وقد صممت على التحرك بخطوات حثيثة والوصول إلى البلدة قبل هبوط الليل. ومن هناك كنت سأستقل قطار شحنٍ وأعود نحو الشرق. فإن لم أرتكب أية حماقة، سوف أتجول في ساحات سينت لويس الحبيبة بعد مضيّ أربع وعشرين ساعة من الآن.

بينما كنت أحث السير في ذلك الطريق الترابي المسطح مع فئران الحقول والأبقار وأشعر بثقة أكبر مع كل خطوة أقطعها، رفعتُ رأسي فجأة ولمحتُ عربة صغيرة قادمة من الاتجاه المعاكس. بدت مثل عربة المعلّم ياهودي تماماً، ولكن بما أنني كنت قد رأيت العربة أثناء خروجي من الحظيرة اعتقدتُ أنها مجرد مصادفة وتابعت السير. وعندما اقتربت منها قليلاً، نظرت إلى الأعلى ثانية. تجمّد لساني على سقف حلقي، وخرجت عيناي من محجريهما وسقطتا على قدميّ. كانت عربة المعلّم ياهودي، ولم يكن الشخص الجالس في العربة سوى المعلّم ياهودي نفسه وهو ينظر إليّ وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة. أوقف العربة، ثم رفع قبّعتَه لي بطريقة عرَضية وودودة.

"مرحباً يا بنيّ. الجو بارد قليلاً على المشي في هذه الساعة، أليس كذلك؟".

"هذا الطقس يناسبني"، قلت له. "على الأقل يمكن للمرء أن يتنفس هنا. فإن بقيتَ في مكان واحد لوقت طويل، ينتابك شعور بالاختناق".

"بالتأكيد، أعرف ذلك. فالمرء بحاجة إلى تحريك ساقيه. لكن

النزهة انتهت الآن، ويجب أن تعود إلى البيت. اقفز إلى العربة يا وولت، وسوف نرى إن كان بمقدورنا الوصول قبل أن يستشعرَ أحدٌ غيابَنا".

لم يكن لديّ خيار آخر فقفزت إلى العربة وجلست بجانبه وهو يهز اللجام وينطلق بالعربة ثانية. على الأقل لم يكن يعاملني بوقاحته المعهودة، وعلى الرغم من الغيظ الذي كان يعتمل فيّ لفشل خطتي لم أكن أنوي الكشف عن مآربي. ربما خمّن ذلك على أية حال، ولكن عوضاً عن التعبير عن الإحباط الذي كنت أشعر به تظاهرتُ بالتماشي مع قصّة التنزّه تلك.

"ليس من الحكمة حبس صبي لفترة طويلة"، قلت له. "فهذا يجعله حزيناً وسيئ الطبع، مما يعطله عن أداء واجباته بالطريقة المطلوبة. فإن منحتَ الشخص بعضاً من الهواء النقي، فإنه يتحمس أكثر لأداء عمله".

"أسمع ما تقوله يا بنيّ"، قال المعلم، "وأفهم كلّ كلمة تقولها".

"إذاً يا كابتن. أعرف أن سيبولا ليست مدينة كبيرة، ولكن لا بد أن تكون هناك بعض العروض أو الأفلام. أحب أن أذهب إلى هناك في إحدى الأمسيات، من باب التغيير وكسر الروتين. أو ربما يكون هناك نادٍ كروي في هذه الأنحاء، أحد فرق الدرجة الثانية أو الثالثة ربما. عندما يأتي الربيع، لماذا لا نذهب إلى مباراة أو اثنتين؟ ليس من الضروري أن تكون مباراة من الدرجة الأولى؛ أعني، درجة ثالثة ربما. ما داموا يستخدمون مضارب البيسبول والكرات، فلن أتذمر أبداً. لا تعرف ما يمكن أن يحدث يا سيدي. فإن حاولت قليلاً ربما

تعتاد على ذلك أنت أيضاً".

"أنا واثق أنني سأعتاد عليه. ولكنْ هناك أعمال كثيرة لا تزال بانتظارنا، وفي الوقت الحالي يجب على العائلة الابتعاد عن هذه الأشياء. فكلما اختفينا عن الأنظار، تمتعنا بقدر أكبر من الأمان. لا أريد أن أخيفك، لكن الحياة هنا ليست باهتة كما تبدو لك. لدينا بعض الأعداء الأقوياء هنا، وهم ليسوا سعداء بوجودنا في مقاطعتهم. لن يأبه الكثير منهم إن توقفنا عن التنفس، ولا نريد أن نستفزهم بالتجول في الأماكن العامة".

"ما دمنا نهتم بشؤوننا فقط، فما الذي يعنينا في ما يفكر الآخرون؟".

"هذه هي المشكلة. فبعض الناس يعتقدون أن شأننا هو شأنهم أيضاً، ولا أنوي الاقتراب من أولئك المتطفلين. هل تفهم ما أعنيه يا وولت؟".

قلت له إنني أفهم ما يعنيه، ولكن في حقيقة الأمر لم أفهم ما يقوله. الشي الوحيد الذي فهمتُه هو أنّ هناك أشخاصاً يرغبون في قتلي وأنّه ممنوع عليّ الذهاب إلى مباريات البيسبول. حتى النبرة اللطيفة في صوت المعلم لم تساعدني على استيعاب حقيقة الأمر، وطوال رحلة العودة إلى المنزل بقيت أقول لنفسي كنْ قوياً ولا تيأس. فعاجلاً أم آجلاً سأجد طريقة للخروج من هنا، وعاجلاً أم آجلاً سوف أترك ذلك الساحر في هذا الغبار كله.

أخفقت محاولتي الثالثة بشكل بائس كما حصل معي في المرتين الأخريين. غادرت في الصباح، وعلى الرغم من أنني تمكنت من

الوصول إلى مشارف سيبولا، كان المعلّم ياهودي بانتظاري هناك مرة أخرى، قابعاً في العربة الصغيرة وعلى وجهه ترتسم تلك النظرة الواثقة نفسها. أربكتني تلك الحادثة كثيراً. فعلى العكس من المرة السابقة، لم أتمكّن من إقناع نفسي بوجوده هناك من قبيل المصادفة. بدا لي الأمر وكأنه كان يعرف بنيّتي على الهرب قبل أن أعرف بها أنا. كان الوغدُ داخل رأسي، يمتص سوائل دماغي، دون أن أتمكن من إخفاء أعمق أفكاري عنه.

لكنني لم أستسلم. سوف أتصرف بذكاء أكبر وأعتمد على منهجية دقيقة في التخطيط والتنفيذ. وبعد تفكير طويل، تبيّن لي أن السبب الرئيسي لمشاكلي هو المزرعة نفسها. لم أستطع الخروج من هناك لأن المكان منظمٌ جداً ومكتفٍ بشكل كامل. كنا نحصل على الحليب والزبدة من الأبقار، والبيض من الدجاجات، واللحم من الخنازير، والخضار من القبو الزراعي، وكان لدينا مخزونٌ ضخم من الطحين والملح والسكر والثياب، ولم يكن هناك أي سبب لذهاب أحدٍ إلى البلدة لشراء أي شيء. ولكن ماذا لو نفد شيء ما، قلت لنفسي، ماذا لو احتجنا إلى شيء ضروري لا يمكننا العيش من دونه؟ سيكون على المعلّم أن يذهب لإحضار المزيد من المؤن، أليس كذلك؟ وحالما يذهب، سوف أتسلل من المكان وأهرب.

بدا الأمر في غاية البساطة إلى درجة أنني أوشكت على الضحك فرحاً عندما خطرت لي الفكرة. كنا في شهر فبراير حينها، وخلال الأسابيع التالية كان تفكيري كله مركزاً على التخريب. اعتملَ ذهني بآلاف المؤامرات والخطط والكثير من الأفعال المرعبة والتدميرية.

فكرتُ في أن أبدأ بعمليات صغيرة - كأن أمزق كيساً أو كيسين من الطحين، أو أتبوّل في برميل السكر - ولكن إن فشلت تلك الأشياء في إعطاء النتيجة المرغوبة، فلن أتردد في القيام بأعمال تخريبية أكبر؛ كإطلاق الدجاجات من القن، على سبيل المثال، أو ذبح الخنازير. كنت مستعداً لفعل أي شيء للخروج من هناك، وإن اقتضى الأمر سأكون مستعداً لإشعال النار في القش وإحراق الحظيرة كلها.

لكن لم يحدث شيء من تلك الأشياء التي تخيّلتها. سنحت لي فرص كثيرة، ولكن في كل مرة كنت أعزم على تنفيذ خطة ما كانت أعصابي تخونني. كان الخوف يعتريني ويبدأ قلبي بالخفقان، وحالما تُقدم يداي على ارتكاب الفعلة كانت قوة غير مرئية تسلبني قوتي. لم يحدث لي شيء كذلك من قبل. فطالما كنتُ صبياً مشاكساً يمسك بزمام دوافعه ورغباته. عندما كنت أرغب في فعل شيء ما، كنت أبادر إلى ذلك فوراً بقدرٍ كبير من الجسارة والتهور. أما الآن فمحبطٌ ومشلول الإرادة، وقد احتقرت نفسي لجُبني ذاك، ولم أفهم كيف لمارقٍ مثلي أن ينحدر إلى ذلك المستوى. كان المعلّم ياهودي قد تغلّب عليّ مرة أخرى. فقد حوّلني إلى دمية بين يديه، وكلّما حاولتُ أن أهزمه، قام بشدّ الخيوط أكثر.

عشت شهراً من الجحيم قبل أن أجد الشجاعة للقيام بمحاولة أخرى. وفي هذه المرة بدا أن الحظ يحالفني. فلم تمضِ عشرُ دقائق على وصولي إلى الطريق حتى أقلّني سائق عابر وأوصلني إلى ويتشوتا. كان ألطف شخص أقابله في حياتي؛ طالباً جامعياً ذاهباً لرؤية خطيبته، وقد حصل تناغم بيننا منذ اللحظة الأولى لانطلاقنا،

فكنا نتبادل القصص طوال المسافة التي استغرقت ساعتين ونصفاً. أتمنى لو أستطيع تذكّر اسمه. كان شخصاً أخرق ذا شعرٍ رملي وأنفٍ منمّش، يرتدي قبعة جلدية صغيرة. ولسببٍ ما أذكر أن اسم خطيبته هو فرانسين، لكن السبب يكمن في حديثه المتواصل عنها وصولاً إلى تفاصيل مثل حلمتيها الورديتين وثيابها الداخلية المزركشة. كان ذو "القبعة الجلدية" يملك سيارة فورد جديدة ويقود السيارة في ذلك الطريق الخالي بسرعة جنونية وكأنه يسابق الزمن. شعرت بالحرية والسعادة الغامرة، وكلما انتقلنا من موضوع إلى آخر تعاظم شعوري بالحرية والسعادة. لقد نجحت هذه المرة، قلت لنفسي. لقد تمكنت من الهرب أخيراً، ومن الآن فصاعداً لن يوقفَني أحد.

لا يمكنني أن أحدد بالضبط ما توقعته من ويتشوتا، لكنه لم يكن متطابقاً مع تلك البلدة الريفية البائسة التي اكتشفتها في ذلك المساء من سنة ١٩٢٥. كان المكانُ بائساً ومقفراً، يشي بالسأم والكسل. أين الصالونات والقتلة المهرة والمقامرون؟ أين ويات إيرب؟ بغض النظر عما كانت عليه ويتشوتا في الماضي، بدت الآن مجموعة بائسة من المخازن والمنازل، بلدة واطئة جداً إلى درجة أن كوعك يضرب بالسماء كلما توقفتَ لتهرش رأسك. كنت قد خططتُ لتدبير أموري وقضاء بضعة أيام هناك أعود بعدها إلى سينت لويس بشيء ما. لكن جولة سريعة في شوارع البلدة دفعتني إلى التخلي عن تلك الفكرة، وبعد وصولي بنصف ساعة كنت أبحث عن قطارٍ يقلّني بعيداً عن ذلك المكان.

شعرت باليأس والإحباط، حتى إنني لم ألاحظ الثلج الذي بدأ

يتساقط. كان مارس أسوأ فصل للعواصف في تلك المقاطعة، لكن الصباح كان مشمساً وصاحياً إلى درجة لم أتوقع معها هذا التغير الكبير في الطقس. بدأ الثلج يتساقط خفيفاً على شكل ندفٍ بيضاء تتسرب عبر الغيوم، ولكن بينما تابعت سيري بحثاً عن محطة القطار، أخذت تلك الندف تتكاثف وتشتد أكثر فأكثر، وعندما توقفتُ لأرتّب هندامي بعد خمس أو عشر دقائق اكتشفت أن الثلج يغطيني من رأسي إلى أخمص قدمي. كان الثلج يتساقط بغزارة شديدة. وقبل أن أتمكن من التلفّظ بعبارة "عاصفة ثلجية"، هبت الريح وأخذت تنثر الثلج في جميع الاتجاهات. حدث ذلك بشكل سريع وغريب. ففي لحظة كنت أتمشى في شوارع ويتشوتا، ثم سرعان ما وجدت نفسي تائهاً أخوض في عاصفة بيضاء. لم أعد أعرف أين أنا. كنت أرتجف تحت ثيابي المبللة، والريح تعصف بقوة، وأنا أتحرك في وسطها في دوائر لا تنتهي.

لست متأكداً كم من الوقت خضتُ في ذلك الوحل. ليس أقل من ثلاث ساعات، على ما أظن، وربما خمس أو ست ساعات. وصلت إلى البلدة في بداية المساء، وكنت لا أزال في الشوارع بعد هبوط الليل، أشق طريقي عبر الأكوام الثلجية، غارقاً إلى ركبتيّ، ثم إلى خصري، ثم إلى رقبتي، باحثاً عن مأوى ما قبل أن يبتلع الثلج جسمي كله. كان عليّ أن أتابع السير، فأي توقف قصير سوف يؤدي إلى دفني في الثلج، وقبل أن أتمكن من الخروج سوف أتجمد حتى الموت أو أختنق. لذلك تابعت التقدم بصعوبة بالغة، مع أنني أدركت أن لا فائدة من ذلك، ومع أنني أدركت أن كل خطوة أقوم بها كانت تقرّبني من

حتفي. أين هي الأضواء؟ كنت أسأل نفسي طوال الوقت. كنت أبتعد أكثر فأكثر عن البلدة وأتوغل في الريف الخالي من السكان، ولكن في كل مرة كنت أغير وجهتي كنت ألقى بنفسي في قلب الظلمة نفسها، محاطاً بالعتمة الكثيفة والبرد القارس.

بعد فترة وجيزة، لم يعد أيّ شيء يبدو لي حقيقياً. كان ذهني قد توقف عن العمل، وإن كان جسدي لا يزال يجرّني إلى الأمام فهذا لأنه لم يعرف شيئاً أفضل يفعله. وعندما رأيت وهج الضوء الخافت من بعيد، لم يوحِ لي بأي شيء ذي أهمية. تقدمت مترنحاً صوبه، غير واعٍ لما أفعله، على غرار الفراشة التي تتحرك نحو الشمعة. اعتقدتُ أنه حلم ليس إلا، مجرد وهمٍ ألقته ظلالُ الموت في طريقي، ومع أنني تشبثت به أمامي طوال الوقت شعرت أنه سيختفي حالما أصل إليه.

لا أتذكر نفسي وأنا أزحف متسلّقاً الدرجات المؤدية إلى المنزل أو واقفاً على شرفته الأمامية، ولكن لا زلت أرى يدي وهي تمتد نحو قبضة الباب البورسلين البيضاء، كما أتذكر دهشتي لدى شعوري بها وهي تدور ويفتح سقاط الباب. دخلت إلى الردهة، وكان كل شيء ساطعاً هناك ومشعاً بحيث كان عليّ أن أغلق عينيّ. وعندما فتحتهما ثانية، رأيت امرأة واقفة أمامي؛ امرأة جميلة بشعرٍ أحمر. كانت ترتدي فستاناً أبيض طويلاً، وكانت عيناها الزرقاوان تنظران إليّ بنوع من الذهول والخوف أوشكتُ معه على البكاء. للحظة أو اثنتين، خلتُ أنها أمي، ولكن عندما تذكرتُ أن أمي ميتة أدركتُ أنني متُّ أيضاً ودخلتُ لتوي عبر بوابات الجنة اللؤلؤية.

"انظر إلى نفسك"، قالت المرأة. "أيها الصبي المسكين. انظر

إلى نفسك فقط".

"سامحيني على تطفلي يا سيدتي"، قلت لها. "اسمي وولتر رولي، وأنا في التاسعة من عمري. أعرف أن هذا سيبدو غريباً، ولكن سأكون ممتناً إن قلت لي أين أنا. لدي شعور أنني في الجنة، لكن هذا لا يبدو مناسباً بالنسبة إليّ. فبعد كل تلك الأشياء القذرة التي قمت بها، كنت دوماً أعتقد أن مآلي إلى الجحيم".

"يا إلهي"، قالت المرأة. "انظر إلى نفسك. تكاد أن تموت من البرد. تعالَ إلى البهو ودفّئ نفسك قرب النار".

قبل أن أكرر سؤالي عليها، أخذتني من يدي وقادتني حول الدرج إلى الغرفة الأمامية. وعندما فتحت الباب سمعتها تقول: "يا عزيزي، انزع ثياب هذا الصبي عنه وأجلسه بالقرب من النار. سوف أصعد إلى الأعلى وأحضر بعض البطانيات".

تجاوزت الردهة بنفسي ودخلتُ إلى البهو الدافئ وقطع الثلج تتساقط مني وتذوب عند قدميّ. كان رجل يجلس إلى مائدة صغيرة في الزاوية ويشرب القهوة من فنجان صيني رقيق. بدا أنيقاً في بزّته الرمادية اللؤلؤية، وكان شعره المزيت واللماع مردوداً إلى الخلف. كنت على وشك أن أقول له شيئاً عندما رفع رأسه وتبسّم، وعندها أدركت أنني قد متُّ وذهبت مباشرة إلى الجحيم. من بين جميع الصدمات التي تلقيتها خلال مسيرتي الطويلة، كانت الصدمة التي تلقيتها في تلك الليلة هي الأعظم.

"لا بد أنك فهمت الآن"، قال المعلم. "فأينما تُدِر وجهك، سوف تجدني هناك. مهما ابتعدت، سأكون دوماً بانتظارك في الجهة

الأخرى. المعلّم ياهودي موجود في كل مكان يا وولت، ولا يمكنك الهرب منه".

"يا بنَ الكلبة"، قلت له. "أيها المخادع الأفّاق. يا وجه النحس اللعين".

"تهذّب يا ولد. نحن في بيت السيدة ويذرسبون، ولن تقبل بأي نوع من السباب هنا. فإن كنت لا تريد الخروج إلى تلك العاصفة، عليك أن تخلع ملابسك وتتصرف بأدب".

"أجبِرْني على ذلك، أيتها الخرية"، أجبته قائلاً. "فقط حاولْ أن ترغمني على ذلك".

لكن لم يكن على المعلّم أن يفعل شيئاً. فبعدَ ثانية من إجابتي تلك، شعرت بفيض من الدموع الساخنة المالحة يتدفق على وجنتيّ. أخذت نفساً عميقاً، واستجمعتُ أكبر قدر من الهواء في رئتيّ، ثم أطلقتُ صرخةً مدوّية مشحونة بقدر كبير من البؤس واليأس. وأثناء ذلك، شعرت بشيء من الاختناق، ثم بدأ رأسي يدور. توقفتُ لآخذ نفساً آخر، ولكن قبل أن أدرك ما يحدث غُشيَ عليّ وسقطْتُ على الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مرضتُ لوقت طويل بعد ذلك. كان جسدي يشتعل، ومع تفاقم الحمّى التي كانت تنهشني بدا أكثر فأكثر أن عنواني البريدي التالي سيكون صندوقاً خشبياً. أمضيتُ الأيام الأولى في منزل السيدة ويذرسبون وأنا أعاني من الحمّى في غرفة الضيوف الواقعة في الطابق الثاني، لكنني لا أذكر شيئاً من ذلك. كما لا أتذكر عملية نقلي إلى المنزل، أو أي شيء آخر إلا بعد مضيّ بضعة أسابيع. وتبعاً لما أخبروني به، كنت متّ لولا ماما سو - أو ماما سيو، كما صرت أفكر فيها لاحقاً. كانت تجلس بالقرب مني على مدار الساعة، تغيّر الكمادات وتسقيني السوائل، كما كانت تنهض من كرسيها وترقص حول سريري ثلاث مرات في اليوم وهي تؤدّي إيقاعاً خاصاً على طبلة أوغلالا وتنشد صلوات للروح العظيمة، تتوسل إليها لكي تعطف عليّ وتعيد إليّ عافيتي. لا أعتقد أن ذلك كان ضرباً من الشعوذة أو العبث لأنهم لم يستدعوا أي طبيب لفحصي ومعالجتي، وبما أنني تحسنتُ وشفيت بشكل كامل فمن المحتمل أن شفائي كان على يديها.

لم يقدّم أحدٌ توصيفاً طبياً لمرضي. فكرتُ في أنّه ناجم عن الساعات الطوال التي قضيتها في قلب العاصفة، لكن المعلم استبعد ذلك التفسير تماماً. كان "وجع الكينونة"، كما قال، وكان سيحلّ بي عاجلاً أم آجلاً. كان يجب تطهير جسدي من السموم قبل إحراز أي

تقدّم في التدريب، وما كان سيأخذ نحو ستة أو تسعة أشهر (تتخللها مناوشات كثيرة بيننا) قد اختُزل بواسطة لقائنا العرَضي في ويتشوتا. فقد تم إخضاعي بالقوة، كما قال المعلم، وإدراكي لاستحالة الانتصار عليه، وقد شكلت تلك الهزيمة الذهنية الشرارة التي ولّدت مرضي ذاك. وبعد ذلك، تطهّرتُ من الضغينة والحقد، وعندما أفقتُ من كابوس موتي الوشيك تحولت الكراهية التي كانت تعتمل في داخلي إلى حب.

لا أريد أن أعارض رأي المعلم، ولكن يبدو لي أن السبب في شفائي كان أبسط من ذلك. وربما بدأ ذلك بعد تراجع الحمّى، عندما استيقظت ورأيت ماما سيو جالسة بقربي وعلى وجهها ترتسم واحدة من تلك الابتسامات الملائكية الساحرة. "تخيلوا ذلك"، قالت. "وولتي الصغير قد عاد إلى عالم الأحياء". كان صوتها مليئاً بالفرح ومعبّراً عن قلقها على صحتي إلى درجة أن شيئاً ما في داخلي بدأ يذوب. "لا تقلقي يا ماما"، قلت لها دون أن أعي تماماً ما أقوله. "كنت نائماً فقط. هذا كل ما في الأمر". ثم أغلقت عينيّ على الفور وغرقت في سباتي ثانية. وبينما كنت أستسلم للنوم شعرت بشفتي ماما سيو تلمسان خدي. كانت أول قبلةٍ أتلقّاها من أحد بعد موت أمي، وقد ولّدت فيّ شعوراً بالدفء والحنان فلم آبه من أين أتت. وإن كانت تلك العاهرة الهندية تريد إغداق حنانها عليّ بتلك الطريقة فليكن، لأنني لن أقف في طريقها.

كانت تلك الخطوة الأولى، على ما أعتقد، ولكن كانت هناك أحداث أخرى أيضاً وقعت إحداها بعد ذلك بعدة أيام مع عودة

الحمّى إليّ. استيقظت بعد الظهر لأجد الغرفة خالية. كنت على وشك النهوض من السرير لاستخدام القعّادة الموجودة في الغرفة، ولكن حالما رفعت رأسي عن الوسادة سمعت همساً خارج غرفتي. كان المعلّم ياهودي وإيسوب واقفين في الصالة يتحدثان بصوت منخفض، ومع أنني لم أميز كل ما يقولانه، فقد سمعت ما يكفي لأفهم الموضوع. كان إيسوب يوبخ المعلم ويطلب منه ألا يعاملني بقسوة. لم أصدق ما أسمعه. فبعد كل الإزعاج الذي سببته له، شعرت بالخجل الشديد من نفسي لاكتشافي أن إيسوب يقف في صفي. "لقد حطّمتَ روحه"، قال له، "وهو يستلقي الآن في فراش الموت. ليس من العدل أن تفعل ذلك أيها المعلم. أعرف أنه سوقيٌّ ومتعب، ولكنْ هناك شيء في قلبه أكبر من نزعة التمرد هذه. لقد شعرت به ورأيته بأم عيني. وحتى لو كنت مخطئاً، فإنه لا يستحق تلك المعاملة. لا أحد يستحق مثل هذه المعاملة".

انتابني شعور غريب لسماع أحدٍ يدافع عني بتلك الطريقة، والأغرب من ذلك هو أن كلمات إيسوب تركت أثراً كبيراً لدى المعلم. ففي تلك الليلة، وبينما كنت أتقلب في سريري في العتمة، تسلل المعلّم ياهودي إلى غرفتي وجلس على السرير المبلل بالعرق وأمسك بيدي. أبقيت عينيّ مغلقتين ولم أصدر صوتاً، متظاهراً النوم خلال فترة وجوده هناك. "أرجوك لا تمت يا وولت"، قال برقة وكأنه يتكلم مع نفسه. "أنت ولد قوي، ولم يحن الوقت بعد لرحيلك. هناك أشياء عظيمة بانتظارنا، أشياء رائعة لا يمكن لك أن تتخيلها. ربما تعتقد أنني ضدك، لكنني لكن هذا ليس صحيح.

أعرفك جيداً، وأعرف أن بمقدورك تحمّل الضغوطات. لديك الموهبة يا ولدي، وسوف أوصلك إلى أماكن لم يصل إليها أحد من قبل. هل تسمعني يا وولت؟ أرجوك ألا تموت، فأنا بحاجة إليك. لا تمت الآن، أرجوك".

سمعت ما قاله جيداً. سمعته بوضوح، ومع أنني شعرت بالرغبة في قول شيء فقد أحجمت عن ذلك وأمسكت لساني. تبع ذلك صمت طويل. جلس المعلّم ياهودي هناك في الظلام وهو يمسّد يدي، وبعد وهلة، إن لم أكن مخطئاً، إن لم أنم وأحلم بما حدث بعد ذلك، سمعت، أو على الأقل ظننت أنني سمعت، نشيجاً، سلسلة من الأصوات المخنوقة الخافتة تطلع من صدر الرجل الضخم وتخترق صمت الغرفة - مرّةً، مرّتين، عشر مرّات وأكثر.

ربما من المبالغة القول إنني تخليت عن شكوكي دفعةً واحدة، ولكن من المؤكد أن موقفي بدأ يتغير. تعلمت أن لا فائدة من الهرب، وبما أنني صرت عالقاً هناك سواء أحببت ذلك أم لا، فقد قررت أن أستغل الوضع الذي وجدت نفسي فيه على أفضل وجه. ربما كان لموتي الوشيك علاقة بذلك، لا أدري، ولكن حالما شفيتُ ووقفت على قدميّ، اختفى ذلك العبء الذي كنت أحمله على كتفيّ. شعرت بالسعادة لاستعادتي صحتي، ولم أعد أهتم لفكرة إقامتي مع منبوذي هذا العالم. صحيح أنهم كانوا أشخاصاً غريبين وبغيضين، ولكن على الرغم من تذمري المستمر وسلوكي السيئ، كان كل واحد منهم يهتم بي ويحنو عليّ بطريقته الخاصة، ولم أستطع أن أتجاهل ذلك كله. ربما يعود ذلك إلى الألفة التي نشأت بيننا في نهاية المطاف. فإن

نظرتَ إلى وجه أحدٍ لفترة طويلة، سوف تشعر في نهاية الأمر بأنّك تنظر إلى نفسك.

لكن هذا لا يعني أن حياتي أصبحت أكثر سهولة. فعلى المدى القصير، تبيّن أنها صارت أكثر صعوبة من قبل، كما أن قراري بتقبّل الوضع لم يخفف من غلوائي وطبيعتي المشاكسة المعتادة. كان الربيع على الأبواب، وبعد أسبوع من شفائي كنت أحرث الأرض وأزرع البذور وأشقى مثل أي فلاح تافه بسيط. كنت أكره الأعمال اليدوية، وبما أنني لم أملك المهارة اللازمة لمثل هذه الأعمال فقد اعتبرتُ تلك الأيام نوعاً من الكفّارة والاختبار الشاق الذي يتجسد في البثور والأصابع الدامية والقدمين المنهكتين. ولكن على الأقل لم أكن الوحيد الذي يعاني من هذا البلاء. فقد كنا نعمل، نحن الأربعة، طوال شهر كامل تقريباً، وكرّسنا وقتنا كلّه لتأمين المحاصيل في الوقت المناسب (الذرة، والقمح، والشوفان، والفصّة) وتهيئة التربة لحديقة الخضار التي تهتم بها ماما سيو، والتي ستؤمن لنا طعامنا خلال فصل الصيف. لم يكن هناك متسع للراحة وتبادل الأحاديث، لكنّ الآخرين صاروا يتفاعلون معي الآن، فكلما كنت أنتحي جانباً وأرخي فصاً كان ذلك يثير ضحك أحد ما. هكذا تمثل الفرق بين الفترة التي سبقت مرضي والفترة التي تلته. لم أكن أتوقف عن الثرثرة، ولكن بينما كانت تعليقاتي في السابق تبدو بغيضة ونزقة، بدت الآن بمثابة طرفٍ ونوادرَ تصدر عن مهرّج صغير يتمتع بالذكاء والظرافة.

كان المعلّم ياهودي يكدح مثل ثور وينكبّ على مهامه وكأنه ولد ليعمل في الأرض، وكان دائماً ينجز أكثر ممّا ننجزه كلنا معاً.

كانت ماما سيو مثابرة ويقظة وصامتة، تتقدم دوماً محنية الظهر ومؤخرتها العظيمة مشرّعة نحو السماء. كانت سليلة عرقٍ من الصيادين والمحاربين، وكانت الزراعة شيئاً غريباً عليها كما هي غريبة عليّ. ومع أنني لم أكن أتمتع بكفاءة عالية في الأعمال الزراعية، فإنّ إيسوب كان أسوأ مني بكثير، وقد أراحتني فكرة أنه لم يكن أكثر حماسةً منّي لإضاعة وقته في تلك الأعمال البائسة. كان يفضّل البقاءَ في المنزل وقراءةَ كتبه والاستغراقَ في أحلامه وتفريغَ أفكاره، ومع أنّه لم يفصح للمعلم عن معاناته تلك، فقد كان يتفاعل مع تعليقاتي المضحكة ويقاطع ثرثرتي المتواصلة بضحكاته الصاخبة، وفي كل مرة يضحك فيها كان يبدو كأنه يزفر كلمة "آمين" بصوت عالٍ كنوع من التأكيد على دقة ملاحظاتي. طالما بدا لي إيسوب شخصاً طيباً وبسيطاً، شخصاً بريئاً يجيد إفساد المتعة بالتزامه الصارم بالقواعد، ولكن بعد سماع ضحكاته العالية في الحقول بدأْتُ أشكّل رأياً مغايراً عنه. كانت تلك العظام الملتوية تخبئ أكثر مما تخيّلته، وعلى الرغم من جديته واستقامته كان يبحث عن التسلية والمتعة كأي صبي آخر في الخامسة عشرة من العمر. أدركت أنني أوفر له نوعاً من التنفيس الهزلي. كان لساني السليط يدغدغه، وتعليقاتي الساخرة تنعش روحه، ومع مرور الوقت أدركت أنه لم يعد مصدر إزعاج أو خصماً بأي شكل من الأشكال. كان صديقاً؛ أوّلَ صديق حقيقي أحظى به في حياتي.

لا أريد أن أبدو عاطفياً، لكنني أتحدث عن طفولتي هنا، عن نسيج ذكرياتي الأولى، وبالإضافة إلى بعض الحوادث التي تلت في السنوات

اللاحقة، فإن صداقتي مع إيسوب جديرة بالتوقف عندها قليلاً. فعلى غرار المعلّم ياهودي نفسه، كان تأثيره عليّ بالغاً إلى درجة أنه ساهم في تغيير مسار حياتي وطبيعتها. لا أشير هنا إلى أهوائي وأحكامي المسبقة التي تتمثل في التركيز على لون بشرة الشخص فقط، بل إلى حقيقة الصداقة نفسها، إلى تلك الرابطة التي نشأت بيننا. أصبح إيسوب رفيقي ودليلي في سماء شاسعة مترامية الأطراف، ومن دون مساعدته ودعمه الدائم لي لما استطعْتُ تحمّل العذابات التي حلّت بي خلال الأشهر الاثني عشر أو الأربعة عشر التالية. لقد بكى المعلم في غرفتي المظلمة عندما كنت طريح الفراش، ولكن حالما استعدت عافيتي سرعان ما تحول إلى سيدٍ قاسٍ يُنزل بي أصنافاً من العذاب والألم ليس على أي مخلوق أن يكابدها. فعندما أفكر في تلك الأيام الآن، يدهشني أنني لم أمت وأنني لا أزال هنا لأسترجعها بتفاصيلها المؤلمة.

حالما انتهى فصل الزراعة وصار طعامنا في باطن الأرض، بدأ العمل الحقيقي. كان ذلك بُعيدَ عيد ميلادي العاشر، في أحد الصباحات الجميلة من نهاية شهر مايو. انتحى بي المعلمُ جانباً بعد الإفطار وهمس في أذني: "هَيّئ نفسك يا بنيّ. فقد حان وقت التسلية الحقيقية".

"تعني أننا لم نكن نتسلّى من قبل؟" قلت له. "قل لي إن كنت مخطئاً، لكنني كنت أعتقد أن الإنهاك الجسدي والروحي التام الذي تعرضنا له كان أكبر تسلية عشتها منذ آخر مرة لعبت فيها الدّاما الصينية".

"العمل في الأرض واجبٌ مضجر لكنه ضروري. أما الآن فسوف نوجّه أفكارنا نحو السماء".

"تعني مثل تلك الطيور التي حدثتني عنها؟".

"نعم يا وولت، مثل الطيور تماماً".

"هل تعني أنك لا تزال جادّاً في خطّتك تلك؟".

"كل الجدّية. سوف ننتقل إلى المرحلة الثالثة عشرة. فإن فعلت ما أقوله لك، سوف تحلّق في الهواء بعد سنة من عيد الميلاد المقبل".

"المرحلة الثالثة عشرة؟ هل تعني أنني تجاوزت اثنتي عشرة مرحلة؟".

"نعم، اثنتي عشرة مرحلة. وقد نجحت في كل منها نجاحاً باهراً".

"كم من المريح أن أعرف ذلك. ولم تكن لدي أدنى فكرة. أنت تخفي عني الكثير من الأشياء، أيها المعلم".

"أقول لك ما تحتاج أن تعرفه فقط. أما الباقي فأهتم به أنا".

"اثنتا عشرة مرحلة، ها؟ وكم مرحلة بقي لدينا؟".

"هناك ثلاثٌ وثلاثون مرحلة".

"إن تمكنت من تجاوز المراحل الاثنتي عشرة المتبقية بالسرعة نفسها، فسوف أنتهي من مهمتي هذه".

"لا، لن تنتهي منها. فبغض النظر عما عانيتَه الآن، فإنه لا يساوي شيئاً مقارنةً بما ينتظرك في قادم الأيام".

"الطيور لا تعاني. فهي تشرع أجنحتها وتطير. فإن كنت أملك الموهبة كما تقول، لا أستطيع أن أرى أين تكمن الصعوبة".

"لأنك لست طيراً يا صغيري. أنت رجل. ولكي نرفعك عن الأرض، يجب أن نشق السماء إلى نصفين. علينا أن نقلب هذا الكون كله رأساً على عقب".

مرة أخرى، لم أفهم الجزء العاشر مما كان المعلم يقوله، لكنني أومأت بالموافقة عندما قال إنني رجل، إذ استشعرت في تلك الكلمة نبرةَ احترام وتقدير واعترافاً بالأهمية التي اكتسبتها في نظره. وضع يده بلطف على كتفي وخرج بي إلى ذلك الصباح البهي. راودني شعور خالص بالثقة في تلك اللحظة، ومع أن وجهه كان متجهماً وغارقاً في التفكير لم يخطر لي أنه سيفعل أي شيء يودي بتلك الثقة. ربما كان ذلك شعور إسحاق عندما أخذه إبراهيم نحو ذلك الجبل في **سفر التكوين**، في الفصل الثاني والعشرين. فإن قال لك رجلٌ إنه أبوك، حتى لو عرفت أنه ليس أباك، فإنك تتخلى عن حذرك وتتبعه بملء إرادتك. لا تتخيل أنه يتآمر عليك مع الله، سيد الخلق. فعقل الصبي لا يعمل بتلك السرعة ولا يدرك هذا النوع من الخداع. كل ما تعرفه أن الرجل الكبير قد وضع يده على كتفك وضغط عليه بلطف شديد. يقول لك، تعال معي، فتسلّم له زمامك وتتبعه أينما يذهب.

مررنا بالحظيرة ووصلنا إلى كوخ الأدوات، وهو عبارة عن بنيان صغير متداعٍ بسقف متدلٍّ وجدران مصنوعة من ألواح خشبية يابسة وغير مطليةٍ. فتح المعلّم ياهودي الباب ووقف هناك بصمت لوهلة طويلة وهو يحدق في الأشياء الحديدية المتشابكة الملقية هناك. وأخيراً مدّ يده وأخرج معولاً كان عبارة عن شيء صدِئ يزن أكثر

من عشرة كيلوغرامات. وضع المعول في يدي وشعرت بالفخر وأنا أحمله له عندما تابعنا سيرنا ثانية. مررنا بجانب حقل الذرة القريب، وأذكر أنه كان صباحاً رائعاً مليئاً بالطيور الملونة، وكنت أشعر بخلايا جسدي تتفتح وتتنفس وبنعمة دفء الشمس وهي تسكب أشعتها عليّ. عندما وصلنا إلى قطعة صغيرة من الأرض البور التي تفصل بين حقلين متجاورين، التفت إليّ المعلم وقال: "هنا سنحفر الحفرة. هل تريد أن تحفرها، أم تفضل أن تترك الأمر لي؟".

بذلت قصارى جهدي لكنّ يديّ لم تسعفاني. كنت صغيراً على ذلك المعول الثقيل، وعندما لاحظ المعلم الجهد الذي أقوم به لاختراق التراب، عداك عن إدخال شفرة المعول تحته، طلب مني أن أجلس وأستريح وقال إنه سيكمل العمل بنفسه. خلال الساعتين التاليتين كنت أراقبه وهو يحوّل تلك البقعة الترابية إلى حفرة هائلة، حفرة عريضة وعميقة أشبه بقبر مخلوق عملاق. كان يعمل بسرعة كبيرة إلى درجة بدت معها الأرض كأنها تبتلعه، ثم وصل إلى عمق لم أعد أتمكن معه من رؤية رأسه. كنت أسمع الأصوات المتعبة التي تخرج منه وهو يدير شفرة المعول ويرمي إلى السطح بالتراب الذي كان يعلق في الهواء للحظة ثم لا يلبث أن يتساقط فوق الكومة المتشكلة حول الحفرة. استمر في الحفر كأنه عشرة رجال، أو جيشٌ من الحفارين المنكبين على فتح نفق يصل إلى أستراليا. وعندما توقف أخيراً وخرج من الحفرة كان مغطىً بالوسخ والعرق حتّى بدا كرجل مصنوع من الفحم، أو ممثل هزلي منهك على وشك الموت. لم أرَ في حياتي شخصاً يلهث بتلك الطريقة، ولم أرَ جسداً غادره النفَس

تماماً، وعندما ارتمى على الأرض وبقي هامداً لعشر دقائق اعتقدت أن قلبه قد توقف عن النبض.

لم أتمكن من قول كلمة واحدة. أخذت أراقب قفصه الصدري وهو يعلو ويهبط، يعلو ويهبط، ثم ينتفخ ويتقلص على خلفية الأفق الأزرق المتطاول. وأثناء ذلك رأيت غيمة تعبر أمام الشمس وتحيل السماء إلى لون داكن مخيف. ظننت أن ملاك الموت يعبر فوقنا، لكنّ رئتَي المعلّم ياهودي استمرتا في الضخ مع انبلاج الضوء ثانية، ثم ما لبث أن جلس وابتسم وهو يمسح الوسخ عن وجهه.

"والآن"، قال لي، "ما رأيك في حفرتنا هذه؟".

"إنها حفرة عظيمة"، قلت له، "أعمق وأجمل حفرة على وجه الأرض".

"أنا سعيد لأنك أحببتها، لأنك ستكون أنت وهذه الحفرة على علاقة وثيقة خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة".

"لا مانع لديّ. تبدو لي مكاناً ممتعاً. فما دامت لا تمطر، لا بأس من الجلوس فيها لفترة وجيزة".

"لا حاجة للتفكير في المطر يا وولت".

"هل أنت متنبئ جوي أو شيء من هذا القبيل؟ ربما لم تلاحظ ذلك، لكن الجو يتغير هنا كل ربع ساعة. وعندما يتعلق الأمر بالطقس، فإن هذا المكان الذي يدعى كانساس متقلبٌ إلى درجة فظيعة".

"صحيح. لا يمكن المراهنة على صفاء السماء هنا. لكنني لا أقول إنها لن تمطر. أعني أن عليك ألا تقلق في حال أمطرت".

"أعطني إذاً غطاءً، أو واحداً من تلك المشمعات السحرية –

خيمة. هذا تفكير جيد. لا يمكنك أن تخطئ عندما تفكر في أسوأ الاحتمالات".

"لن أضعك هناك بهدف التسلية واللعب. سوف يكون هناك ثقب للتنفس بالطبع، أنبوب طويل تضعه في فمك وتتنفس من خلاله، ولكن في ما عدا ذلك ستكون المهمة صعبة ومتعبة. سوف تشعر كالدودة المحجوزة، وأعتذر عن التشبيه سلفاً. لا أعتقد أنك ستنسى هذه التجربة طالما حييت".

"أعرف أنني غبي، ولكن إن لم تتوقف عن التكلم بالألغاز، فسوف نقضي اليوم كله هنا قبل أن أتمكن من فهم ما تقوله".

"سوف أدفنك يا بنيّ".

"ماذا تقول؟".

"سوف أضعك في تلك الحفرة، ثم أغطيك بالتراب وأدفنك حياً".

"وتتوقع أن أوافق على ذلك؟".

"ليس لديك خيار آخر. فإما أن تنزل في الحفرة بملء إرادتك وإما سيكون عليّ أن أخنقك بيديّ هاتين. فبالطريقة الأولى ستعيش حياة رغيدة وطويلة، وبالطريقة الأخرى ستنتهي حياتك خلال ثلاثين ثانية".

تركته يدفنني حيّاً، وهي تجربة لا أوصي أحداً بها. وعلى الرغم من قبح الفكرة نفسها، فالحجز الفعلي أسوأ بكثير. وأنتَ حين تقضي بعض الوقت في غياهب العالم السفلي كما فعلتُ في ذلك اليوم، فالعالم لن يبدو لك أبداً كما كان من قبل. إذ يصبح أكثر جمالاً، لكن

ذلك الجمال الاستثنائي يأتي مضمّخاً بنور عابر وغير حقيقي بحيث لا يأخذ شكلاً مادياً. وعلى الرغم من قدرتك على رؤيته ولمسه كما اعتدتَ أن تفعل من قبل، فإنّ جزءاً منك يدرك أنه ليس أكثر من وهم. فأن تشعر بالتراب فوقك شيء، بما يعنيه ذلك من الضغط والبرودة والذعر الناجم عن عجزك عن الحركة، لكن الرعب الحقيقي لا يبدأ إلا لاحقاً، بعد أن تخرج من الحفرة وتقف على قدميك ثانيةً. ومن ثم يصبح كل شيء يحدث لك على السطح مرتبطاً بتلك الساعات التي قضيتها تحت الأرض. تشعر أن بذرة جنون صغيرة قد زُرِعت فيك، وعلى الرغم من أنك صارعت ونجوت فقد خسرتَ كل شيء آخر تقريباً. الموت الآن يعيش في داخلك، ينهش براءتك وأملك، وفي النهاية لا يبقى لك شيء سوى التراب، وصلابة التراب، والقوة المتمثلة في انتصار التراب الأبدي.

هكذا بدأ تعليمي. فخلال الأسابيع والأشهر التالية عشت حالة مشابهة، سيلاً متواصلاً من الخطايا. كان كل اختبارٍ أفظع من سابقه، وإن تمكنت من الصمود والاستمرار فإن ذلك بفضل العناد الذي يميز الزواحف، بفضل تلك السلبية الجنونية التي تكمن في جوهر روحي. لم يكن الأمر يتعلق بالإرادة أو التصميم أو الشجاعة. فأنا لم أملك أياً من تلك الخصائص، وكلما زادت الجرعة التي أتلقاها انحسر شعوري بالفخر للإنجازات التي أحقّقها. تعرّضت للجلد بالسوط؛ ورُميت من على ظهر حصان مسرع، ورُبطت على سطح الحظيرة ليومين من دون طعام أو ماء، وطُلي جلدي بالعسل ثم أجبرتُ على الوقوف عارياً تحت شمس أغسطس اللاهبة وآلاف الذبابات

والدبابير تحوم على جسدي، وجلست في حلقة من نار ليلةً كاملة حتى امتلأ جسدي بالتقرّحات، وتم تغطيسي بشكل متكرر لست ساعات في حوض مليء بالخلّ، وضربني البرق، وشربتُ بول البقر وأكلت براز الأحصنة، وأخذت سكيناً قطعت بها المفصل الأعلى لإصبعي الصغيرة اليسرى؛ وتدلّيتُ لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ معلّقاً بالحبال من العوارض الخشبية في العليّة. فعلت هذه الأشياء كلّها لأن المعلّم ياهودي طلب مني أن أفعل ذلك، ومع أنني لم أحبّه إلا أنني لم أكرهه نتيجة الآلام التي أنزلها بي. لم يكن عليه أن يهددني الآن. كنت أنفذ أوامرَه بنوع من الطاعة العمياء ودون أن أبحث عن الأهداف التي يرمي إليها. طلب مني أن أقفز فقفزت. طلب مني التوقف عن التنفس فتوقفت عن التنفس. هذا هو الرجل الذي وعدني بأن يجعلني أطير، ومع أنني لم أصدقه قطّ فقد تركته يفعل بي ما يشاء كأنني أصدّقه. فقد كان بيننا اتفاق، في نهاية الأمر؛ ذلك الاتفاق الذي عقدناه في تلك الليلة الأولى في سينت لويس، ولم أنسَه قطّ. فإن لم يحقق ما وعد به بحلول عيد ميلادي الثالث عشر، فسوف أقطع رأسه بفأس. لم يكن هناك أي شيء شخصي في ذلك الاتفاق؛ كان مسألة بسيطة تتعلق بالعدالة. فإن خذلني ابن الكلبة ذاك، فسوف أقتله، وكان يعرف ذلك جيداً.

خلال تلك المحن التي ألمّت بي، وقف إيسوب وماما سيو إلى جانبي كأنني من لحمهما ودمهما، وأعزّ مخلوق على قلبيهما. تخلّلت مراحلَ تطوري المتنوعة فتراتٌ من السّكينة والهدوء كانت تستمر لأيام أحياناً ولأسابيع في بعض الأحيان الأخرى. وفي معظم

الأحيان كان المعلّم ياهودي يختفي، يغادر المزرعة كلّها إلى أن تلتئم جراحي وأستعيد عافيتي لأواجه محنتي التالية. لم أعرف أين كان يذهب خلال تلك الفترات، ولم أسأل الآخرين عن ذلك، بما أنني كنت أشعر دوماً بالراحة لغياباته تلك. فلم أكن بمنأى عن مزيد من التجارب القاسية فقط، بل كنت أتحرر من عبء حضور المعلم - بصمته الكئيب ونظراته المعذبة، وضخامة الحيز الذي كان يشغله - وكان ذلك مطمئناً بحد ذاته، إذ يمنحني الفرصة لأتنفّس ثانية. كان المنزلُ أكثر سعادة من دونه، وكنا نعيش نحن الثلاثة في تناغم رائع. ماما سيو السمينة وصبيّاها النحيلان. تعمقت صداقتي مع إيسوب خلال تلك الأيام. وعلى الرغم من البؤس الذي كنت أعانيه في تلك الفترة، فهي تحتوي أيضاً على بعض الذكريات الجميلة التي ربما تكون أجملَ ذكريات على الإطلاق. كان إيسوب ماهراً في سرد القصص، وكنت أجد متعة كبيرة في الاستماع لصوته العذب وهو يحكي تلك الحكايات الغريبة التي يعجّ بها رأسُه. كان يعرف المئات من القصص، وكلّما طالبتُه بقصة، وأنا أستلقي في سريري وأعاني الآلام المبرحة الناجمة عن محنتي الأخيرة، كان يجلس هناك لساعات ويروي لي الحكايات، الواحدة تلو الأخرى. جاك القاتل العملاق، وسندباد البحار، ويوليسيز التائه، وبيلي الشقي، ولانسيلوت والملك آرثر، وبول بَنيان - سمعتها كلّها منه. لكن أجمل القصص، تلك التي كان يحتفظ بها ليرويها لي عندما أشعر بالكآبة والإحباط، كانت تدور حول الشخصية التي تحمل اسمي، السير وولتر راليه. أتذكر صدمتي عندما أخبرني أنّي أمتلك اسماً شهيراً، اسمَ مغامر وبطل

حقيقي. ولكي يبرهن إيسوب لي أنه لم يكن يدع ذلك، ذهب إلى رفّ الكتب وأخرج مجلداً ضخماً يحتوي على صورة السير وولتر. لم أرَ في حياتي كلها وجهاً أكثر وسامة، وسرعان ما اعتدتُ على تفحص ذلك الوجه لعشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية يومياً. أحببتُ اللحية المدببة والعينين الحادتين، وحلق اللؤلؤ المثبّت في شحمة أذنه اليسرى. كان وجه قرصانٍ أو فارسٍ مغامر، ومنذ ذلك اليوم صرت أحمل السير وولتر في داخلي بمثابة قرين، أخٍ غير مرئي يقف إلى جانبي في المحن التي تحلّ بي. روى لي إسوب قصص العباءة والبركة، والبحث عن إل دورادو، والمستعمرة المفقودة في رُوانوك، والثلاث عشرة سنة في برج لندن، والكلمات لجريئة التي تلفّظ بها قبل أن يقطعوا رأسه. كان أفضل شاعر في عصره، كان باحثاً وعالماً ومفكراً حراً، وكان عاشق النساء رقم واحد في إنكلترا. "تخيلنا، أنا وأنت، في شخص واحد"، قال إيسوب، "وسوف تبدأ في تشكيل فكرة عن هذا الرجل. رجل بعقلي وشجاعتك طويل ووسيم؛ هذا هو السير وولتر راليه الذي يجسد الرجل المثالي".

في كل ليلة، كانت ماما سيو تأتي إلى غرفتي وتغطيني، ثم تجلس في سريري وتنتظرني حتى أغفو. وقد اعتدتُ على هذا الطقس. ومع أنني كنت أنمو بسرعة كبيرة، فقد كنت لا أزال مجرد طفل بالنسبة إليها. لم أسمح لنفسي قطّ بالبكاء أمام المعلّمياهودي أو إيسوب، لكنني بكيت في مناسبات كثيرة أمام ماما سيو،وأنتحب بين ذراعيها مثل طفل مدلل. وفي إحدى المرات، على ما أذكر، تطرقتُ إلى موضوع الطيران، وما قالته كان مفاجئاً ومطمئناً إلى درجة أنه هدّأ

من روعي لأسابيع طويلة؛ ليس لأنني صدّقْتُ ما قالته، بل لأنها صدّقَتْه هي، ولأنها كانت أكثر شخص أثق به في هذا العالم.

"إنه رجل شرير"، قلت لها، في إشارة إلى المعلّم، "وعندما ينتهي من تدريبي، سأكون مشوهاً ومشلولاً مثل إيسوب".

"لا يا بنيّ، الأمر ليس هكذا. سوف ترقص مع الغيوم في السماء".

"بقيثارة بين يديّ وجناحين يفرعان من ظهري".

"في جلدك نفسه. في لحمك وعظمك".

"إنها خدعة يا ماما سيو، حفنة مقززة من الأكاذيب. فإن كان يهدف إلى تعليمي ما يقوله، لماذا لا يقوم بذلك بنفسه؟ على مدى سنة كاملة، عانيت من جميع أنواع الإهانات المعروفة للبشر. تعرضت للدفن والحرق والتشويه الجسدي، لكنني لا أزال واقفاً على الأرض كما كنت من قبل".

"هذه هي الخطوات اللازمة. هذه هي الطريقة التي يجب اتّباعها. لكن الأسوأ قد شارفَ النّهايةَ الآن".

"لقد خدعكِ أنتِ أيضاً، إذاً".

"لا أحد يستطيع أن يخدع ماما سيو. فأنا أكبر وأضخم من أن أبتلع ما يقوله الناس. الكلمات المزيفة أشبه بعظام الدجاج؛ تعلق في حلقي وأبصقها".

"لا يمكن للبشر أن يطيروا. الأمر بهذه البساطة. لا يمكن للبشر أن يطيروا لأن الله لا يريدهم أن يطيروا".

"لكن ذلك ممكن".

"ربما في عالم آخر. ولكن ليس في هذا العالم".

"لقد رأيت ذلك. عندما كنت فتاة صغيرة. رأيته بعينيّ هاتين. وإن حدث ذلك من قبل، فيمكن أن يحدث ثانيةً".

"لقد حلمتِ به. ظننتِ أنك رأيتِ ما شاهدتِه في الحلم، لكن ذلك حدث وأنت نائمة".

"أبي يا وولت. أبي وأخي. رأيتهما يتحركان في الهواء كالأشباح. لم يكن طيراناً بالطريقة التي تتخيلها. ليس كالطيور أو الفراشات، وليس بأجنحة أو أشياء من ذاك القبيل. لكنهما كانا في الهواء، وكانا يتحركان. بطريقة بطيئة وغريبة. وكأنهما يسبحان. يشقان طريقهما عبر الهواء كالسباحين، كالأشباح التي تمشي على قاع بحيرة".

"لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟".

"لأنك ما كنت لتصدّقني من قبل. ولهذا السبب أقول لك الآن. لأن الوقت وشيك. وإن استمعت لما يقوله لك المعلم، فسوف يحدث ذلك بأسرع مما تتصور".

عندما جاء الربيع للمرة الثانية، بدا العملُ في المزرعة كعطلة بالنسبة إليّ، وانكببتُ عليه بنوع من الحماسة والشغف والتوق للعيش كشخصٍ عادي مرة ثانية. فعوضاً عن التكاسل والتذمر الدائم، عملت بكل ما أوتيت من طاقة وحماسة وبنوع من الفرح الغامر. كنت لا أزال ضعيفاً بالنسبة إلى سنّي، لكنني كنت أكبر وأقوى، وعلى الرغم من استحالة الأمر فقد حاولت مجاراة المعلّم ياهودي نفسه. كنت أريد أن أثبت شيئاً ما، على ما أعتقد؛ أن أفرض عليه احترامي، وأن أبرز بقوة. كانت هذه طريقة جديدة في المقاومة، وكلما كان المعلم يطلب مني الإبطاء قليلاً والتخفيف من الجهد الكبير الذي أبذله ("إنها ليست رياضة أولمبية"، كان يقول لي، "ونحن لا نتنافس هنا على الميداليات يا بنيّ")، كنت أشعر أنني حققت انتصاراً، وأستعيد روحي تدريجيّاً.

كانت إصبعي الصغيرة قد شفيت. فما كان في ما مضى خليطاً دامياً من الأنسجة والعظام تحول إلى جدعةٍ غريبة بلا ظفر. كنت أتمتع بالنظر إليها الآن وأمرر إبهامي على الندبة، ألمس ذلك الجزء مني الذي اختفى إلى الأبد. أعتقد أنني كنت أفعل ذلك خمسين أو مئة مرة في اليوم، وكلما كنت أفعل ذلك كنت أردّد كلمتَي "سينت لويس" في رأسي. كنت أجاهد للتمسك بماضيَّ، لكن تينك الكلمتين كانتا قد أصبحتا مجرد كلمات عندها، لا شيء أكثر من تمرين طقسي

في التذكّر. إذ لم تتمكنا من استحضار أية صور، ولم تعودا بي إلى المكان الذي كنت أعيش فيه. فبعد ثمانية عشر شهراً في سيبولا، تحولت سينت لويس إلى مدينة شبحية بالنسبة إليّ، وكان يختفي شيء منها مع مرور كل يوم.

في عصر أحد الأيام من فصل الربيع ذاك، صار الجو حاراً جداً وكأننا في منتصف الصيف. كنا نعمل نحن الأربعة في الحقول، وعندما خلع المعلّم قميصه ليخفف من وطأة الحر لاحظت أنه يرتدي شيئاً حول رقبته؛ سيراً جلدياً تتدلى منه كرة شفافة صغيرة أشبه بالجوهرة أو الحلية. وعندما دنوتُ منه لأتفحص السير – لمجرد الفضول فقط، ودون أية دوافع أخرى – رأيت إصبعي الصغيرة موضوعة في القلادة المتدلية مع نوع من السائل الشفاف. من المؤكد أن المعلم لاحظ دهشتي، لأنه نظر إلى صدره بنوع من التوجس وكأن عنكبوتاً قد تسلل إليه. وعندما أدرك ما كنت أنظر إليه، أمسك بالكرة بين أصابعه ورفعها لكي أراها جيداً مع ابتسامة تنطوي على الرضا. "شيء صغير جميل، أليس كذلك يا وولت؟" قال لي.

"لا أعرف إن كان جميلاً"، قلت له، "لكنه يبدو مألوفاً جداً لي".

"بالتأكيد. فقد كان لك. فخلال العشر سنوات الأولى من حياتك، كان جزءاً منك".

"ولا يزال. فعلى الرغم من أنه منفصل عن جسمي إلا أنه لا يزال لي".

"إنه مخلّلٌ في الفورمالديهايد. محفوظ كجنين ميت في مرطبان. وهو ليس لك الآن؛ إنه ملكٌ للعلم".

"نعم، ولكن ماذا يفعل في رقبتك؟ فإن كان ملكاً للعلم، فلماذا لا تتبرع به لمتحف الشمع؟".

"لأنه يعني شيئاً خاصاً لي يا صديقي. أرتديه لكي أذكر نفسي بما أدين لك به. مثل أنشوطة الجلاد. فهذا الشيء هو العبء الذي يُثقل ضميري، ولا يمكنني أن أتركه يقع في يدي شخص غريب".

"وماذا عن يديّ أنا إذاً؟ فالعدل هو العدل، وأنا أريد أن أستردّ إصبعي. فإن كان لأحدٍ أن يرتدي ذلك الطوق فهو أنا".

"سأعقد معك اتفاقاً. إن تركتني أحتفظ به لفترة أطول، سوف أفكر فيه كشيء يخصك أنت. هذا وعد. فاسمك عليه، وحالما أجعلك تطير، يمكنك أن تسترده".

"بشكل دائم؟".

"بشكل دائم. طبعاً بشكل دائم".

"وكم ستستغرق هذه 'الفترة الأطول'؟".

"ليس طويلاً. فأنت تقف على الحافة سلفاً".

"الحافة الوحيدة التي أقف عليها هي حافة الجحيم. وإن كنت أقف هناك، فأنت تقف هناك أيضاً. أليس كذلك، أيها المعلم؟".

"أنت تتعلّم بسرعة يا بنيّ. معاً نقف، وإن تفرّقنا نسقط. أنت تسندني وأنا أسندك، ولا يعرف أحد أين سنتوقف".

كانت تلك المرة الثانية التي أتلقى فيها أخباراً مشجعة حول تقدّمي المزعوم. أولاً من ماما سيو، والآن من المعلم نفسه. لن أنكر أنني شعرت بالزهو، ولكن على الرغم من ثقتهما في قدراتي، لم أصدق أنني قاب قوسين أو أدنى من النجاح. فبعد ذلك العصر الحار

من مايو، دخلنا في فترة من الحرارة الأسطورية التي جعلت من ذلك الصيف الفصلَ الأكثر حرارة في ذاكرتنا الحية. كانت الأرض مرجلاً يغلي، فكلما مشيت عليها تشعر أن باطني قدميك سوف يذوبان في حذائك. كنا نصلي لهطول المطر يومياً على العشاء، ولكن لم تسقط قطرةٌ واحدة من السماء طوال ثلاثة أشهر. كان الهواء حاراً وجافاً إلى درجة يمكنك معها سماع أزيز ذباب الخيل من مسافة طويلة. بدا كل شيء متبرّماً ومثيراً للأعصاب كالشوك وهو يتحسس الأسلاكَ الشائكة، وكانت الرائحة المنبعثة من خارج المنزل نتنة تسفع شعيرات منخريك. ذبلت شجيرات الذرة وتدلّت وماتت؛ واستطال الخسُّ إلى ارتفاعات غريبة وبدا في الحديقة أشبه بأبراج شاهقة. وبحلول منتصف شهر أغسطس، كان بمقدورك أن ترمي حصوة في البئر وتعدّ حتى الرقم ستة قبل أن تسمع صوت الماء. لم تبقَ أية حبوب خضراء، أو عرانيس ذرة، أو طماطم ريّانة كالسنة السابقة. عشنا على البيض والعصيدة ولحم الخنزير المدخّن، وعلى الرغم من توفر مخزون يكفينا حتى نهاية الصيف، بدت مخازننا كأنها ستفرغ في الأشهر التالية. "شدّوا الأحزمة يا أولاد"، كان المعلّم يقول لنا على العشاء، "شدّوا الأحزمة وامضغوا الطعام حتّى يفقد مذاقه. فإن لم نقنّن استهلاكنا لما بين أيدينا الآن، فسوف يأتي علينا شتاء طويل نعاني فيه من الجوع".

على الرغم من المصائب التي حلّت بنا خلال الجفاف، كنت سعيداً إلى درجة لا يمكن تصوّرها في ظل تلك الأوضاع. كنت قد أتممت أسوأ وأصعب مراحل تدريبي، وكانت أمامي الآن مراحلُ

الصراع الذهني المتمثل في الصراع بين نفسي وبيني. لم يعد المعلّم ياهودي يشكّل أية عقبة. كان يصدر أوامرَه ثم يتلاشى من ذهني بعد أن يقودني إلى كهوف داخلية عميقة لم أعد معها أتذكر من أنا. كانت المراحلُ الجسدية نوعاً من الحرب وضرباً من التحدي لقساوة المعلم الشنيعة، كما أنه لم يكن يختفي عن ناظريّ؛ يقف فوقي ويدرس ردود أفعالي، ويراقب وجهي بحثاً عن أية علامة على الألم. لكن ذلك انتهى الآن. فقد تحول إلى موجّهٍ لطيف وسخيّ يتكلم بصوتٍ مليء بالغواية وهو يغريني بقبول المهمات الغريبة الواحدة تلو الأخرى. أقنعني بالدخول إلى الحظيرة وإحصاء عدد القش المتبقي في معلف الحصان. كما طلب مني الوقوف على ساق واحدة طوال ليلة كاملة، ثم الوقوف على الساق الأخرى طوال الليلة التالية. ربطني إلى عمود تحت شمس الظهيرة وأمرني بتكرار اسمه عشرة آلاف مرة. كما جعلني أتعهد بالصمت، حيث لم أكلم أحداً طوال أربعة وعشرين يوماً ولم أنبس ببنت شفة حتى عندما أكون وحيداً. طلب مني الدحرجة في الساحة، والوثب على قدم واحدة، والقفز عبر الحلقات. علمني كيف أبكي عندما أريد، ثم علمني كيف أبكي وأضحك في الوقت نفسه. جعلني أعلّم نفسي كيف أرمي بالأشياء في الهواء وأمسك بها، وحالما تعلمت الإمساك بثلاث حصوات معاً طلب مني التدرب على أربع حصوات. عصبَ عينيّ لأسبوع كامل، ثم أغلق أذني لسبوع كامل أيضاً، ثم ربط ذراعيّ وساقيّ معاً لأسبوع كامل وجعلني أزحف على بطني مثل دودة.

تبدّل الطقسُ في بداية سبتمبر. أمطار غزيرة، ولمع وبرق، ورياح

عاتية، وإعصارٌ كاد أن يقتلع المنزل من مكانه. ارتفعت مستويات المياه ثانية، ولكن لم يطرأ أيّ تحسّن يذكر على وضعنا السابق. فقد ماتت المحاصيل، وفي غياب أي نوع من المؤونة بدا المستقبل كالحاً وكان الوضع ينذر بالخطر. أخبرنا المعلّم أن جميع المزارعين في المنطقة يعانون من الأوضاع نفسها وأن المزاج العام السائد في البلدة سيئ للغاية. هبطت الأسعار، وندرت الأموال، وسرت إشاعات تشي بإمكانية إغلاق المصارف. وعندما تفرغ جيوب الناس من الأموال، قال المعلم، فإن الرؤوس تمتلئ بالغضب والسخام. "لا يهمني إن تعفّنَ نقارو الخشب أولئك"، تابع قائلاً، "ولكن بعد فترة وجيزة سوف يبحثون عن أحد يلقون عليه اللوم لما حصل، وعندما يحدث ذلك من الأفضل لنا، نحن الأربعة، أن نتوارى عن الأنظار".

خلال ذلك الخريف الغريب المليء بالعواصف والأمطار الغزيرة، بدا المعلّم ياهودي مشوشاً وقلقاً، كأنه يفكر في كارثة فظيعة، في شيء حالك لم يجرؤ على التكلم عنه. وبعد تدليلي طوال فترة الصيف، حيث كان يحثني على الخوض في تماريني الروحية، بدا فجأة أنّه فقد اهتمامه بي. صار يغيب لفترات أطول، ومرة أو مرتين دخل إلى المنزل متعثراً ورائحة الخمر تفوح منه، كما أنه تخلى عن جلساته الدراسية مع إيسوب. تسرّب حزنٌ جديد إلى عينيه اللتين امتلأتا بالكآبة والتوجّس. يبدو معظم هذا خافتاً لي الآن، لكنني أتذكر أنه خلال اللحظات القصيرة التي يمنّ فيها عليّ برفقته كان يتصرف بنوع مفاجئ من اللطف والدفء. أذكر حادثة وقعت في أحد مساءات شهر أكتوبر عندما دخل إلى المنزل وهو يحمل صحيفة تحت ذراعه

وعلى وجهه ترتسم ابتسامة كبيرة. "عندي أخبار جيدة لك"، قال لي وهو يجلس ويبسط الصحيفة على طاولة المطبخ. "لقد فاز فريقُك. آمل أن يسعدك ذلك، إذ تذكر الصحيفة أن الفريق لم يأتِ في المرتبة الأولى منذ ثمانٍ وثلاثين سنة".

"فريقي؟".

"كاردينالز، سينت لويس. هذا هو فريقك، أليس كذلك؟".

"نعم، هذا هو. سوف أشجّع ريدبيردز حتّى النهاية".

"لقد فازوا لتوّهم ببطولة العالم. فتبعاً لما تقوله الصحيفة هنا، شهدت اللعبة السابعة المنافسة الأصعب والأشرس في تاريخ هذه الرياضة".

هكذا عرفتُ أن فريقي فاز ببطولة سنة ١٩٢٦. قرأ لي المعلّم ياهودي تفاصيل اللعبة السابعة الدرامية، عندما دخل غروفر كليفلاند ألكساندر ليَرميَ على طوني لاتزيري والقواعد ممتلئة. للوهلة الأولى، ظننتُ أنها توليفة طلع بها المعلّم. وكان آخر ما سمعته هو أن ألكساندر يحتل المرتبة الأولى وأن لاتزيري اسم لا يعني لي شيئاً. بدت الجملة أشبه بكومة من النودلز الأجنبية المغمسة في صلصة الثوم، وعندها أخبرني المعلّم أنه مبتدئ في هذا المجال وأن غروفر قد انضم إلى فريق "كاردز" في منتصف الموسم. كان قد لعب تسعة أشواط في اليوم السابق، مما حال دون فوز فريق "يانكس" بالمباراة بثلاث نقاط، وها هو روجرز هورنزبي يستدعيه من دكة الاحتياط لإيقاف تقدم الفريق الخصم. ثم دخل العجوز وهو يترنح من سكرة احتفالية الليلة السابقة وسحق اللاعب النيويوركي الشاب. ولولا

إنشَين اثنَين لكانت قصة مختلفة. وفي الملعب، قبل الرمية الثالثة، رمى لاتزيري كرة رائعة صوب المقاعد اليسرى في الملعب ولكن تبيّن أنها خاطئة في الثانية الأخيرة. كانت كافية لتصيبك بجلطة دماغية. صمد ألكساندر خلال الشوطين الثامن والتاسع وضمن الفوز، ثم انتهت اللعبة والبطولة مع إخراج بيب روث، ملك الرماة، وهو يحاول سرقة القاعدة الثانية. لم يحدث شيء كهذا من قبل. كانت المباراة الأكثر جنونية وحماسةً في تاريخ اللعبة، وقد احتلّ فريقي المرتبة الأولى في العالم.

كانت تلك نقطة تحوّل بالنسبة إليّ وحدثاً بارزاً في حياتي الفتية، ولكن في ما عدا ذلك كان الخريف فصلاً كئيباً مليئاً بالسأم والهدوء. وبعد فترة، شعرت بضجر شديد إلى درجة أنني طلبت من إيسوب أن يعلّمني القراءة. أبدى إيسوب استعداده لتعليمي، ولكن كان عليه أن يستأذن المعلّم ياهودي أولاً، وعندما وافق المعلم على ذلك، أعترف أنني شعرت بنوع من الألم. فطالما قال إنه يريد أن يحافظ على غبائي – لأن ذلك ضروري لتدريبي – لكنه غيّر رأيه الآن دون أن يقدّم أي تفسير لذلك. اعتقدتُ لوهلة أنه تخلّى عني وشعرت بنوع من خيبة الأمل والحزن الذي أتى على أحلامي الكبيرة. ما الخطأ الذي ارتكبته، تساءلت في نفسي، ولماذا هجرني عندما كنت أحتاجه أكثر من أي وقت مضى؟

ساعدني إيسوب على تعلم الأحرف والأرقام، ثم صرت أتعلّم بسرعة كبيرة إلى درجة أنني أخذت أتساءل عن سرّ الأهمية التي يعطونها لهذه الأشياء. فإن لم أطِرْ، يمكنني على الأقل إقناع المعلم

بأنني لست غبياً، لكن الجهد الذي كنت أبذله كان ضئيلاً بحيث سرعان ما بدا هذا النصر فارغاً. ارتفعت المعنويات في المنزل لفترة قصيرة من شهر نوفمبر مع سدّ ذلك النقص الذي كنا نعانيه في الطعام. فمن دون أن يُطلع أحداً على الطريقة التي حصل بها على المال للقيام بمثل هذا الشيء، كان المعلّم قد رتّب سراً وصول كمية من الأطعمة المعلبة. بدا الأمر كأنه معجزة، أو هبة من غامض علم الله. وصلت شاحنة إلى المنزل في أحد الصباحات وأخذ رجلان سمينان يفرغان الصناديق الكرتونية من مؤخرة الشاحنة. كانت هناك مئات من الصناديق، وكان كل صندوق يحتوي على أربع وعشرين علبة من الخضار المتنوعة، واللحوم والحساء، والفطائر، والمشمش والدراق المعلب، وأشياء كثيرة أخرى. بقي الرجلان أكثر من ساعة وهما ينقلان الصناديق إلى داخل المنزل، وخلال ذلك الوقت كان المعلّم يقف هناك وذراعاه مشبوكان على صدره وهو يبتسم كبومةٍ عجوز حكيمة. وقفت أنا وإيسوب مذهولَين، ثم استدعانا المعلم إليه ووضع يداً على كتف كل منا. "لا يمكن مقارنتها مع الطعام الذي تعدّه ماما سيو"، قال لنا، "لكنها أفضل بكثير من العصيدة، أليس كذلك؟ عندما تسوء الأمور، تذكرا من يمكنكما الاعتماد عليه. فبغض النظر عن المحن التي يمكن أن تواجهنا، لن تعدمني الوسيلة لتدبير الأمور".

بغض النظر عن الطريقة التي أمّن بها ذلك الطعام فقد انتهت الأزمة التي كنا نعاني منها. امتلأت مخازن الطعام ثانية، ولم نعد نتوقف عن الطعام ونحن نشتهي المزيد ونشتكي من بطوننا الفارغة. كان

على ما حدث أن ينال امتنانَنا الدائم، ولكن سرعان ما تعاملنا معه كشيء عادي. فخلال عشرة أيام، اعتدنا الطعامَ الجيد، ومع نهاية الشهر كان من الصعب أن نتذكر الأيام التي كنا فيها بحاجة ماسة إلى الطعام. هكذا هي الحاجة. ما دمت تحتاج إلى شيء ما، فإنك تتوق إليه باستمرار. لو أنني أحظى بذلك الشيء فقط، تقول لنفسك، فسوف تُحل جميع مشاكلي. ولكن حالما تحظى به، حالما يصبح موضوعُ رغباتك بين يديك، فإنه يفقد سحرَه. تبرز حاجاتٌ أخرى، وتتشكل رغبات أخرى، وتكتشف بالتدريج أنك عدتَ إلى حيث بدأت. هكذا كان الأمر بالنسبة إلى دروس القراءة؛ وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى الأطعمة الوفيرة المكدسة في خزائن المطبخ. كنت أعتقد أن تلك الأشياء ستخلق تأثيراً كبيراً، ولكن في نهاية الأمر لم تكن أكثر من ظلال وبدائل للشيء الوحيد الذي كنت أرغب فيه؛ الشيء الذي لم يكن بمقدوري أن أحظى به. كنت بحاجة لأن يحبّني المعلّم ثانية. هذه كانت قصة تلك الأشهر. كنت أتوق إلى عواطف المعلّم، ولم يكن لأية كمية من الطعام أن تشبع رغبتي تلك. فبعد سنتين، أدركت أن كل ما أملكه يتدفق منه مباشرة. فقد جعلني على صورته، لكنه لم يعد يهتم بي الآن. ولأسباب لم أستطع فهمها، شعرت أنني فقدتُه إلى الأبد.

لم يخطر في بالي أن أفكر في السيدة ويذرسبون. ولم أعطِ بالاً للأمر حتى عندما لمّحت ماما سيو، في إحدى الليالي، إلى "أرملة" المعلّم في ويتشوتا. فقد كنت جاهلاً في تلك الأمور؛ مجرد صبي مغرور لا يفقه شيئاً مما يحدث بين الرجال والنساء. كنت أفترض

أنها مجرد نزوات حسية عابرة، وعندما كلمني إيسوب عن زراعة نطافه في فرج دافئ لذيذ (كان قد بلغ السابعة عشرة)، فكرت فوراً بالعاهرات اللواتي عرفتهنّ في سينت لويس؛ الدّمى الظريفات اللواتي كنّ يزرعنَ الأزقة مجيئاً وذهاباً في الساعة الثانية صباحاً ويعرضنَ أجسادهنّ مقابل المال. لم أكن أعرف شيئاً عن الحب الناضج أو الزواج أو ما يسمى بالمشاعر السامية. فالزوجان الوحيدان اللذان كنت قد عرفتهما هما خالي سليم وزوجته بيغ، وكان ذلك الزواج تركيبة همجية؛ نوبة من البصاق والسباب والصخب ربما تقدم تفسيراً لأسباب جهلي بهذه العلاقات. فعندما كان المعلم يغادر المنزل، كنت أعتقد أنه يلعب البوكر في مكان ما أو يشرب الخمر في حانة من حانات سيبولا. لم يخطر لي قطّ أنه في ويتشوتا للقاء سيدة راقية مثل ماريون ويذرسبون، وأن هذه العلاقة ستحطم قلبه. كنت قد رأيتها بنفسي، لكنني كنت مريضاً ومحموماً عندها إلى درجة لم أعد أتذكرها جيداً. كانت نوعاً من الهلوسة، شيئاً طلع من لحظات الموت. ومع أنني كنت ألمح وجهها بين الفينة والأخرى، لم أعتقد أنها شخص حقيقي. أتذكر أنني ظننتها أمي، ولكن سرعان ما انتابني الخوف لأنني لم أتمكن من التعرف على شبح أمي.

تطلّب الأمرُ كارثتين لكي أدرك ما يحدث. ففي مطلع شهر ديسمبر، جرح إيسوب إصبعه وهو يفتح علبة دراق. لم يبد الأمر خطيراً في البداية؛ مجرد خدش سيشفى من تلقاء نفسه خلال فترة قصيرة، ولكن بدلاً من أن يلتئم الجرح تورّمَ بشكل مخيف وامتلأ بالقيح، ومع حلول اليوم الثالث كان المسكين إيسوب يتلوى في

سريره من الألم والحمى. ولحسن الحظ عاد المعلّم ياهودي إلى المنزل، فبالإضافة إلى مواهبه الأخرى كان يلمّ بالطب، وعندما صعد إلى غرفة إيسوب في الصباح التالي للاطمئنان على المريض، خرج بعد دقيقتين وهو يهز رأسه ويبكي. "ليس لدينا وقت نضيّعه"، قال لي. لقد أصيب بالغرغرينا، وإن لم نتخلص من تلك الإصبع الآن، فيمكن للعدوى أن تنتقل عبر يده وصولاً إلى الذراع. اخرج حالاً وقل لماما سيو أن تترك ما تفعله وتغلي طنجرتين من الماء. سأنزل إلى المطبخ وأسنّ السكاكين. علينا أن نجري العملية خلال ساعة فقط".

فعلتُ ما أمرني به، وحالما جلبتُ ماما سيو من ساحة الحظيرة، عدت مسرعاً إلى المنزل، وتسلقت الدرج إلى الطابق الثاني، وجلست بالقرب من صديقي. بدا إيسوب في حالة مزرية. كان جلده الأسود اللماع قد تحول واكتسب لوناً طباشيرياً رمادياً مرقشاً، وكنت أسمع صوت البلغم في صدره وهو يقلّب رأسه يمنة ويسرة على الوسادة.

"اصبر يا صديقي"، قلت له. "لن يطول الأمر الآن. سوف يعالجك المعلم، وبعد فترة وجيزة سوف تجد نفسك وأنت جالس إلى البيانو، تعزف واحدة من أغانيك المسلية".

"وولت؟ هل هذا أنت يا وولت؟" قال إيسوب وهو يفتح عينيه المحمرتين وينظر إلى ناحية الصوت، لكنّ بؤبؤي عينيه كانا مغشّيين فلم أتأكد من أنه رآني.

"طبعاً هذا أنا"، قلت له. "ومن غيري سيجلس هنا في وقت كهذا؟".

"سوف تُقطَع إصبعي يا وولت. سأكون مشوهاً لبقية حياتي، ولن تقبل بي أيُّ فتاة".

"أنت مشوّه سلفاً، ولم يحل ذلك دون اشتهائك للنساء، أليس كذلك؟ هو لن يقطع قضيبك يا إيسوب. سيقطع إصبعاً فقط، وفي يدك اليسرى أيضاً. وما دام قضيبك معلّقاً بك، يمكنك أن تتمتع بقدر ما يحلو لك".

"لا أريد أن أفقد إصبعي"، قال لي وهو يتأوه. "فإن فقدت إصبعي، فهذا يعني أن العدالة غير موجودة. يعني أن الله قد أدار لي ظهره".

"أنا لا أملك سوى تسع أصابع ونصف، ولا يزعجني ذلك على الإطلاق. عندما تفقد إصبعك سنصبح كالتوأمين، عضوَين في نادي الأصابع التسع، أخوَين حتى الموت؛ كما كان المعلّم يقول".

فعلت ما بوسعي لطمأنته، ولكن حالما بدأت العملية، أبعدوني جانباً ونسوني. وقفت في مدخل المنزل وأنا أغطي وجهي بيدي وأسترق النظر بين الفينة والأخرى بينما كان المعلم وماما سيو يقومان بعملهما. لم يكن هناك أي كحول إثيلي أو مخدّر، وكان إيسوب يصرخ باستمرار ويصدر عويلاً مخيفاً لا يهدأ من البداية إلى النهاية. وعلى الرغم من حزني عليه، فقد أخافتني تلك الأصوات. لم تكن أصواتاً بشرية، وكان الرعب الذي تشي به عميقاً ومتطاولاً بحيث كان عليّ أن أمنع نفسي من الصراخ. انكبّ المعلّم ياهودي على عمله بهدوء طبيب متمرس، لكنّ العويلَ أخاف ماما سيو كما أخافني. كان ذلك آخر ما توقعته منها. إذ طالما اعتقدتُ أن الهنود

يملكون مشاعرهم الخاصة، وأنهم أكثر شجاعة ورواقية من البيض، لكن الحقيقة هي أن ماما سيو فقدت أعصابها تماماً، ومع استمرار تدفق الدم وتفاقم ألمِ إيسوب كانت تشهق وتنشج وكأن السكين تمزّق جسدَها هي. طَلب منها المعلّم ياهودي السيطرة على نفسها. اعتذرت، ولكن بعد خمسَ عشرة ثانية عادت إلى النشيج. كانت ممرضة رديئة، وبعد فترة وجيزة بدأ نشيجها يربك المعلم فطلب منها الخروج من الغرفة. "نحتاج إلى طنجرة جديدة من الماء المغلي"، قال المعلم. "أسرِعي يا امرأة، بسرعة". كان الأمر مجرد ذريعة للتخلص منها، وبينما كانت تهرع إلى الصالة، دفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء وهي تصعد الدرج. لديّ صورة واضحة عما حدث بعد ذلك؛ الطريقة التي علقت بها قدمُها على الدرجة الأولى، والطريقة التي خارت فيها ركبتُها وهي تحاول استعادة توازنها، ومن ثم السقوط على الدرج، وذلك الصوت الناجم عن سقوط جسدها الضخم وتدحرجه إلى الأسفل. كانت سقطة هزت أركان المنزل. ثم ما لبثت أن أطلقت صرخة مروعة وأمسكت بساقها وأخذت تتلوى على الأرض. "أيتها العجوز الغبية"، قالت لنفسها. "أيتها الكلبة اللعينة، ما الذي فعلتِه بنفسك؟ سقطتِ من على الدرج وكسرتِ ساقك اللعينة".

خلال الأسبوعين التاليين، بدا المنزل كئيباً كمشفى. كان علينا الاعتناء بشخصين مُقعَدين وقد قضينا، أنا والمعلم، أيامنا نهرع إلى الأعلى والأسفل، نقدم لهما الطعام، ونفرغ النونيّتين، ونقوم بكل شيء باستثناء تنظيف مؤخرتيهما القابعتين في السرير. كان إيسوب يشعر

بالكآبة والحزن على نفسه، وكانت ماما سيو تمطر نفسها بالشتائم من الصباح حتى المساء؛ وبالإضافة إلى الحيوانات التي تحتاج إلى الرعاية، والغرف التي تحتاج إلى التنظيف، والأسرّة التي تحتاج إلى الترتيب، والصحون التي تحتاج إلى الغسيل، والمدفأة التي تحتاج إلى الحطب، لم تتبقّ لنا دقيقة واحدة، أنا والمعلم، لنلتفت إلى عملنا. كان عيد الميلاد يقترب، أي الوقت المحدد للطيران، وكنت لا أزال خاضعاً لقوانين الجاذبية كما كنت دائماً. كانت اللحظة الأكثر قتامة خلال سنة كاملة. فقد تم تحويلي إلى مواطن عادي يقوم بواجباته ويعرف القراءة والكتابة، وإن استمرت الحال على ما هي عليه ربما آخذ دروساً في الإلقاء وأنضم إلى فريق الكشافة.

في أحد الصباحات، استيقظتُ أبكرَ من المعتاد. تفقدتُ إيسوب وماما سيو، وكانا لا يزالان نائمين، ثم نزلت الدرج على رؤوس أصابع قدميّ لأفاجِئ المعلم بإطلالتي تلك. فمن المعتاد أن يكون في المطبخ في تلك الساعة، يطهو طعام الإفطار ويحضر لبدء اليوم. لكنني لم أشم رائحة القهوة المتصاعدة من المدفأة، ولم أسمع صوت لحم الخنزير وهو يطقطق في المقلاة، وعندما دخلت إلى الغرفة اكتشفت أنها فارغة. إنه في الحظيرة، قلت لنفسي، يجمع البيض أو يحلب إحدى البقرات، ثم أدركت أن الموقد غير مشتعل. كان إشعال النار أول شيء نقوم به في صباحات الشتاء، وكان الجو في الأسفل بارداً جداً إلى درجة أن البخار كان يخرج من فمي كلما تنفست. حسناً، قلت لنفسي، ربما يكون العجوز متعباً ويرغب في النوم قليلاً. كان من شأن ذلك أن يشكل تغيراً جديداً، أليس كذلك؟ أن أوقظه

من سريره بدل أن يوقظني هو من سريري. عدتُ إلى الطابق العلوي وطرقت باب غرفته، وعندما لم أسمع أي رد بعد عدة محاولات، فتحت الباب ودخلت الغرفة بحذر وهدوء. لم يكن المعلّم ياهودي في غرفته. لم يكن في سريره، وكان السرير مرتباً ولا يشي بأن أحداً قد نام فيه الليلة السابقة. لقد تركنا وهرب، قلت لنفسي. لقد فرّ هارباً ولن نراه بعد الآن.

خلال الساعة التالية، كان رأسي يضج بأفكار يائسة. انتقلتُ من الحزن إلى الغضب، ومن العدائية إلى الضحك، ومن الأسى الشديد إلى السخرية الذاتية المريرة. كان العالم يشتعل وألفيتُ نفسي أعيش بين الرماد، وحيداً بين بقايا الخيانة المتفحّمة.

كانت ماما سيو وإيسوب لا يزالان نائمين في سريريهما، غافلين عن تحسّري ودموعي. وبطريقة أو أخرى (لا أذكر كيف وصلت إلى هناك)، وجدت نفسي في المطبخ ثانية، مستلقياً على بطني، ووجهي يلامس الأرض وأنفي يتمرّغ على الألواح الخشبية القذرة. لم تعد لدي أية دموع أذرفها؛ لم يبقَ سوى ذلك الشعور الجاف بالاختناق والحرقة. سرعان ما همدتُ وانتابني شعور بالسكينة، ثم سرى فيّ شعور بالهدوء والاسترخاء راح يشعّ من بين عضلاتي وينتقل إلى رؤوس أصابع يديّ وقدميّ. كان رأسي خالياً من الأفكار وقلبي خاوياً من المشاعر. شعرت بالخفة داخل جسدي وأنا أعوم فوق موجة ساكنة من العدم، منفصلاً عن العالم وغير مبالٍ به. وعندها فعلتُها للمرة الأولى، دون إنذار، ودون أدنى تفكّر بقرب حدوث ذلك. ببطء شديد، شعرت بجسدي يرتقي فوق الأرض. بدت الحركة

طبيعية جداً وغاية في اللطف والانسيابية، وعندما فتحت عينيّ فقط أدركت أن أعضائي لا تلامس شيئاً غير الهواء. لم أرتفع كثيراً عن الأرض - إنشاً أو اثنين - لكنني بقيت هناك دون أي جهد، معلّقاً كالقمر في قبّة الليل، ساكناً وعالياً، لا أشعر بشيء سوى الهواء ينساب إلى رئتيّ ثم يرفرف خارجاً. لا أعرف كم بقيت محلّقاً هناك، ولكن في لحظة معينة، وبنفس البطء واللطافة، عدت هابطاً إلى الأرض. كان كلّ شيء قد ارتشحَ واستُنزف مني عندها، وكانت عيناي مغلقتين. ودون أي تفكير بما حدث للتو، غرقت في نوم عميق وهادئ، كما تغرق حصوة لتستقرّ في قعر العالم.

أفقتُ على أصوات من حولي، أصوات أحذية تجرجر على الأرضية الخشبية العارية. وعندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي أنظر مباشرة إلى سواد سروال ساق المعلّم ياهودي اليسرى. "تحياتي"، قال لي وهو يلكزني بقدمه. "تنام هكذا على أرضية المطبخ الباردة. ليست المكان الصحيح للنوم إن كنت تريد المحافظة على صحتك".

حاولت النهوض، لكنني شعرت بجسمي ضعيفاً ومتهالكاً، وبذلت جهداً كبيراً فقط لكي أرفع نفسي على مرفق واحد. كان رأسي كتلة مرتعشة من الخيوط المتشابكة، وبغض النظر عن محاولاتي المتكررة في فرك عينيّ وفتحهما لم أتمكن من التركيز جيّداً.

"ما المشكلة يا وولت؟" تابع المعلم قائلاً. "لا تقل لي إنك كنت تمشي في نومك".

"لا يا سيدي. لا شيء من هذا القبيل".

"لماذا تبدو متجهماً إذاً؟ تبدو وكأنك عدت لتوك من جنازة".

اجتاحني حزنٌ دافق عندما قال ذلك، وفجأة انتابتني رغبة عارمة في البكاء. "آه يا سيدي"، قلت له وأنا أتمسك بساقه بكلتا ذراعيّ وأضغط بخدّي على قصبة ساقه. "آه أيها المعلم، ظننت أنك تركتني. اعتقدت أنك تخليت عني ولن تعود أبداً".

في اللحظة التي خرجت تلك الكلمات من شفتيّ، أدركت أنني على خطأ. لم يكن المعلم هو المسؤول عن هذا الشعور بالضعف واليأس، بل ذلك الشيء الذي فعلتُه قبل أن أستغرق في النوم. تدفق كل شيء بشكل واضح ومثير للغثيان؛ تلك اللحظات التي قضيتها وأنا معلق في الهواء، ويقيني بأنني فعلتُ ما لم يكن بمقدوري أن أفعله. فبدلاً من أن يملأني بالنشوة والبهجة، غمرني بنوع من الفزع والرهبة. لم أعد أعرف نفسي. فقد سكنني شيءٌ غريب عني، وكان ذلك الشيء مريعاً، وغريباً في جدّته إلى درجة لم أتمكّن معها من الإفصاح عنه. استسلمتُ للبكاء. تركت الدموع تتدفق من عينيّ، وحالما بدأت في البكاء أيقنتُ أنني لن أتمكن من التوقف.

"يا بنيّ العزيز"، قال المعلم، "يا بنيّ العزيز الجميل". ثم انحنى على الأرض وأخذني بين ذراعيه وهو يربت على ظهري ويحضنني بقوة وأنا مستمر في البكاء. ثم، بعد لحظة من الصمت، سمعته يتكلم ثانية؛ ولكن في هذه المرة لم يكن يوجه كلماته إليّ. وللمرة الأولى بعد أن استعدت وعيي، أدركت وجود شخص آخر في الغرفة.

"إنه أشجع صبي رأيته في حياتي"، قال المعلم. "لقد جدّ وشقي وتعب إلى حد الإنهاك. لا يمكن لصبي أن يحتمل أكثر من هذا،

وأخشى أن الصبي المسكين قد انتهى".

نظرت في تلك اللحظة إلى الأعلى. رفعت رأسي من حضن المعلم، وجلتُ بنظري لوهلة، فرأيت السيدة ويذرسبون واقفة في الضوء المتدفق من الباب. كانت ترتدي معطفاً قرمزياً وقبعة فرو سوداء، على ما أذكر، وكان خداها لا يزالان متوردين من برد الشتاء. وحالما التقت أعيننا تكشّف وجهها عن ابتسامة.

"مرحباً يا وولت".

"مرحباً يا سيدتي"، قلت لها وأنا أجفف آخر دموعي.

"هذه هي عرّابتُك الجنيّة"، قال المعلم. "لقد جاءت السيدة ويذرسبون لكي تنقذنا، وسوف تبقى معنا في المنزل لفترة قصيرة، إلى أن تعود الأمور إلى طبيعتها".

"أنتِ تلك السيدة من ويتشوتا، أليس كذلك؟" قلت لها وقد أدركتُ لماذا يبدو وجهها مألوفاً لي.

"هذا صحيح. وأنت الولد الصغير الذي تاه في العاصفة"، قالت لي.

"حدث ذلك قبل وقت طويل"، قلت لها وأنا أحرر نفسي من ذراعَي المعلم وأقف على قدميّ أخيراً. "ولا أتذكر الكثير مما حدث عندها".

"لا. ربما لا تتذكر الكثير. أما أنا فأتذكر كل شيء".

"السيدة ويذرسبون ليست مجرد صديقة للعائلة فقط"، قال المعلم، "لكنها بطلتنا الأولى وشريكتنا في العمل. أريدك أن تفهم ذلك يا وولت. أريدك أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار أثناء إقامتها معنا.

فالطعام الذي تتغذى عليه، والثياب التي تلبسها، والنار التي تدفئك؛ كل هذا يأتي من السيدة ويذرسبون، وسوف يكون من المحزن جداً أن تنسى ذلك".

"لا تقلق"، قلت له وقد شعرت فجأة بروحي تتدفق حيوية. "فأنا لست وقحاً. وعندما تدخل سيدة جميلة إلى منزلي، أعرف كيف أتصرف كجنتلمان".

من دون أن أضيع ثانية واحدة، التفتّ إلى السيدة ويذرسبون، ثم استجمعتُ كل ما أملك من رباطة جأشي وغروري وأعطيتها أكثر غمزة مثيرة عرفتها نساء العالم أجمع. لكن السيدة ويذرسبون لم تحمر خجلاً أو تتلعثم. فبدلاً من ذلك، أطلقت ضحكة قصيرة ثم بادلتني بغمزة لعوبة دون أن تفقد أياً من برودها أو كياستها. كانت لحظة لا أزال أذكرها بكثير من الحب، وعندها أدركت أننا سنصبح صديقين.

لم تكن لدي أدنى فكرة عن الاتفاق الذي عقده معها المعلم، وفي ذلك الوقت لم أفكر في ذلك طويلاً. ما كان يهمني حقاً هو أن السيدة ويذرسبون سوف تبقى معنا وأن وجودها سيحررني من واجباتي اليومية في التمريض والتنظيف. تولّت أمور المنزل في ذلك الصباح الأول، وخلال الأسابيع الثلاثة التالية سارت أمور المنزل بسلاسة كبيرة. ولكي أكون صادقاً، لم أعتقد أنها ستتمكن من القيام بذلك، خاصّةً عندما رأيتها في معطفها الراقي ذلك وقفازيها الثمينين. بدت أشبه بامرأة اعتادت الخدمَ. ومع أنها كانت جميلة بطريقة هشةٍ، كانت بشرتها شاحبة وكانت نحيلة جداً. مضى وقتٌ لا بأس به قبل أن

أعتادَها، بما أنها كانت مختلفة عن النساء اللواتي عرفتهنّ في حياتي. لم تكن متحررة أو منفلتة، ولم تكن ربة منزل خنوعة وبائسة، ولم تكن امرأة تقليدية ومتحفظة أو عذراء متزمتة؛ كانت تمتلك شيئاً من جميع هذه الأنماط، مما يعني أنه لا يمكنك تحديد شخصيتها بدقة أو التنبؤ بسلوكها. الشيء الوحيد الذي كنت متيقناً منه هو أن المعلم واقع في حبها. كان دائماً يسكن ويتكلم بطريقة لطيفة عندما تدخل إلى الغرفة، وقد رأيته أكثر من مرة وهو يحدق فيها بنظرة حالمة في غفلة منها. وبما أنهما كانا ينامان في السرير نفسه كل ليلة، وبما أنني كنت أسمع الفراش يصرّ ويتحرك بإيقاع منتظم، عرفت أنها كانت تبادله الشعور أيضاً. لكن ما لم أعرفْه أنّها رفضت عرضه بالزواج ثلاث مرات؛ وحتى لو عرفْت، فذلك لن يغيّر في الأمر شيئاً. كنت أفكّر في أشياء أخرى حينها، وكانت تلك الأشياء أكثر أهمية بالنسبة إليّ من تقلّبات حياة المعلّم العاطفية.

انزويتُ قدر الإمكان خلال تلك الأسابيع، أختبئ في غرفتي وأستكشف خفايا موهبتي الجديدة وأهوالها. فعلت كل ما بوسعي لكي أروّضها وأتكيّف معها وأدرس أبعادَها الدقيقة وأتقبّلها كجزء أساسي من حياتي. هذا هو الصراع الذي كنت أخوضه؛ لا أن أتقن هذه المهارة فقط، بل أن أمتصّ تداعياتها الرهيبة والمدمرة وأرمي بنفسي في بطن الوحش. فقد ابتلتني بمصير خاص سوف يميّزني عن الآخرين لبقية حياتي. تخيّل أنك تستيقظ في أحد الصباحات وتكتشف أنك تملك وجهاً جديداً، ثم تخيل الساعات التي ستقضيها أمام المرآة قبل أن تعتاده، قبل أن تألف نفسك ثانية. يوماً بعد يوم،

كنت أنزوي في غرفتي، وأتمدد على الأرض، وأحاول الارتقاء بجسدي في الهواء. تدرّبت على ذلك كثيراً، ولم يمض وقت طويل حتى تمكنتُ من الارتقاء آنَ شئت، حيث أرفع جسدي عن الأرض خلال ثوانٍ قليلة. وبعد نحو أسبوعين، اكتشفت أنني لست بحاجة إلى الاستلقاء على الأرض. فإن وقفتُ ساكناً بطريقة صحيحة، تمكنتُ من الارتقاء من وضعية الوقوف والارتفاع ستة إنشاتٍ في الهواء من وضع عمودي. وبعد ذلك بثلاثة أيام، اكتشفت أن بمقدوري الارتقاء بعينين مفتوحتين. كان بمقدوري أن أنظر إلى السفل وأرى قدميّ ترتفعان عن الأرض دون أن يذهب السحر.

خلال ذلك كله، كانت حيوات الآخرين تدور حولي. فقد تخلّص إيسوب من الضمادات، واستعادت ماما سيو بعضاً من حركتها بمساعدة عكاز، وكان المعلم والسيدة ويذرسبون يهزّان نوابض السرير كل ليلة ويملآن المنزل بتأوهاتهما. ومع هذا الصخب والهرج كله، لم يكن من السهل عليّ دوماً أن أجد عذراً للانزواء في غرفتي. ففي مناسبتين اثنتين، شعرتُ أن المعلم يقرأ ما يجول في داخلي ويفهم ازدواجيتي وأنه كان متساهلاً معي فقط لأنه لا يرغب في أن يشغل نفسه بي. ففي الظروف العادية، كانت الغيرة ستأكلني جرّاء هذا التجاهل التام وتفضيل صحبة امرأة على رفقتي الرائعة التي لا تقدّر بثمن. أما الآن، وبعد أن تمكنت من الارتقاء في الهواء، أخذ المعلّم ياهودي يفقد خصائصه الخارقة بالنسبة إليّ ولم أعد أشعر بتأثيره الكبير عليّ. رأيته كرجلٍ، مثله مثل كلّ الرجال، وإن كان يرغب في قضاء وقته في اللهو مع امرأة نحيلة من ويتشوتا، فهذا شأنه

هو. لديه أشياؤه الخاصة ولديّ أشيائي، وسوف تسير الأمور على هذه الشاكلة من الآن فصاعداً. فقد علمت نفسي الطيران، في نهاية المطاف، أو على الأقل شيئاً يشبه الطيران، وافترضتُ أن ذلك يعني أنني سيّد نفسي الآن ولم أعد مسؤولاً أمام أي شخص آخر. ولكن سرعان ما تبيّن لي أن هذا الإنجاز كان مجرد انتقال إلى المرحلة التالية من تطوري. فالمعلم المحتال لا يزال يسبقني بخطوات كثيرة وكان أمامي طريق طويل قبل أن أصبح ذلك الشخص المميز الذي اعتقدتُ أنني صرتُه.

كان إيسوب غارقاً في الكآبة بعد فقدانه لإصبعه العاشرة، وقد تحوّل إلى ظلّ لذاته السابقة. ومع أنني كنت أقضي ما يتوفّر لي من الوقت معه، فانكبابي على تجاربي حال دون تكريس الوقت اللازم للاعتناء به. كان يسألني باستمرار عن سبب اعتكافي في غرفتي، وفي أحد الصباحات (في اليوم الخامس أو السادس عشر من شهر ديسمبر، على ما أذكر) طلعتُ بكذبة صغيرة لكي أبدّد شكوكه. لم أرده أن يعتقد أنني لم أعد أهتم به، وكان الكذب في تلك الظروف أفضلَ من التزام الصمت.

"عندي مفاجأة لك"، قلت له. "وإذا وعدتني ألا تتفوّه بكلمة واحدة، فسوف أعطيك فكرة عن الأمر".

نظر إيسوب إليّ بشيء من الريبة. "هذه واحدة أخرى من ألاعيبك، أليس كذلك؟".

"ليست هناك أية ألاعيب هذه المرة، أقسم لك. فما أقوله لك هو الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة".

"ليس عليك أن تلف وتدور. فإن كان لديك شيء تقوله، قله ببساطة".

"سوف أفعل هذا. ولكن عليك أن تعدني أولاً".

"آمل أن يكون شيئاً مهماً. فأنا لا أحب أن أقدم الوعود من دون أسباب موجبة".

"إنه شيء في غاية الأهمية، أؤكد لك".

"حسناً"، قال لي وقد بدأ صبره ينفد. "ما الحكاية، يا أخي الصغير؟".

"ارفع يدك اليمنى واقسم أنك لن تخبر أحداً. اقسم بقبر أمك. اقسم ببياض بؤبؤ عينك. اقسم بأعشاش جميع العاهرات الزنجيات".

تنهّد إيسوب، ثم أمسك بخصيتيه بيده اليسرى - هذه هي الطريقة التي نقسم بها لبعضنا بعضاً - ورفع يده اليمنى في الهواء. "أقسم"، قال إيسوب ثم كرّر الأشياء التي قلتها له.

"حسناً"، قلت له وأنا أحاول ارتجال ما سأفصح عنه. "الأمر هكذا. عيد الميلاد سيكون في الأسبوع القادم، وفيما يخص وجود السيدة ويذرسبون في المنزل، فقد سمعت عن احتفال سيجري في الخامس والعشرين. الحبشة والفطائر والهدايا، وربما شجرة وكرات ملونة وفُشار. فإن حصلت هذه الهيصة بالشكل الذي أتوقعه، أريد أن أكون مستعداً لها. تعرف كيف تجري الأمور. فإن تلقيت هدية، عليك أن تقدم هدية بالمقابل. هذا هو السبب الذي جعلني أعتكف في غرفتي طوال هذه الأيام. فأنا أحضّر هدية، أقوم بتحضير أجمل وأكبر مفاجأة يمكن لعقلي الصغير أن يخترعها. سوف أكشف عنها

بعد بضعة أيام، يا أخي الكبير، وآمل أن تعجبكم".

كان كل ما قلته عن حفلة عيد الميلاد صحيحاً. فقد سمعت المعلم وصديقته يتكلمان في الأمر، ولكن لم يخطر لي أن أقدم هدية لأحد حتى ذلك الوقت. وبما أنني زرعت الفكرة في رأسي الآن، فقد رأيت في ذلك فرصة ذهبية، فرصة كنت أنتظرها منذ وقت طويل. فإن كان هناك حفلة عشاء عيد الميلاد (وقد أكّد المعلّم ذلك في تلك الليلة)، فسوف أستغل المناسبة لأستعرض موهبتي الجديدة. وسوف تكون بمثابة الهدية التي سأقدمها لهم. سوف أقف ثم أرتفع في الهواء أمام أعينهم، وسوف يعرف العالم سرّي أخيراً.

قضيتُ الأيام العشرة التالية والعرق البارد يرشح من جسدي. صحيح أنني كنت أرتقي في عزلة غرفتي، ولكن كيف أضمن أنني لن أقع على وجهي وأنا أمشي أمامهم؟ فإن لم أنجح في ذلك، سوف أتحول إلى مضحكة يتندر بها الجميع على مدى السبع والعشرين سنة القادمة.

هكذا بدأ أطول وأصعب يوم في حياتي. فكيفما نظرتَ إلى الأمر، فإن عيد الميلاد مناسبة جميلة ووليمة ضخمة للضحك والفرح، لكنني لم أتمتّع بها مطلقاً. كنت أجد صعوبة في مضغ لحم الحبش خوفاً من الاختناق، وكان مذاق اللفت المهروس أقرب إلى مزيج من غراء المكتبات والوحل. وعندما انتقلنا إلى الصالة لإنشاد الأغاني وتبادل الهدايا، كنت على وشك الإغماء. بدأت السيدة ويذرسبون بإعطائي كنزة زرقاء مطرز عليها رنّة حمراء من الأمام. قدمت لي ماما سو زوجاً من الجوارب المخططة المحاكة يدوياً، ثم أعطاني المعلّم

كرة بيسبول بيضاء. وأخيراً قدم لي إيسوب صورة السير وولتر راليه التي قام بقصها من الكتاب ووضعها في إطار من خشب الأبنوس. كانت كلها هدايا جميلة، ولكن في كل مرة كنت أفتح واحدة منها لم يكن يصدر عني سوى بعض الهمهمات وكلمات الشكر المخنوقة. فكل هدية كانت تعني أنني أقترب أكثر من لحظة الحقيقة، وكانت كل واحدة منها تستنزف المزيد من الروح المتبقية فيّ. غرقتُ في كرسيّ، وعندما انتهيت من فتح الهدية الأخيرة كنت قد قررت أن ألغي الاستعراض. لم أكن جاهزاً، قلت لنفسي، ولا أزال بحاجة إلى المزيد من التدريب، وحالما بدأتُ بالتفكير في تلك الأعذار تمكنتُ من إقناع نفسي بالإقلاع عن الفكرة. عندئذٍ، وبعد أن حسمتُ أمري نهائيّاً وبقيت جالساً في الكرسي، تقدم إيسوب ليدلي بدلوه فشعرت أن سقف المنزل قد أطبق عليّ.

"والآن جاء دور وولت"، قال ببراءة، ظناً منه أنني شخص يفي بوعوده. "لقد حضّر لنا شيئاً، ولا يمكنني الانتظار لمعرفة ما يخبّئه لنا".

"صحيح"، قال المعلم وهو يلتفت إليّ ويرمقني بواحدة من تلك النظرات الثاقبة. "لم نسمع شيئاً بعد من السيد الشاب رولي".

وجدت نفسي في وضع حرج. لم تكن لديّ هدية أخرى أقدمها لأحد، وإن ماطلتُ أكثر فسوف يرون فيّ ذلك الشخص الأناني العاق. نهضت من الكرسي وركبتاي ترجفان وقلت بصوتٍ خافت ومتردد: "فلنبدأ أيها السيدات والسادة. وإن لم ينجح الأمر، لا يمكنكم القول إن ذلك ناجم عن عدم المحاولة".

كان الأربعة ينظرون إليّ بقدر كبير من الفضول، ونوع من الانتشاء والذهول والاهتمام، فأغلقت عينيّ لكي أتمكن من التركيز على ما سأقوم به. أخذتُ نفَساً عميقاً وطويلاً ثم أطلقت الهواء من رئتيّ وفتحتُ ذراعيّ على مداهما بتلك الطريقة التي تدرّبت عليها لساعات طويلة، ثم دخلتُ في حالة من الغيبوبة. بدأت أرتقي في الحال وأرتفع عن الأرض بطريقة سلسة وتدريجية، وعندما ارتفعت زهاءَ ستة أو سبعة إنشات – وهو أقصى ارتفاع تمكنت من بلوغه في تلك الأشهر الأولى – فتحت عينيّ وألقيت نظرة على جمهوري. كان إيسوب والمرأتان ينظرون إليّ بذهول وقد فغرت أفواههم بالطريقة نفسها. أما المعلّم فكان يبتسم والدموع تنهمر من عينيه وتسيل على خدّيه، وحتى عندما كنت أحلّق أمامه رأيته وهو يبحث عن السير الجلدي تحت ياقة قميصه. وعندما هبطت على الأرض، كان قد نزع العقد من رقبته ثم مدّ يده نحوي وقدّمه لي. لم يقلْ أحدٌ شيئاً. تقدّمْتُ نحوه وقد ثبّتُّ عينيّ في عينيه لأنني لم أملك الجرأة على النظر إلى أي مكان آخر. وعندما وصلت إلى حيث يجلس المعلّم، أخذت إصبعي منه وسقطْتُ على ركبتيّ، ثم دفنتُ وجهي في حضنه. بقيتُ هكذا قرابة دقيقة، وعندما استجمعت شجاعتي ووقفت على قدميّ، خرجْتُ من الغرفة مسرعاً، ثم انطلقْتُ عبر المطبخ إلى هواء الليلة البارد وأنا ألهثُ بحثاً عن الهواء والحياة تحت نجوم الشتاء الهائلة.

ودّعنا السيدة ويذرسبون بعد ثلاثة أيام ملوّحين لها بأيدينا عبر باب المطبخ وهي تنطلق بسيارة كرايسلر الخضراء. ثم حلّت سنة ١٩٢٧، وخلال الستة أشهر التالية من تلك السنة عملتُ بتركيزٍ وحشي وكنت أدفع نفسي أكثر قليلاً في كل أسبوع. أوضح لي المعلّم ياهودي أن الارتقاء لا يتعدّى البداية فقط. كان إنجازاً جيداً، بالطبع، لكنه غير كافٍ لإبهار العالم. فهناك الكثير من الأشخاص القادرين على الارتفاع عن الأرض، وحتى عندما تستثني الحكماءَ الهنود ورهبان التبت وأطباء الكونغو السحرة، هناك أشخاص كثيرون في ما يسمى بالعالم المتحضر، في بلدان أوروبا وشمال أميركا البيضاء. ففي هنغاريا وحدها، قال المعلم، كان هناك خمسة أشخاص يمارسون الارتقاء في نهاية القرن، ثلاثة منهم يعيشون في مدينته الأصلية بودابست. كانت مهارة رائعة، ولكن سرعان ما سئم الناس منها، وإن لم تتمكن من القيام بشيء أكثر من الارتفاع عن الأرض لبضعة إنشات فلن تتمكن من تحويلها إلى مهنة رابحة. لقد تلطخت سمعة الارتقاء على يد المخادعين والمهرجين، صبيان المرايا والدخان الذين يسعون إلى جني الأرباح السريعة، فحتى أسوأ السحرة وأضعفهم قادرون على تأدية خدعة الفتاة الطائرة؛ الفتاة الجميلة شبه العارية التي تقف معلقة في الهواء ثم يتم تمرير طوق دائري حولها (انظروا، ليست هناك أية خيوط أو أسلاك). صارت هذه أشياء عادية الآن وجزءاً أساسياً من هذا

النوع من العروض، وقد دمرت الحياة المهنية للمرتقين الحقيقيين. بات الجميع يعرف أنها خدعة، وقد انتشرت هذه الخدعة على نطاق واسع إلى درجة صار معها الناسُ يؤمنون أن عمليات الارتقاء الحقيقي كانت تنطوي على خدعة ما أيضاً.

"هناك طريقتان فقط لنيل اهتمامهم"، قال المعلم. "وكل واحدة منهما كفيلة بتأمين حياة جيدة لنا، ولكن إن تمكنت من دمج الطريقتين في استعراض واحد، لا يمكنك التنبؤ بما يمكن أن نحققه. فليس هناك مصرف في العالم قادر على تخزين الأموال الذي سنجنيها عندئذٍ".

"طريقتان؟" قلت متسائلاً. "هل هما جزء من الخطوات الثلاث والثلاثين، أم هل تجاوزنا ذلك الآن؟".

"لقد تجاوزنا تلك المرحلة الآن. فقد تقدمت بسرعة كبيرة، كما فعلتُ أنا عندما كنت في سنّك، وسوف ندخل بعد هذا في أرضٍ جديدة ونطأ قارّاتٍ لم يرها أحدٌ من قبل. يمكنني أن أساعدك بتقديم النصيحة والتعليمات، ويمكنني أن أوجهك عندما تخرج عن المسار الصحيح، ولكن عليك أنت أن تكتشف جميع الأشياء الأساسية. لقد وصلنا إلى مفترق طرق، ومن الآن وصاعداً الأمر منوط بك أنت".

"أخبرني عن هاتين الطريقتين. أعطِني التفاصيل كلها، وسوف نرى إن كنت أهلاً لذلك أم لا".

"الارتقاء والحركة؛ هاتان هما الطريقتان. وأعني بالارتقاء أن تتمكن من الارتفاع في الهواء. ليس إلى قدم فقط، بل إلى ثلاثة أقدام، وستة أقدام، وعشرين قدماً. فكلما ارتفعتَ أكثر، كانت النتيجة أكثر

إبهاراً. ثلاثة أقدام جيدة، لكنها ليست كافية لإذهال الحشود. فهي تضعك فوق مستوى النظر عند معظم البالغين، ولا يمكن لذلك أن يشكل إنجازاً مهمّاً في نهاية المطاف. عندما تتمكن من الارتفاع إلى ستة أقدام، فإنك تحوم فوق رؤوسهم، وحالما ترغمهم على النظر إلى الأعلى، سوف تخلق الانطباع الذي نبحث عنه. أما إذا تمكنت من الارتفاع إلى عشرة أقدام، فإن الأثر الذي ستتركه سيكون هائلاً. ولكن إن تمكنت من الارتفاع إلى عشرين قدماً، فسوف تكون بين الملائكة يا وولت، وسوف يكون منظراً بهياً، هيئة رائعة من الضوء والجمال تبثّ الفرحَ في قلوب الرجال والنساء والأطفال الذين يرفعون رؤوسهم نحوك".

"جعلت بدني كلّه يقشعرّ أيها المعلّم. عندما تتكلّم بهذه الطريقة، يرتعش جسدي كلُّه".

"الارتقاء هو نصف الحكاية فقط يا بنيّ. فقبل أن تتأثر بما أقوله، توقف قليلاً وفكّر في الحركة. وأعني بهذا التنقل في الهواء. إلى الأمام أو الخلف، تبعاً للحالة المطلوبة، ولكن من الأفضل التحرك في كلا الاتجاهين معاً. السرعة ليست ضرورية، لكن الفترة الزمنية التي تستغرقها الحركة في غاية الأهمية، وفيها يكمن السرّ. تخيل منظر التنقل في الهواء لمدة عشر ثوانٍ. سوف يصاب الناس بالذهول. سوف يشيرون إليك غير مصدقين أعينهم، ولكن قبل أن يستوعبوا حقيقة ما يرونه، ستكون المعجزة قد انتهت. والآن، تخيل العرض هذا وهو يدوم على مدى ثلاثين ثانية أو دقيقة كاملة. يصبح أفضل بكثير، أليس كذلك؟ تبدأ الروح بالتمدد، ويتدفق الدمُ بسلاسة في

شرايينك. والآن مدّد العرض إلى خمس دقائق، إلى عشر دقائق، ثم تخيل نفسك وأنت تتلوى وترقص أثناء تنقلك في الهواء، بسلاسة وحرية، ومئة ألف عينٍ شاخصة فيك وأنت تعومِ فوق عشب ملعب "بولو غراوندز" في مدينة نيويورك. حاول أن تتخيل ذلك يا وولت، وسوف ترى ما كنْتُ أراه طوال هذه الأشهر والسنوات".

"لا أعتقد أنني قادر على احتمال هذا كله أيها المعلم".

"انتظر قليلاً يا وولت، انتظر ثانية أخرى. افترِض، مجرد افتراض فقط، أن الحظ يحالفك وتتمكن من إتقان المهارتين معاً وتأديتهما في الوقت نفسه".

"الارتقاء والحركة معاً؟".

"أجل يا وولت. الارتقاء والحركة معاً. ما الذي سيحصل عندئذٍ؟".

"سوف أتمكن من الطيران، أليس كذلك؟ سوف أتمكن من التحليق في الهواء كالطير".

"ليس كطيرٍ يا صغيري، بل كإله. ستكون عجيبة العجائب يا وولت، وقدس المقدسات. ما دام البشر يمشون على الأرض، فسوف يعبدونك بصفتك أعظم إنسان يعيش بينهم".

قضيت معظم الشتاء أعمل وحيداً في الحظيرة. كانت الحيوانات هناك، لكنها لم تأبه لوجودي واكتفت بمراقبة تدريباتي المقاومة للجاذبية بنوع من اللامبالاة. وبين الفينة والأخرى كان المعلم يتفقد سير الأمور دون أن يقول شيئاً باستثناء بعض الكلمات التشجيعية. كان شهر يناير الأصعب على الإطلاق ولم أحقق فيه أيّ تقدّم يذكر.

كان الارتقاء أسهل من التنفس بالنسبة إليّ في ذلك الوقت، لكنني توقفتُ عند ارتفاع ست إنشات، وبدت فكرة التحرك في الهواء مستحيلة. لم يتوقف الأمر عند معرفة الطريقة التي تسير بها تلك الأشياء، بل إنني فشلت في استيعابها أيضاً. وبغضّ النظر عن الجهد الذي كنت أبذله في تطويع جسدي للتعبير عنها، إلا أنني لم أجد الطريقة المناسبة للبدء فيها. ولم يكن المعلم يساعدني في شيء. "المحاولة والفشل"، كان يقول، "المحاولة والفشل، هنا يكمن السرّ كلّه. لقد وصلت إلى المرحلة الأصعب الآن، ولا يمكنك أن تبلغ السماوات بين عشية وضحاها".

في بداية شهر فبراير، غادر المعلّم ياهودي وإيسوب المزرعة ليجولا على بعض الكليات والجامعات في الشرق. كانا يبحثان عن المكان الذي سيدرس فيه إيسوب في سبتمبر، لكنهما خطّطا للذهب لمدة شهر كامل. لست بحاجة لأن أضيف أنني رجوتهما أن يأخذاني معهما. سوف يزوران مدناً مثل بوسطن ونيويورك، مدناً ضخمة تحتوي على فرق رياضية كبيرة والعربات الكبيرة والألعاب المسلية، وكانت فكرة البقاء في ذلك المكان المقفر تبعث على اليأس والإحباط. فلو أنني أحرزتُ بعض التقدم في الارتقاء والحركة، لكانت فكرة بقائي هناك مقبولة بعض الشيء، لكنني لم أكن أحرز أي تقدم يذكر، وقد قلت للمعلم إنني بحاجة إلى بعض الراحة والتغيير لكي أستعيد نشاطي وحيويتي. ضحك بطريقته الساخرة المعهودة وقال: "سوف يأتي وقتك يا بطل، لكنه دور إيسوب الآن. لم تقع عين هذا الصبي المسكين على رصيف أو إشارة مرورٍ منذ سبع سنين،

ومن واجبي كأب أن أريه بعض الأمكنة. بمقدور الكتب أن تأخذك إلى أماكن معينة، في نهاية المطاف. ولكنْ هناك وقت عليك فيه أن تختبر الأشياء بشكل عملي".

"على ذكر الأشياء العملية"، قلت له وأنا أبتلع خيبتي، "احرص على الاهتمام بصاحب إيسوب الصغير. فإن كانت هناك أية تجربة يتوق إلى اختبارها، فهي الفرصة لأن يضعه في مكان آخر غير يده".

"لا تقلق يا وولت. لقد خططت لذلك. وقد أعطتني السيدة ويذرسبون مبلغاً إضافياً لهذا الغرض بالذات".

"تستحق الشكر على هذه اللفتة الكريمة. وربما تفعل الشيء نفسه معي في أحد الأيام".

"أنا واثق من أنها ستفعل ذلك، ولكن لا أعتقد أنك ستحتاج إلى مساعدتها".

"سوف نرى. وفي هذه الظروف القائمة الآن، لست مهتماً بالأمر على أية حال".

"هذا سبب آخر لبقائك هنا في كانساس والتركيز على عملك. فإن واظبت على التدريب، ربما تكون مفاجأة أو اثنتان في انتظاري عندما أعود".

أمضيت شهر فبراير وحيداً مع ماما سيو، أراقب الثلج يتساقط وأستمع إلى صوت الريح تهبّ في البراري. وخلال الأسبوعين الأولين، كان الجو بارداً جداً فلم أقوَ على الذهاب إلى الحظيرة. قضيت معظم أوقاتي أحوص في المنزل وأشعر بالسأم والإحباط لمجرد التفكير في التدرب على الحركات التي كنت أقوم بها.

وحتى مع وجودنا نحن الاثنين فقط في المنزل، كانت ماما سيو تقوم بمهامها المعتادة على الرغم من الجهد الكبير الذي كانت تبذله بسبب الإصابة السابقة في ساقها والتعب الذي يحل بها سريعاً من جراء ذلك. لكنني كنت أحاول إلهاءَها عن أداء مهامّها ودفعها إلى التحدث معي أثناء عملها. لأكثر من سنتين، كنت أهتم بنفسي فقط وأتقبل وجود الآخرين حولي وهم يطوفون على السطح. لم أحاول الغوص في ماضيهم، ولم أهتمّ لمعرفة حيواتهم السابقة قبل أن أصبح جزءاً منها. أما الآن، فقد انتابتني رغبةٌ قوية في معرفة كل شيء عن كل واحد منهم. أعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى اشتياقي الكبير إليهم؛ المعلم وإيسوب بشكل خاص، بالإضافة إلى السيدة ويذرسبون أيضاً. كنت قد أحببت وجودها في المنزل، وقد تحول البيت إلى مكان مضجر بعد رحيلها. كانت الأسئلة هي الطريقة الملائمة لاستعادتهم، وكلما استفاضت ماما سو في الحديث عنهم تضاءل شعوري بالوحدة.مكتبة سُر مَن قرأ

على الرغم من إصراري ونَقّي، لم أحصل على الكثير منها خلال النهار. طرفة عابرة، وبعض التعليقات السريعة، والتلميحات الموجزة. كانت المساءات مناسبة أكثر للأحاديث، ومهما حاولت معها نادراً ما كانت تستفيض في الحديث قبل أن نجلس إلى العشاء. كانت ماما سيو شخصاً كتوماً ليس من طبعه الثرثرة، ولكن حالما يطيب لها الجوّ لم تكن سيئة في سرد القصص. كان أداؤها رتيباً، ولم تكن تقدم الكثير من التفاصيل، لكنها تتوقف أحياناً في وسط الجملة أو الفكرة، وكانت تلك الفواصل الصغيرة تخلق تأثيرات

مدهشة. كانت تعطيك الفرصة للتفكير، وإكمال القصة بنفسك، وحين تستأنف كلامها تكتشف أن رأسك ممتلئ بصور مفعمة بالحيوية لم تكن موجودة قبل ذلك.

في إحدى الأمسيات، ومن دون أي سبب واضح بالنسبة إلي، أخذَتني إلى غرفتها في الطابق العلوي. طلبَت مني الجلوس على السرير، وحالما شعرتُ بشيء من الارتياح فتحَت غطاء صندوق قديم بالٍ يقبع في الزاوية. طالما ظننتُ أنها تحتفظ بأغطيتها وبطانياتها فيه، ولكن تبيّن أنه مليء بأشياء من ماضيها: صور وخرز، وأحذية خفيفة وفساتين من الجلد الخام، ورؤوس سهام، وقصاصات من الصحف، وأزهار مضغوطة يابسة. أخرجَتْ تلك التّذكارات واحداً تلو الآخر ووضعَتْها على السرير، ثم جلَسَت بالقرب مني، وأخذت تشرح لي معانيها. اكتشفتُ أنها كانت تعمل فعلاً عند بافالو بيل، وكان جمالُها في ذلك الوقت أكثرَ ما لفت انتباهي وأنا أقلّب صورَها القديمة؛ بدت أنيقة ونحيلة، تتمتع بأسنان بيضاء جميلة، وتربط شعرها في ضفيرتين طويلتين. كانت أميرة هندية، امرأة جميلة أشبه بفتيات السينما، وكان من الصعب على المرء أن يتصوّر أنّ تلك الأشياء الجميلة تعود لتلك السحلية العرجاء التي تهتمّ الآن بالمنزل، أو يتقبّل فكرة أنهما الشخص نفسه. بدأت الحكاية عندما كانت في السادسة عشرة من العمر، قالت لي، في ذروة الهوس بـ"رقصة الشبح" التي اجتاحت المناطق الهندية في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر. كانت أزمنة سيئة، سنوات نهاية العالم، وكان الهنود الحمر يعتقدون أن السحر هو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بإنقاذهم من الانقراض. كان الفرسان

يحاصرونهم من جميع الجهات ويدفعونهم إلى التجمع في محميات صغيرة، وكانت قوات "المعاطف الزرق" كبيرة بشكل لا تمكن معه مقاومتها. كان أداء "رقصة الشبح" خط الدفاع الأخير؛ تهزهز بشكل محموم، وتقفز وتنتفض وتتدحرج بانتشاء كالسكارى أو المجانين. كان بمقدورك أن تخرج من جسدك حينها، ولن تتمكن رصاصات الرجال البيض من الوصول إليك، أو قتلك، أو إفراغ أوردتك من الدم. وصلت حمى الرقصة إلى الجميع، وفي نهاية المطاف انضمّ سيتينغ بول نفسه إلى جموع الهزازين. أصيب أفرادُ الجيش الأميركي بالخوف، واعتقدوا أنهم يشهدون نوعاً من التمرد، وأمروا عمّ ماما سيو بالتوقف فوراً. لكن العجوز طلب منهم أن يذهبوا إلى الجحيم، فبمقدوره أن يرقص ويهز في خيمته إن رغب في ذلك، ومن هم لكي يتدخلوا في شؤونه الخاصة؟ استدعى الجنرال ذو المعطف الأزرق (أعتقد أن اسمه مايلز، أو نايلز) بافالو بيل للرقص مع الزعيم. كانا صديقَين منذ أن عمل سيتينغ بول في "وايلد ويست شو"، وكان كودي هو الرجل الأبيض الوحيد الذي يثق به. وهكذا ذهب بيل إلى المحمية في داكوتا الجنوبية مثل جنديّ مطيع، وعندما وصل إلى هناك غيّر الجنرال رأيه ولم يسمح له بالالتقاء بسيتينغ بول. تعرض بيل للخديعة. ولكن، فيما كان يتأهب للذهاب، لمح ماما سيو الشابة (الذي كان اسمها آنذاك "المرأة التي تبتسم كالشمس") وضمَّها إلى فرقته. فعلى الأقل لم يعد خالي الوفاض. وبالنسبة إلى ماما سيو، كان ذلك بمثابة خط فاصل بين الموت والحياة. فبعد بضعة أيام من دخولها في عالم الاستعراض، قُتل سيتينغ بول في مشاحنة مع بعض

الجنود الذين قاموا بأسره واحتجازه، كما قُتل الرجال العجائز على يد كتيبة فرسان في ما يسمى "معركة الركبة المجروحة"، التي لم تكن معركة بقدر ما كانت مجزرة حقيقية بحق مجموعة من الأبرياء.

فاضت عينا ماما سيو بالدموع وهي تروي تلك القصة. "إنه انتقام كَستَر"، تمتمت قائلة. "كنت في الثانية من عمري عندما مزق كريزي هورس جسدَه بالسهام، وعندما بلغت السادسة عشرة، لم يبقَ هناك أي شيء".

"سبق لإيسوب أن شرح لي ذلك"، قلت لها. "لا أذكر التفاصيل جيداً الآن، لكنني أتذكر قوله لو أنه قُدّر للبيض الهيمنة على الهنود لما كان هناك عبيد من أفريقيا. قال إنهم كانوا يريدون تحويل الهنود الحمر إلى عبيد، لكن الزعيم الكاثوليكي في البلد القديم لم يوافق على ذلك. وهكذا ذهب القراصنة إلى أفريقيا وجمعوا أعداداً هائلة من السود وساقوهم مقيدين بالجنازير. هذا ما رواه لي إيسوب، وأعرف أنه لا يكذب في أي شيء يقوله. كان من المفترض أن يتلقى الهنودُ معاملة جيدة. على غرار ما يكرره المعلم باستمرار؛ عِش ودع الآخرين يعيشون".

"من المفترض"، قالت ماما سيو. "لكن المفترض وما حدث بالفعل شيئان مختلفان تماماً".

"معك حق في هذه النقطة. إن لم يفِ المرء بوعوده، فلا قيمة لأية وعود يطلقها".

أخرجت المزيد من الصور بعد ذلك، ثم انتقلت إلى البرامج المسرحية، ولوحات الإعلانات، وقصاصات الصحف. جالت ماما

سيو جميع الأماكن، ليس في أميركا وكندا فقط، بل على الجانب الآخر من المحيط أيضاً. أدّت أمام ملك وملكة إنكلترا، ووقعت أوتوغرافاً لقيصر روسيا، وشربت الشمبانيا مع سارة برنارد. وبعد خمس أو ست سنوات من التجوال مع بافالو بيل، تزوجت رجلاً إيرلندياً يدعى تيد كان فارساً يشارك في سباقات الأحصنة في الجزر البريطانية. رزقا بابنة تدعى دافودِل، وعاشا في منزل ريفي حجري تحتوي حديقته على الأزهار الزرقاء والورود الزهرية، وقد كانت في غاية السعادة طوال سبع سنوات. ثم حلّت الكارثة. قُتل تيد ودافودِل في حادث قطار، وعادت ماما سيو إلى أميركا محطمة الفؤاد. تزوجت سمكرياً اسمه تيد أيضاً، ولكن على النقيض من تيد الأول كان تيد الثاني رجلاً سكيراً وسوقياً، وبالتدريج اعتادت ماما سيو على الشراب وكانت تشعر بالأسى الشديد كلما قارنت حياتها الجديدة بحياتها السابقة. انتهى بهما المطاف إلى العيش في كوخ بسيط يقع على أطراف ممفيس، في ولاية تينيسي، ولولا الظهورُ العرَضي المفاجئ للمعلم ياهودي في أحد الصباحات الصيفية من سنة ١٩١٢، لكانت ماما سيو قد رحلت عن هذا العالم في سنّ مبكرة. كان يسير حاملاً إيسوب الصغير بين ذراعيه (بعد مرور يومين فقط على إنقاذه له في حقل القطن) عندما سمع صراخاً وعويلاً يصدران عن الكوخ البالي الذي كانت تسميه ماما سيو بيتها. كان تيد الثاني قد بدأ بلكمها بقبضتيه المُشعرتين وحطم لها ستّ أو سبع أسنان سلفاً، فدخل المعلّم ياهودي – الذي لم يكن من عادته الهروب من المشاكل – إلى الكوخ ووضع الطفلَ المعاق بلطفٍ على الأرض ووضع حداً للعراك. انسلّ

خلف تيد الثاني وأمسك برقبة ذلك القذر بإبهامه وإصبعه الوسطى ثم ضغط بكل ما أوتي من قوة سرعان ما أرسلته إلى أرض الأحلام. بعد ذلك نظف المعلم فمَ ماما سيو من الدماء، وساعدها للوقوف على قدميها، وألقى نظرة سريعة على المكان البائس. لم يحتج إلى أكثر من اثنتي عشرة دقيقة للوصول إلى قرار نهائي. "سأقدّم لك عرضاً"، قال للمرأة المحطمة. "اتركي هذا الوغد ملقىً على الأرض وتعالي معي. لدي هنا طفل يعاني من الكساح ويحتاج إلى أم، وإن وافقت على الاعتناء به فسوف أعتني بك. لا أقيم في أي مكان لوقت طويل، ولذلك عليك اعتياد السفر والتنقل، لكنني أقسم بروح أبي أنني لن أترككما تجوعان أبداً".

كان المعلم في التاسعة والعشرين عندها؛ رجلاً مشرقاً ذا شاربين معقوفين وربطة عنق أنيقة. انضمت إليه ماما سيو في ذلك الصباح، ثم رافقته على مدى خمسة عشر عاماً في السراء والضراء وعملت على تربية إيسوب كأنه ابنها. لا أتذكر جميع الأماكن التي أتت على ذكرها، لكن القصص الأجمل كانت تتمحور حول مدينة شيكاغو التي اعتادا زيارتها بشكل متكرر. كانت السيدة ويذرسبون من هناك، وحالما تطرقت ماما سيو إلى ذلك الموضوع بدأ رأسي يدور. لم تقدم لي سوى الخطوط العريضة، لكن الحقائق العارية كانت غامضة ومسرحية غريبة ولم يمضِ وقت طويل حتى حوّلتها إلى دراما كاملة. كانت ماريون ويذرسبون قد تزوجت زوجَها الراحل عندما كانت في الواحدة والعشرين. هو أيضاً نشأ في كانساس، ابناً لعائلة ثرية من ويتشوتا وسرعان ما انتقل إلى المدينة الكبيرة حالما حصل على ورثة

العائلة. وصفته ماما سيو بأنه شخص وسيم وظريف، واحد من أولئك الرجال الساحرين القادرين على إغواء المرأة خلال وقتٍ قصير أقل من الوقت الذي يلزم جيم ثورب لكي يربط حذاءه. عاش الزوجان الشابان حياة مترفة لثلاث أو أربع سنوات، لكن السيد ويذرسبون كان مولعاً بسباقات الخيول، عداك عن ولعه بلعب الورق بشكل شبه منتظم، وبما أن حماسته لتينك الرذيلتين كانت تفوق مهارته بكثير، فقد بدّد معظم ما يملك عليه. وفي النهاية، صار الوضع يائساً إلى درجة بدا معها أن عليه هو وزوجته العودة إلى منزل العائلة في ويتشوتا وأن عليه هو – تشارلي ويذرسبون، لاعب البولو ومهرّج الجانب الشرقي – أن يبحث عن وظيفة في إحدى شركات التأمين البائسة. هنا دخل المعلّم ياهودي في الصورة؛ في غرفة خلفية في شارع رَش في الرابعة صباحاً، مع السيد ويذرسبون واثنين أو ثلاثة آخرين يجلسون حول طاولة خضراء ويحملون الورق في أيديهم. وكما يقولون في القصص المصورة، لم تكن تلك الليلة ليلة تشارلي، إذ كان على وشك الخسارة وفي يده ثلاثة شباب وختياران دون أن يملك المزيد من المال للمراهنة. كان المعلّم ياهودي اللاعب الوحيد المتبقي في اللعبة، وبما أنها كانت الفرصة الجيدة الأخيرة التي سيحصل عليها تشارلي، قرر اللعب على كل ما يملكه. أولاً قرر الرهان على ممتلكاته في سيبولا، في كانساس (التي كانت مزرعة جده وجدته في ما مضى)، فوقّع على المنزل والأرض على قطعة من الورق، ثم بعد أن صمد المعلّم ياهودي وزاد الرهان، وقّع على قصاصة أخرى راهن فيها على زوجته. كان المعلّم ياهودي يحمل

أربع سبعات، وبما أن أربع أوراق من النوع نفسه تتغلب على "فول هاوس"، بغض النظر عن قوة الورق الذي يشكله، فقد ربح المزرعة والمرأة، وعاد المسكين المهزوم تشارلي ويذرسبون مترنحاً إلى البيت عند الفجر وقد طار صوابُه، ودخل إلى الغرفة التي تنام فيها زوجته، وأخرج مسدساً من الطاولة الملاصقة لسريره، وأطلق النار على رأسه وهو جالس على السرير.

هكذا قرر المعلّم ياهودي الاستقرار في كانساس. فبعد سنوات طويلة من التجوال، حصل أخيراً على وطن له، ومع أنه لم يكن المكان الذي يسعى إليه، لم يكن ليتخلى عما منحته إياه السبعات الأربع تلك. الشيء الذي حيّرني هو وضع السيدة ويذرسبون. فإن كان زوجها قد مات وهو مفلس، فمن أين حصلت على تلك الأموال التي تمكنها من العيش في بحبوحة في عزبتها في ويتشوتا وتدليل نفسها بشراء الثياب الثمينة والسيارات الخضراء الفاخرة وتمويل مشاريع المعلّم ياهودي في الوقت نفسه؟ كانت لدى ماما سيو إجابة جاهزة عن ذلك السؤال؟ لأنها ذكية. فحالما لاحظت السيدة ويذرسبون الطريقة التي يبذّر زوجُها أمواله بها، بدأت تتلاعب بالحسابات وتودع جزءاً من دخلهما الشهري في استثمارات رابحة وأسهم وسنداتٍ تجارية وصفقات مالية أخرى. وعندما ترمّلت، كانت استثماراتها قد جنت أرباحاً كبيرة تفوق أربعة أضعاف المبالغ المستثمرة، وقد أمنت لها تلك الأموال الطعام والشراب والكثير من التسلية. ولكن ماذا عن المعلّم ياهودي؟ سألتها. فقد ربحها في لعبة البوكر تلك، وإن كانت السيدة ويذرسبون ملكاً له فلماذا لم يتزوجا؟ لماذا لا تعيش معنا هنا،

ترتق له جواربه، وتطبخ له الطعام، وتحمل أطفاله في رحمها؟

هزت ماما سيو رأسَها ببطء إلى الخلف والأمام. "نحن نعيش في عالم جديد"، قالت لي. "لم يعد بمقدور أحد أن يملك أحداً. المرأة ليست شيئاً يشتريه الرجال ويبيعونه، وخاصة النساء الحديثات من أمثال صديقة المعلم. فهما يحبان ويكرهان، يتعانقان ويتغازلان، يريدان ولا يريدان، ومع مرور الوقت يغرق كل منهما تحت جلد الآخر. إنها حفلة حقيقية، لعبة مسلية، أشبه بحفلة موسيقية وسيرك معاً، وسوف تستمر على هذا المنوال إلى أن يفارقا الحياة".

كنت أفكر في هذه القصص كثيراً في أوقات وحدتي، ولكن كلما فكرت في الأشياء التي قالتها لي ماما سيو بدت غريبة ومحيّرة. تعبت من التفكير في تفاصيل هذه العلاقات المعقدة، ومن ثم أقلعت عن ذلك قائلاً لنفسي إنني سأتعب دماغي بالتفكير في هذه الأشياء. فالأشخاص البالغون كائنات غامضة، وإن حصل وأصبحت مثلهم سوف أكتب رسالة لذاتي القديمة أشرح فيها الأسباب التي أوصلتني إلى ما أنا عليه؛ أما الآن فقد سئمت من الموضوع كله. شعرت بنوع من الارتياح بعد ذلك، ولكن حالما تخليت عن تلك الأفكار انتابني ضجر قاتل دفعني للعودة إلى العمل، ليس لأنني كنت راغباً في ذلك بل لأنني لم أجد وسيلة أخرى أملأ وقتي بها.

اعتكفتُ في غرفتي ثانية، وبعد ثلاثة أيام من المحاولات الفاشلة اكتشفت الخطأ الذي كنت أرتكبه. كانت المشكلة تكمن في المقاربة التي أنتهجها. كنت أعتقد أن الارتقاء والحركة يتحققان فقط من خلال عملية مكونة من خطوتين. أرتفع أولاً بقدر ما أستطيع، ثم

أنطلق. كنت قد تدربت على الخطوة الأولى، واعتقدت بقدرتي على إنجاز الخطوة الثانية من خلال توحيدها مع الأولى. لكن الحقيقة هي أن الخطوة الثانية تلغي ما قبلها. مرة بعد أخرى، كنت أرتفع في الهواء تبعاً للطريقة القديمة، ولكن حالما بدأت التفكير في التحرك إلى الأمام، كنت أعود إلى الأرض هابطاً على قدمي ثانية قبل أن تتسنى لي الحركة. فإن فشلت مرة، سوف أفشل ألف مرة، وبعد فترة قصيرة شعرت بالاستياء والقصور وكنت أدخل في نوبات من الغضب وأضرب الأرض بقبضتيّ. وأخيراً، ومن قلب الغضب والهزيمة، نهضت عن الأرض وقفزت صوب الحائط في محاولة يائسة لتحطيم رأسي. قفزت، ولوهلة قصيرة لم تتعدَّ الثانية، وقبل أن يرتطم كتفي بالحائط، شعرت أنني أعوم؛ فحتى عندما اندفعت إلى الأمام، كنت أتحرر من الجاذبية وأرتفع عالياً في الهواء بسلاسة ويسر. وقبل أن أستوعب ما يحصل، اصطدمت بالحائط وسقطت على الأرض ثانية وأنا أتلوى من الألم. كان جانبي الأيسر كلّه يؤلمني من الصدمة، لكنني لم أبالِ بذلك. وقفت على قدميّ ورقصتُ قليلاً حول الغرفة وأنا أضحك طوال العشرين دقيقة التالية. لقد اكتشفت السر. لقد فهمت. انسَ الزوايا القائمة، قلت لنفسي. فكّر في القوس، فكّر في المسار المنحني. لم يكن الأمر يتعلق بالارتفاع أولاً ثم التحرك، بل بالارتقاء والتحرك في الوقت نفسه، بالإقلاع بحركة سلسة واحدة والارتقاء إلى أحضان الفراغ العظيم.

عملت مثل كلبٍ خلال الأيام الثمانية عشر أو العشرين التالية، أتدرب على هذه التقنية الجديدة إلى أن تمثّلَتها عضلاتي وعظامي

وأصبحت فعلاً انعكاسياً لا يتطلب التوقف والتفكير. كانت الحركة مهارة قابلة للإتقان تمكنك من الانتقال في الهواء بسهولة وسلاسة وكأنك تمشي على الأرض. وكما يترنح الطفل ويقع عندما يمشي خطواته الأولى، تعثرتُ وأخفقتُ مراراً وتكراراً عندما نشرتُ جناحيّ. كانت الاستمرارية هي هاجسي الأكبر في تلك المرحلة؛ المدة التي أستغرقها والمسافة التي أقطعها في الحركة. جاءت النتائج الأولية متباينة جداً، إذ تفاوتت بين ثلاث إلى خمس عشرة ثانية، وبما أن حركتي كانت بطيئة جداً لم أتمكن من قطع مسافة تزيد على سبعة أو ثمانية أقدام، وهي لا تساوي المسافة الفاصلة بين جدار غرفتي والجدار المقابل. لم تكن حركة ثابتة وواثقة، بل نوعاً من الانتقال الشبَحي الذي يشبه حركة البهلوان الذي يمشي على سلك معلق في الهواء. ومع ذلك فقد ثابرت على التدريب والمحاولة دون أي شعور بذلك اليأس الذي كان ينتابني من قبل. كنت أحرز تقدّماً ملحوظاً وأصمّم على الاستمرار. فحتى لو لم أتجاوز ارتفاع ست أو سبع إنشات، قررت التركيز على الحركة في هذه المرحلة. وحالما أتقن ذلك، سأنتقل إلى مسألة الارتقاء وأعالج تلك المشكلة أيضاً. بدا ذلك لي منطقياً. وحتى لو كان عليّ إعادة الكرة مجدداً، فلن أتراجع عن تلك الخطة. كيف كان لي أن أعرف أن الوقت بدأ ينفد وأن الأيام المتبقية كانت أقلّ بكثير ممّا تخيّله أيٌّ منا؟

بعد عودة المعلّم ياهودي وإيسوب، كانت المعنويات عالية في المنزل. كانت نهاية حقبة مضت، وكنا جميعاً نتطلع إلى المستقبل ونترقب الحيوات الجديدة التي تنتظرنا خارج حدود المزرعة.

سوف يكون إيسوب أولَ المغادرين - إلى جامعة ييل في شهر سبتمبر - ولكن إن سارت الأمور تبعاً للخطة المرسومة فسوف نغادر جميعنا مع نهاية السنة. وبما أنني انتقلت إلى المرحلة التالية من التدريب، خمّن المعلمُ أنني سأكون جاهزاً لتقديم العروض العامة في غضون تسعة أشهر. كانت فترة طويلة بالنسبة إلى شخص في عمري، لكنه كان يتحدث عن الأمر بصفته واقعاً ويستخدم كلمات مثل "الحجوزات" و"المسارح" و"شبابيك التذاكر"، مما جعلني في نوبة دائمة من الحماسة. لم أعد وولت رولي الآن، ذلك الصبي الأبيض النكرة الذي لا يجد مكاناً يتبول فيه، بل أصبحت وولت "الصبي المعجزة"، الولد المغامر الذي يتحدى قوانين الجاذبية، ملك الهواء الأوحد. فحالما ننطلق ونُري العالمَ ما يمكنني أن أفعله، سوف أصبح حديثَ الناس والشخصية الأبرز في أميركا كلها.

حققت رحلة إيسوب إلى الشرق نجاحاً باهراً. أخضعوه لامتحانات خاصة، واختبروه في المقابلات، وسبروا أغوار جمجمته الصوفية، وكما قال المعلّم، فقد أصابهم بالذهول. لم ترفضه جامعة واحدة، لكن جامعة ييل كانت تقدم منحة لأربع سنوات - تشمل الطعام والسكن ومرتّباً صغيراً - فوقع الاختيار عليها دون غيرها. بولا... بولا، يا كلاب العالم اتحدوا. وأنا أروي هذه الوقائع الآن، أدرك عظمة ذلك الإنجاز بالنسبة إلى صبي أسود تلقى تعليماً ذاتياً وهز أركان تلك المؤسسات العريقة. لم أكن أعرف شيئاً عن الكتب، ولم يكن لدي أي معيار أقيس به قدرات صديقي مقارنة مع الآخرين، لكنني آمنتُ بعبقريّته وبدت لي فكرة قبول أولئك المتعجرفين

المنتفخين له لكي يدرس في جامعة ييل الشهيرة أكثر شيء طبيعي في هذا العالم.

إن كنت عاجزاً عن إدراك أهمية النصر الذي حققه إيسوب، فقد أذهلتني أكثر تلك الملابس التي عاد بها من رحلته تلك. فقد عاد وهو يرتدي معطفاً من فرو الراكون وقبعة صوفية زرقاء وبيضاء، وقد بدا غريباً في ذلك الزيّ فلم أستطع أن أمسك نفسي عن الضحك لحظة دخوله إلى المنزل. كان المعلم قد فصّل له بزتين بنيتين في بوسطن، وكان يلبسهما في المنزل بعد عودته بدلاً من ثياب المزرعة القديمة، مع قميص أبيض، وياقة سميكة، وربطة عنق، وحذاء عريض موشح بلون الروث. كان منظره مؤثراً وهو يتحرك بذلك الزي الأنيق؛ بدا أكثر انتصاباً، وأكثر هيبة، وأكثر إدراكاً لأهميته. حتى إنه بدأ يحلق ذقنه كل صباح، دون أي داعٍ، وكنت أرافقه في المطبخ وهو يرغي وجهه بالصابون ويغمس موسى الحلاقة في الماء البارد. أحمل له المرآة الصغيرة وهو يحكي لي عما رآه وفعله في المدن الكبيرة الممتدة على طول شاطئ الأطلسي. فالمعلم لم يسجله في الجامعة فقط، بل قدم له رحلة العمر، وكان إيسوب يذكر كل دقيقة قضاها خلالها؛ هضابها، ووديانها، وما بينهما. حكى لي عن ناطحات السحاب، والمتاحف، والعروض المنوعة، والمطاعم، والمكتبات، والأرصفة المكتظة بالناس من كل لونٍ وهيئة. "كانساس عبارة عن وهم"، قال لي في أحد الصباحات وهو يحلق ذقنه، "مجرد استراحة على الطريق المؤدي إلى الواقع".

"لست بحاجة لأن تقول لي ذلك"، قلت له. "هذه الحفرة عبارة

عن قفر، فقد نشفت هذه الولاية من المشروبات قبل أن يسمعوا بقانون حظر الكحول في بقية أنحاء البلاد".

"شربتُ كأساً من البيرة في مدينة نيويورك يا وولت".

"توقعت ذلك".

"في حانة سرية. مؤسسة غير قانونية في شارع مَكداول، في وسط غرينيتش فيليج. أتمنى لو كنْتَ معي هناك".

"لا أطيق طعم البيرة يا إيسوب. ولكن إن قدمت لي كأساً من الويسكي، فسأرمي بأي رجل كان تحت الطاولة".

"لم أقل إن مذاقه كان جيداً. لكنها كانت تجربة مثيرة؛ أن أكون بين أولئك الأشخاص كلّهم وأشرب كأساً من الكحول في مثل ذلك المكان المكتظ بالناس".

"لكنني واثق أنه لم يكن الشيء المثير الوحيد الذي فعلته".

"لا، بالتأكيد. كان مجرد واحد من أشياء كثيرة".

"أنا واثق بأنّ عضوك كان منشغلاً ببعض الأشياء أيضاً. أنا أخمّن فقط، لذلك قل لي إن كنْتُ مخطئاً".

توقّف إيسوب وهو يمسك بموسى الحلاقة في الهواء، وبدا كأنه يفكر في شيء ما، ثم وجّه نظره إلى المرآة مبتسماً. "فلنكتفِ بالقول إنه لقي بعض الرعاية يا أخي الصغير، ولنتركِ الأمر عند ذلك".

"هل يمكنك أن تخبرني باسمها؟ لا أريد أن أكون ملحاحاً، لكنّ فضولي يدفعني لمعرفة تلك الفتاة المحظوظة".

"إن كنت مهتماً بالأمر، اسمها ميبل".

"ميبل. ليس سيئاً في مثل هذه الظروف. يوحي اسمها بأنها لعبة

يكسو عظامها الكثير من اللحم. هل هي كبيرة أم صغيرة؟".

"ليست كبيرة ولا صغيرة. لكنك محق بشأن اللحم. ميبل أكثر امرأة سمنةً وسواداً يمكنك أن تغرز أسنانك فيها. كانت ضخمة جداً إلى درجة أنني لم أعرف أين تبدأ وأين تنتهي. كان الأمر أشبه بمصارعة فرس النهر يا وولت. ولكن حالما تعتاد على تضاريسها فإن الأمور تجري من تلقاء نفسها. تزحف إلى سريرها صبياً، وتخرج منه بعد نصف ساعة وقد أصبحت رجلاً".

بعد أن دخل إيسوب مرحلة الرجولة، قرر أن الوقت قد حان لكي يجلس ويكتب سيرته الذاتية. هذا ما قرر أن يفعله خلال الأشهر التي تسبق مغادرته للمنزل؛ أن يروي قصة حياته حتى تلك اللحظة، منذ ولادته في كوخ ريفي في جورجيا وحتى تجربته الجنسية الأولى في ماخورٍ في هارلم، حيث دفن نفسه بين ذراعَي العاهرة ميبل. بدأت الكلمات تتدفق، لكن العنوان راوغه كثيراً، وأذكر كيف راح يتردد في اختياره باستمرار. فمرة كان سيعطي كتابه عنوان **لقيط زنجي**؛ وفي اليوم التالي قام بتغييره إلى **مغامرات إيسوب: التاريخ الحقيقي والآراء الصريحة لصبي ضائع**؛ وفي اليوم الذي يليه صار العنوان **الطريق إلى ييل: حياة طالب زنجي من الأصول المتواضعة إلى الحاضر**. كانت هذه بعض العناوين التي تردّد بينها، وطوال فترة عمله على ذلك الكتاب كان يجرب عناوين جديدة، يقلب أفكاره ثم يعيد تقليبها من جديد حتى انتهى به الأمر إلى تكديس مجموعة ضخمة من العناوين تضاهي المخطوطة نفسها. كان يقضي ثماني أو عشر ساعات في الكتابة، وأذكر كيف كنت أسترق النظر عبر الباب لأراه محنياً على طاولته

وأتساءل كيف يمكن لشخص أن يجلس هادئاً طوال ذلك الوقت، لا يفعل شيئاً سوى تحريك رأس قلم على سطح ورقة بيضاء. كانت تلك تجربتي الأولى في تأليف الكتب، وحتى عندما كان إيسوب يستدعيني إلى غرفته ليقرأ لي بعض المقاطع المختارة بصوت عالٍ، كنت أجد صعوبة بالغة في تحمّل كل ذلك الصمت والتركيز وهو يقرأ لي القصة تلو الأخرى. كنا جميعاً في الكتاب - المعلّم ياهودي، وماما سيو، وأنا - وقد خمّنتُ، على الرغم من جهلي بتلك الأشياء، أن الكتاب سيتحول إلى رائعة أدبية. أضحكتني بعض المقاطع، وأبكتني مقاطع أخرى، فما الذي يريده المرء من أي كتاب أكثر من أن يشعر بمثل نفحات الفرح والحزن تلك؟ وأنا أكتب كتابي هذا الآن، لا يمر يومٌ لا أفكر فيه في إيسوب وهو جالس في غرفته. كان ذلك قبل خمسة وستين ربيعاً، ولا أزال أراه جالساً إلى طاولته وهو يدوّن ذكريات شبابه بينما يتدفق الضوء عبر النافذة ويرصد جزيئات الغبار المتراقصة حوله. وإن بذلت جهداً أكبر في التركيز، يمكنني أن أسمع أنفاسه وهي تخرج من رئتيه، وأسمع رأس القلم وهو يحكّ الورقة البيضاء.

بينما كان إيسوب يعمل في المنزل، كنا أنا والمعلّم ياهودي نقضي الأيام في الحقول، نعمل لساعات طويلة على العرض الذي سأقدمه. ففي نوبة من التفاؤل العارم بعد عودته، كان قد أعلن لنا على العشاء أننا لن نزرع أي شيء في تلك السنة. "فلتذهب المحاصيل إلى الجحيم"، قال لنا. "لدينا ما يكفي من الطعام حتى نهاية الشتاء، وعندما يأتي الربيع ثانية، سنكون قد غادرنا هذا المكان. فأنا أرى أنه

من الخطيئة أن نزرع أشياء لن نحتاج إليها أبداً". فرح الجميع لهذه السياسة الجديدة، وللمرة الأولى لم يعد مطلع الربيع مليئاً بالعمل الشاق والفلاحة وفترة صعبة تنحني فيها الظهور وتغور الأقدام في الوحل. فقد غيّر التقدم الكبير الذي أحرزته في الحركة الأمور بشكل كامل، وكان المعلّم ياهودي مستعداً الآن لإهمال المزرعة. كان القرار العاقل الوحيد الذي يمكن لرجل أن يتخذه. فقد أدّينا واجباتنا على أكمل وجه، لماذا إذاً نأكل القمامة الآن ونحن على بُعد خطوة من الثراء؟

لكن ذلك لا يعني أننا لم نستنفد طاقتنا كلها هناك – خاصة أنا – لكنني وجدت متعة كبيرة في العمل. وعلى الرغم من الضغوطات الكبيرة التي مارسها المعلّم عليّ، كنْتُ مصمماً على الاستمرار. فبعد أن صار الجو دافئاً، كنا نتابع العمل حتى خلال المساء، نعمل على ضوء المصباح في الحقول البعيدة حتى يطلع القمر في السماء. لم أسمح للتعب أن ينال منّي وكنت أجد سعادة كبيرة وأنا أنتقل من تحدٍّ إلى آخر. وفي أول شهر مايو، كنت قادراً على السير من عشر ياردات إلى اثنتي عشرة ياردة بشكل روتيني. وفي الخامس من الشهر نفسه، تمكنت من السير عشرين ياردة، وبعد أقل من أسبوع كنت قد وصلت إلى أربعين ياردة؛ مئة وعشرين قدماً من الحركة الهوائية، أي نحو عشر دقائق متواصلة من السحر الصرف. عندها طرح المعلم فكرة التدرب على السير على الماء. كانت هناك بركة في الزاوية الشمالية الشرقية من المزرعة انتقلنا إلى العمل فيها منذ ذلك الوقت، حيث نركب العربة الصغيرة كل صباح بعد الإفطار إلى نقطة لا نعود نرى

منها المنزل ثم ننكب على العمل دون أن نتبادل أية كلمة. أزعجني الماء في البداية، وبما أنني لم أكن أجيد السباحة، لم يكن العمل فوق الماء مسألة مسلّية. كانت البركة تمتد لستين قدماً، وكان مستوى الماء في نصف تلك المساحة أعلى من قامتي. سقطت في الماء ستّ عشرة أو عشرين مرة في اليوم الأول، وفي أربع مناسبات منها كان على المعلم أن يقفز في البركة ويخرجني منها. وبعد ذلك، كنا نجلب معنا المناشف والثياب الإضافية، ولكن مع نهاية الأسبوع لم تعد لنا أي حاجة بها. تغلبتُ على خوفي من الماء من خلال التظاهر بعدم وجوده. فقد اكتشفت أنني إن لم أنظر إلى الماء، يمكنني أن أدفع بجسمي على السطح دون أن أتبلّل. كان الأمر بتلك البساطة، وفي أواخر أيام شهر مايو من سنة ١٩٢٧، كنت أمشي على الماء بمهارة تضاهي مهارة يسوع نفسِه.

في أواسط ذلك الوقت، طار ليندبيرغ وحيداً عبر المحيط الأطلسي، فسافر دون توقف من مدينة نيويورك إلى باريس خلال ثلاث وثلاثين ساعة. سمعنا بالأمر من السيدة ويذرسبون التي قدمت من ويتشوتا في أحد الأيام ومقعد سيارتها الخلفي مليء بالصحف. كانت المزرعة معزولة تماماً عن العالم إلى درجة أنّ قصصاً كبيرة كتلك لم تكن تصل إلينا. فلولا رغبتها في قطع كل تلك المسافة، لما سمعنا شيئاً عن تلك الحادثة. طالما استغربتُ ذلك التزامن بين مغامرة ليندبيرغ والجهود التي كنت أبذلها؛ ففي اللحظة التي كان يقطع فيها المحيط، كنت أعبر بركتي الصغيرة في كانساس – نحن الاثنان في الهواء معاً، وكل منا يحقق إنجازه الخاص به في الوقت

نفسه. بدا الأمر كأن السماء قد انفتحت أمام الإنسان، وكنا نحن أول رائدين، كولومبوس وماجلان الطيران البشري. لم أكن أعرف شيئاً عن "النسر الوحيد"، لكنني شعرت برابطة تجمعنا بعد ذلك، كأن هناك رابطة أخوية مظلمة بيننا. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تحمل طائرته اسم "روح سينت لويس". فقد كانت تلك مدينتي أيضاً، مدينة أبطال القرن العشرين، ومن دون أن يعرف ليندبيرغ ذلك فقد سمّى طائرته تكريماً لي.

بقيت السيدة ويذرسبون يومين وليلتين. وبعد أن غادرت، عدت أنا والمعلم إلى العمل، حيث انتقل تركيزنا من الحركة إلى الارتقاء. كنت قد فعلت ما بوسعي في مجال الانتقال الأفقي؛ وقد حان الوقت الآن للتدرب على الانتقال العمودي. كان ليندبيرغ إلهاماً لي، أعترف بذلك، لكنني كنت أرغب في التفوق عليه: أن أفعل بجسدي ما فعله بآلة. سيكون الأمر على مستوى أصغر ربما، لكنه سيكون أكثر روعة وسوف يقزّم شهرتَه بين عشيّة وضحاها. لكنني لم أتمكن من تحقيق أي تقدم على الرغم من محاولاتي المستمرة. فعلى مدى أسبوع ونصف، حاولنا قصارى جهدنا بالقرب من البحيرة من أجل تحقيق الهدف الذي وضعناه، لكنني لم أتمكن من اجتياز الارتفاع السابق. وفي مساء الخامس من يونيو، طلع المعلّم ياهودي باقتراح غيّر مجرى الأمور جذريّاً.

"إنه مجرد تخمين"، قال لي، "لكنني أظن أنّ للعقد الذي تلبسه علاقةً بالأمر. صحيح أنه لا يزن أكثر من أونصة أو اثنتين، لكنها كافية لتؤثر على هذا الشيء الذي تحاول القيام به. فمع كل ميلليمتر

ترتقيه في الهواء، يزداد وزن الشيء بتناسب هندسي مع الارتفاع؛ أي، عندما ترتفع ستة إنشات عن الأرض، فأنت تحمل حمولة زائدة تعادل أربعين رطلاً. وهذا يساوي نصف وزنك الإجمالي. فإن كانت حساباتي صحيحة، لا عجب أنك كنت تجد صعوبة بالغة في محاولاتك السابقة".

"إنني ألبس ذلك الشيء منذ عيد الميلاد"، قلت له. "إنه تميمة حظي، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً من دونه".

"بل تستطيع يا وولت. في المرة الأولى التي ارتفعت فيها عن الأرض كان معلقاً حول رقبتك، هل تذكر ذلك؟ لا أقول إنك لست متعلقاً به عاطفياً، لكننا نتعامل مع مسائل روحية عميقة هنا، وربما لا يمكنك أن تفعل ما عليك أن تفعله إن كنت كاملاً، وأن عليك أن تتخلى عن شيء منك قبل أن تبلغ أقصى حدود الموهبة التي تمتلكها".

"هذا مجرد كلام مراوغ. فأنا أرتدي الثياب، أليس كذلك؟ وأرتدي حذاءً وجوارب، أليس كذلك؟ فإن كان العقد يُعيقني، فهذا يعني أن تلك الأشياء تعيقني أيضاً. ولن أقدم عرضي أمام الناس من دون ثياب لأي سبب كان".

"لا ضير من المحاولة. ليس هناك شيء تخسره يا وولت، لكنك ستربح الكثير. فإن كنت مخطئاً، ينتهي الأمر هنا. وإن لم أكن مخطئاً، سوف تكون خسارتنا كبيرة إن لم نجرب على الأقل".

اقتنعت بكلامه، وبكثير من التردد والشك خلعت تميمة الحظ ووضعتها في يد المعلم. "حسناً"، قلت له، "سنجرب. ولكن إن لم يصح ما قلتَه، فلن نتكلم عن هذا الموضوع مرة أخرى".

خلال الساعة التالية، تمكنت من تحطيم رقمي السابق وارتقيت إلى نحو اثني عشر أو أربعة عشر إنشاً. ومع حلول المساء، كنت قد ارتفعت أكثر من قدمين ونصف عن الأرض، مما أكد صحة ما قاله المعلّم ياهودي الذي شكل رؤية تنبؤية عن أسباب ونتائج فنون الارتقاء. كانت فرحتي عظيمة – أن أشعر نفسي وأنا أحوم على تلك المسافة من الأرض، وأكون حرفياً على وشك الطيران – ولكن كان من الصعب عليّ بعد تجاوز قدمين أن أحافظ على وضعيتي العمودية دون أن أترنّح أو أشعر بالدوخة. كان الأمر جديداً بالنسبة إليّ، ولم أتمكن من المحافظة على توازني الطبيعي. شعرت أنني طويل، كأنني مكوّنٌ من قطع مختلفة ولست مصنوعاً من قطعة واحدة، كما كان رأسي وكتفاي يتحركان في اتجاه، وساقاي وكاحلاي يتحركان في اتجاه آخر. فلكي أتجنب الوقوع، وجدت نفسي أنتقل بسلاسة إلى وضعية الانبطاح عندما أكون في الأعلى، حيث أدركت بشكل غريزي أن تلك الوضعية تشعرني بالأمان والراحة، عندما يكون جسدي كله ممدداً فوق الأرض عوضاً عن أسفل قدميّ فقط. كنت لا أزال مرتبكاً وخائفاً ولم أفكر في التقدم إلى الأمام من تلك الوضعية، ولكن في فترة لاحقة من تلك الليلة، وقبل أن ننتهي من التدريبات ونعود إلى المنزل للنوم، ثنيتُ رأسي على صدري وتمكنت من الشقلبة في الهواء في دورة كاملة دون أن ألامس الأرض.

عدنا، المعلّم وأنا، إلى المنزل في تلك الليلة ونحن في حالة من الانتشاء. بدا لنا كل شيء ممكناً الآن: التغلب على الارتقاء والحركة، والارتفاع إلى درجة الطيران الفعلي الذي يشكل حلمَ الأحلام.

كانت تلك أعظم لحظاتنا معاً، على ما أعتقد، اللحظة التي يتجسد فيها مستقبلك كله. ولكن في السادس من يونيو، قبل ليلة واحدة من الوصول إلى تلك الذروة، توقّفت عن التدريب بشكل مفاجئ وتام. فقد حلّ ذلك الشيء الذي كان المعلّم ياهودي يخشاه منذ زمن طويل، وعندما جاء، أتى بقدر كبير من العنف وولّد اضطراباً كبيراً في قلبينا، لم يعدْ بعدَه أيٌّ منّا كما كان من قبل.

كنت قد عملت بجد طوال النهار، وكما كانت عادتنا خلال ذلك الربيع الإعجازي قررنا البقاء حتى الليل. في الساعة السابعة والنصف، تعشينا بعض السندويشات التي أعدتها لنا ماما سيو في ذلك الصباح ثم استأنفنا عملنا مع حلول الليل في الحقول المحيطة بنا. قرابة الساعة العاشرة سمعنا أصوات أحصنة. كان صوتاً خافتاً في البداية، نوعاً من الوشوشة في الأرض جعلتني أفكر في الرعد البعيد، وكأن عاصفة برقٍ تتأهب في مكان ما من الولاية المجاورة. كنت قد انتهيت لتوي من أداء شقلبة مزدوجة على حافة البركة وأنتظر تعليقات المعلم، ولكن عوضاً عن التكلم بصوته الاعتيادي الهادئ، أمسك بيدي بحركة مفاجئة تنمّ عن الذعر. "استمع"، قال لي. ثم قالها ثانية: "استمع لذلك الصوت. إنهم قادمون. الأوغاد قادمون". شنّفتُ أذنيّ؛ كان الصوت يتعالى أكثر فأكثر. مرّت ثانيتان، ثم أدركت أنه صوت خيول تنهب بحوافرها الأرضَ متجهة نحونا.

"لا تتحرك"، قال المعلم. "ابقَ حيث أنت ولا تحرك ساكناً إلى حين عودتي".

ثم، ومن دون أي تفسير، أخذ يركض نحو المنزل وهو يشق

الحقولَ كعدّاء سريع. تجاهلتُ تعليماته ولحقت به بأقصى سرعتي. كنا على بعد ربع ميلٍ من المنزل، ولكن قبل أن نقطع مئة ياردة بدت لنا ألسنة اللهب وهي تتوهج حمراء وصفراء وتتراقص على خلفية السماء الداكنة. سمعنا صيحات وأغانيَ حربية، ثم أصوات طلقات نارية، وبعدها سمعنا أصوات صرخات بشرية واضحة. استمر المعلم في الركض، مباعداً المسافة بيننا، ولكن حالما وصل إلى أشجار السنديان المحاذية للحظيرة توقف. ركضت نحو أشجار السنديان مندفعاً نحو المنزل، لكنّ المعلم لمحني بطرف عينه وأسقطني على الأرض قبل أن أتمكن من المتابعة. "لقد فات الأوان"، قال لي. "إذا ذهبنا إلى هناك الآن، فسوف نتعرض للقتل. إنهم اثنا عشر رجلاً ونحن اثنان فقط، وهم مسلحون بالبنادق والمسدسات. صلِّ كيلا يعثروا علينا يا وولت، ولكن لا يمكننا أن نقدم أي عونٍ للآخرين".

وقفنا هناك خلف الأشجار عاجزين عن فعل أي شيء، نراقب عصابة "كو كلوكس كلان" وهي تقوم بعملها. كانت مجموعة من الرجال تمتطي الأحصنة وتدور حول الساحة؛ مجموعة من القتلة الذين يرتدون الأغطية البيضاء على رؤوسهم، وكنا عاجزين عن إيقافهم. جرّوا إيسوب وماما سيو من المنزل المحترق، ولفوا الحبال حول رقبتيهما، ثم علقوهما على شجرة الدردار المنتصبة على جانب الطريق، كلٌّ منهما على غصن مختلف. كان إيسوب يصرخ ويئن، أما ماما سيو فكانت صامتة تماماً، وخلال دقائق قليلة كان الاثنان قد ماتا. قُتل صديقاي الحميمان أمام عينيّ، ولم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً سوى المراقبة وخنق الدموع الطافحة في

عينيّ، بينما كان المعلّم ياهودي يضغط براحة يده على فمي. بعد الانتهاء من عملية القتل، قام رجلان بغرز صليب خشبي في الأرض، ثم صبّا عليه البنزين وأضرما النار فيه. احترق الصليب كما المنزل، ثم تعالت أصوات الرجال وأخذوا يطلقون النار في الهواء احتفالاً، قبل أن يعتلوا ظهور خيولهم وينطلقوا عائدين صوب سيبولا. كان المنزل قد تحول إلى كتلة مضيئة من اللهب، كرةٍ من الحرارة والخشب المزمجر، ومع رحيل آخر رجل من رجال العصابة كان السقف ينهار متساقطاً على الأرض وسط سيلٍ من الشرارات والشهب. شعرتُ بأنني رأيت الشمس تنفجر. شعرتُ بأنني شهدت لتوّي نهاية العالم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الثاني

دفنّاهما في المزرعة في تلك الليلة، حيث أنزلنا جسديهما في قبرين لا يحملان أية علامة بالقرب من الحظيرة. كان يجب أن نتلو بعض الصلوات، لكننا كنا نبكي بحرقة ومرارة، واكتفينا بردم الحفرتين بالتراب بصمت والعرق المالح يسيل على خدودنا. ثم، ومن دون العودة إلى المنزل المحترق ودون أن نكلّف نفسينا عناء تفقد أغراضنا التي نجت من الحريق، ربطنا المهرة إلى العربة وانطلقنا في الظلام تاركين سيبولا خلفنا إلى الأبد.

قضينا الليلة كلها ونصف الصباح قبل الوصول إلى منزل السيدة ويذرسبون في ويتشوتا، ولبقية ذلك الصيف كان المعلم غارقاً في حزن شديد اعتقدتُ أنه سيودي به. كان نادراً ما يخرج من سريره، ونادراً ما يأكل، ونادراً ما يتكلّم. فباستثناء الدموع التي تنهمر من عينيه كل ثلاث أو أربع ساعات، لم يكن بمقدورك أن تعرف إن كنت تنظر إلى رجل أو إلى جلمود صخر. انتهى الرجل الكبير، أكله الحزن والشعور بالذنب. ومع أنني كنت أتمنى من كل قلبي أن يخرج من حالته البائسة تلك، إلا أنه يزداد سوءاً مع مرور الأيام والأسابيع. "لقد توقّعت ذلك"، كان يتمتم لنفسه أحياناً. "لقد توقعت ذلك، ولم أفعل شيئاً للحيلولة دونه. أنا المسؤول. أنا المسؤول عن موتهما. لقد قتلتهما بيديّ هاتين، والرجل الذي يقتل لا يستحقّ الرّحمة. لا يستحقّ أن يعيش".

هالَني أن أراه في تلك الحالة، بائساً ومحطماً، ومن ثم أخافني ما آل إليه بقدر ما أخافني ما حلّ بإيسوب وماما سيو، وربما أكثر. لا أريد أن أبدو بارد القلب حيال ما حدث كله، لكن الحياة للأحياء، وعلى الرغم من الصدمة التي ولّدها قتلُ صديقيّ، كنت لا أزال صبياً مليئاً بالحيوية والحياة، ولم أكن ميّالاً إلى النحيب والنواح لوقت طويل. بكيت، وشتمت القدر، وضربت رأسي بالأرض، ولكن بعد بضعة أيام كنت مستعداً لأن أضع كل ذلك خلفي والاهتمام بأشياء أخرى. لا أظن أن هذا يعطي صورة جيدة عن شخصي، ولكن لا فائدة من التظاهر بأنني شعرت بأشياء لم أشعر بها في حقيقة الأمر. افتقدتُ إيسوب وماما سيو واشتقت لصحبتهما كثيراً؛ لكنهما رحلا، ولم يكن للتوسّل أن يعيدهما ثانية. فبالنسبة إليّ، كان الوقت قد حان لنتحرّك ونلتفت إلى أمورنا. كان رأسي لا يزال مليئاً بالأحلام والتوق للشروع في عملي الجديد، وكانت شهيتي مفتوحة للخوض في أتون المغامرة الكبيرة وإذهال العالم بعظمتي.

لذلك يمكنكم أن تتخيلوا خيبتي وأنا أرى يونيو يتحول إلى يوليو والمعلّم ياهودي لا يزال أسير حزنه وكربه؛ تخيلوا إحباطي الشديد مع تحول يوليو إلى أغسطس دون أن تبدو عليه أي علامة تدل على خروجه من رحم المأساة. لم يعطّل ذلك خططي فقط، بل زرع فيّ شعوراً بالإحباط والخذلان. تبدّت لي نقطة الضعف الكبيرة في شخصية المعلم، وقد استهجنتُ فيه تلك الهشاشة الداخلية ورفضه لمواجهة القذارة التي تحملها الحياة. كنت قد اعتمدت عليه لسنوات طويلة، واستمدَدْتُ قوّتي من قوّته، والآن كان يتصرف مثل

أي متفائل بائس، واحد من أولئك الأشخاص الذين يهللون للأشياء الجيدة ويعجزون عن تقبّل الأشياء السيئة. شعرت بالغثيان لرؤيته يتهاوى بتلك الطريقة، ومع تطاول حزنه بدأت أفقد شيئاً من إيماني به. فلولا السيدة ويذرسبون، لتركته ربّما ورحلت. "معلّمك رجل كبير"، قالت لي في أحد الصباحات، "والرجال الكبار يملكون مشاعرَ كبيرة. فَهُم يشعرون أكثر من الآخرين؛ يتملّكهم فرحٌ أكبر، وغضبٌ أكبر، وحزنٌ أكبر. إنه يتألّم الآن، وسوف يمتد حزنه هذا أكثر من الأشخاص العاديين. لا تخف يا وولت. سوف يخرج من هذه الحالة في نهاية المطاف. عليك أن تتحلّى بالصبر فقط".

هذا ما قالته، ولكن في أعماق نفسي لم أكن واثقاً أنها صدّقت كلماتها تلك. ومع مرور الوقت، شعرت أنها بدأت تشعر بالاستياء منه أيضاً، وقد سررتُ لاشتراكنا في الرأي حول تلك المسألة المهمة. كانت امرأة قوية، السيدة ويذرسبون، وبعد إقامتي في منزلها وقضاء بعض الوقت معها، بدأت أكتشف، على خلاف ما بدا لي سابقاً، أننا نشترك في الكثير من الأشياء. كانت في أبهى حالاتها عندما زارت المزرعة؛ تتصرف بغاية التهذيب واللباقة كيلا تزعج إيسوب وماما سو، أما الآن وقد أصبحت في بيتها فقد أخذت تتبدّى على طبيعتها الحقيقية. خلال الأسبوعين الأوّلين، أذهلتني طبيعتها تلك بكل بمعظم جوانبها، في انطوائها على عادات سيئة وانغماسها في أهوائها ونزواتها الخاصة. لا أتحدث هنا فقط عن ولعها بالشراب (ليس أقل من ستّ أو سبع كؤوس من الجن والتونيك يومياً)، ولا عن حبّها للسجائر (تنفخ أنواعاً منقرضة مثل Picayunes و Sweet Caporals

من الصباح حتى المساء)، وإنما عن نوع من الانحلال وكأن خلف هيئتها الخارجية المحترمة تقبع روحٌ منفلتة فاجرة تصارع للخروج والانعتاق. كان ذلك يتجلّى في لغتها؛ فحالما تأخذ كأسين أو ثلاثاً من مشروبها المفضل، كانت تميل إلى استخدام الألفاظ الأكثر سوقية التي سمعتُها تخرج من فم امرأة، وكانت العبارات البذيئة تنطلق من فمها رشاً ودراكاً. فبعد تلك الحياة المنضبطة التي عشتها في المزرعة، شعرت بالارتياح للتعاطي مع شخص لا يرزح تحت عبء المبادئ الأخلاقية الصارمة ويتخذ من المتعة والمال هدفاً أساسياً لحياته. وهكذا أصبحنا صديقَين وتركنا المعلّم ياهودي يتلوّى في حزنه وألمه خلال أيام الصيف الحارّة والمملّة.

كنت أعرف أنها مولعة بي، لكنني لا أريد أن أبالغ في توصيف عمق مشاعرها تلك، ليس في تلك المرحلة المبكرة على الأقل. كان للسيدة ويذرسبون هدفٌ محدد يدفعها إلى إسعادي، ومع أنني أحب أن أكيل بعض الإطراء على نفسي وأزعم أن مردّ ذلك إلى أنها وجدت فيّ رفيقاً مثالياً لها يتمتع بالذكاء واللامبالاة، إلا أنها كانت تفكر – في حقيقة الأمر – بمستقبل حسابها المصرفي. فما الذي يدفع امرأة من نوعها وجمالها للاهتمام بولد شقيّ ومزعج مثلي؟ كانت تنظر إليّ بصفتي فرصة تجارية، كعلامة دولار على هيئة صبي، وكانت تعرف أنني إن تلقيتُ العناية والاهتمام اللازمين فإن مهنتي المستقبلية ستجعل منها المرأة الأكثر ثراءً في البلاد كلها. لا أقول إننا لم نقضِ معاً بعض الأوقات اللاهية، لكن ذلك كان دوماً يصبّ في مصالحها الخاصة، وكانت تتودد إليّ في محاولة منها لوضعي تحت

جناحها والتأكد من أنني لن أنسلّ هارباً قبل أن تجني من موهبتي أكبرَ قدر ممكن من الأرباح.

فليكن. أنا لا ألومها على تفكيرها بتلك الطريقة، ولو كنت في مكانها لفعلتُ ربّما الشيء نفسه. ومع ذلك، لا أنكر أن الانطباع الباهت الذي خلّفه سحري فيها كان يقض مضجعي في بعض الأحيان. فخلال تلك الأسابيع والأشهر الكئيبة، كنت أتدرب لساعة أو ساعتين يومياً. وكيلا أخيف الأشخاص الذين يعبرون بسياراتهم بالقرب من المنزل، رحت أتدرب في داخل المنزل وأعمل في البهو العلوي بعد أن أرخي الستائر كلها. لكن السيدة ويذرسبون لم تكلف نفسها عناءَ متابعة تلك الجلسات، وفي المناسبات القليلة التي دخلت فيها إلى الغرفة كانت تراقب مشهد ارتقائي دون أن تهتز فيها شعرة واحدة؛ كانت تدرسني بموضوعية القصّاب الذي يتفحص قطعة من اللحم. وبغض النظر عن الحركات الاستثنائية التي كنت أؤديها، كانت تعتبرها جزءاً من طبيعة الأشياء ولا تنطوي على أي نوع من الغرابة، مثلها مثل تزايد القمر أو أزيز الريح. ربما كانت ثملة جداً وغير قادرة على التمييز بين المعجزة والحدث اليومي، أو ربما كانت غرابة المشهد تصيبها بالقشعريرة؛ ولكن عندما يتعلق الأمر بالتسلية، كانت تفضّل قيادة السيارة في عاصفة مطرية لمشاهدة فيلم رديء على مشاهدتي وأنا أعوم فوق تلك الكراسي والطاولات اللعينة المتناثرة في البهو. لم يكن العرض الذي أقدمه أكثر من وسيلة للوصول إلى هدف معين في رأسها. وما دام الهدف مضموناً، فهي لن تُبدي أيّ اهتمام بالوسيلة.

مع ذلك، كانت تعاملني معاملة جيدة، ولا أريد أن أنكر صنيعها ذاك. فبغض النظر عن دوافعها، لم تكن توفر وسيلة للتسلية، وكانت تنفق عليّ المال دائماً. فبعد يومين من وصولي، أخذتني للتسوق في مركز مدينة ويتشوتا واشترت لي مجموعة جديدة من الثياب. وبعد ذلك كان هناك بهو الآيس كريم، ومخزن الحلويات، ومركز الألعاب. كانت دوماً تسبقني بخطوة، وقبل أن أدرك حاجتي إلى شيء ما كانت تقدمه لي، تضعه في يديّ بغمزة من عينها وتربت بشكل خفيف على رأسي. وبعد كل تلك الأوقات الصعبة التي مررت بها، لا يمكنني القول إنني رفضتُ الارتماء في حضن الرفاهية. كنت أنام في سرير ليّن ومريح بأغطية مطرزة ووسائد محشوة بالريش، وأتناول الوجبات العملاقة التي تعدّها لنا الخادمة السوداء نيللي بوغز، ولم أكن أرتدي ثيابي الداخلية نفسها ليومين متتاليين. في معظم المساءات كنا نهرب من الجو الحار ونتجول في الريف في سيارتها الخضراء الفاخرة، حيث ننطلق في الشوارع الخالية ونترك الهواء يتدفق عبر الشبابيك المفتوحة من جميع الجوانب. كانت السيدة ويذرسبون تعشق السرعة، ولم أرَها قطّ في تلك السعادة الغامرة عندما تضغط بقدمها على دواسة البنزين ثم تضحك وتأخذ جرعة من بطحتها الفضية وشعرها الأحمر يتطاير مثل أرجل يرقانة مقلوبة على ظهرها. لم تكن المرأة تخاف شيئاً، ولم يكن لديها أي إدراك بأن سيارة تسير بسرعة سبعين أو ثمانين ميلاً في الساعة يمكن أن تقتل أحداً. كنت أبذل قصارى جهدي لأحافظ على هدوئي عندما تقود بتلك السرعة الجنونية، ولكن حالما تصل السرعة إلى خمسة وستين أو سبعين ميلاً

في الساعة كنت أفقد السيطرة على أعصابي. كان الذعر المتنامي في داخلي يؤثر على معدتي وسرعان ما كنت أرخي الفصَّ تلو الآخر؛ سلسلة من قنابل الرائحة الكريهة ترافقها موسيقا متقطعة تخرج من مؤخرتي. لست بحاجة لأن أضيف أنني كنت أموت من الخجل، لأن السيدة ويذرسبون لم تكن شخصاً يفوّت أشياء كتلك من دون إلقاء بعض التعليقات. ففي المرة الأولى التي حصل فيها ذلك، انفجرَت ضاحكة بطريقة هستيرية اعتقدت معها أن رأسها سيطير عن كتفيها. ثم، ودون أي إنذار، ضغطت بقدمها على الكوابح وأوقفت السيارة بطريقة مفاجئة ومخيفة.

"بضعة إبداعات أخرى كهذه"، قالت لي، "وسوف يكون علينا أن نرتدي أقنعة الغاز".

"لا أشمّ شيئاً"، قلت لها، مقدماً الإجابة الوحيدة التي بدت ممكنة.

تنشقت السيدة ويذرسبون بصوت مرتفع، ثم لوت أنفها وكشرت وجهها. "شمّ مرة ثانية يا صديقي. كان قدر الفاصولياء يرافقنا طوال الوقت ويتنفس الصعداء من مؤخرتك".

"بعض الغازات فقط"، قلت بهدف الانتقال إلى تكتيك جديد. "وإن لم أكن مخطئاً، فإن السيارة لن تتحرك إن لم تملئيها بالغاز".

"حسب الأوكتان يا عزيزي. فنوع التجربة الكيميائية التي نناقشها هنا كفيلٌ بتفجيرنا معاً".

"على الأقل، هذه طريقة أفضل للموت من الاصطدام بشجرة".

"لا تقلق يا عزيزي"، قالت وقد لانت نبرتُها بشكل مفاجئ.

مدت يدها ولمست رأسي وأخذت تمرر أصابعها بلطف في شعري. "أنا سائقة حرّيفة. مهما كانت السرعة التي نسير بها، فأنت في أمان مع الليدي ماريون".

"هذا كلام يبعث على الطمأنينة"، قلت لها وأنا أستمتع بيدها وهي تضغط على جلدة رأسي، "لكنني سأشعر بأمان أكبر إن قمت بتدوين ذلك".

أطلقت ضحكة قصيرة ثم ابتسمت. "إليك نصيحة للمستقبل"، قالت لي. "عندما تعتقد أنني أقود بسرعة زائدة، أغلقْ عينيك واصرخ. فكلما ارتفع صراخك، زادت متعتنا معاً".

وهذا ما فعلتُه، أو على الأقل ما حاولت أن أفعله. فخلال النزهات التالية كنت أغلق عينيّ عند وصول عداد السرعة إلى خمسة وسبعين ميلاً، ولكن في بعض الأحيان كانت الفصوص تتسلل خارجة عند سرعة سبعين، وفي إحدى المرات عند سرعة خمسة وستين (عندما كدنا نصطدم بشاحنة قادمة وانحرفنا عنها في الثانية الأخيرة). لم تساهم تلك الحوادث في تعزيز احترامي لنفسي، لكن أسوأ ما في الأمر هو تلك الصدمة التي حدثت في أوائل أغسطس عندما انطلقت مؤخرتي على مداها وخريتُ في سروالي. كان يوماً حاراً جداً. لم يسقط المطر على مدى أسبوعين، وكانت كل ورقة على كل شجرة في الولاية المنبسطة كلها مغطاة بالغبار. كانت السيدة ويذرسبون مخمورة أكثر من المعتاد، على ما أظن، ومع خروجنا من حدود المدينة كانت قد أطلقت العنان لنفسها وكأنها تقول فليذهب العالم كله إلى الجحيم. تجاوزت الخمسين ميلاً بعد المنعطف الأول، ثم

انطلقت بأقصى سرعتها. تطاير الغبار في كل أرجاء المكان. كان ينهمر على زجاج السيارة الأمامي، ويرقص داخل ملابسنا، ويضرب أسناننا، وكانت تضحك وتضغط على دواسة البنزين كأنها تريد أن تحطم الرقم القياسي في السرعة. أغلقت عينيّ وبدأت بالصراخ ثم أمسكت بتابلو السيارة وهي تزمجر على طول الطريق السريع الجاف. وبعد عشرين أو ثلاثين ثانيةً من الرعب المتصاعد، أدركت أن ساعتي قد حانت. سوف أموت على ذلك الطريق الغبي، وهذه هي لحظاتي الأخيرة على هذه الأرض. عندها انزلقت الخرية من مؤخرتي مثل سيجار رخوٍ وزلق واصطدمت بكلسوني بكل ما فيها من سخونة ورطوبة، ثم أخذت تنزلق إلى أسفل ساقي. وعندما أدركت ما حدث، لم أجد شيئاً أفعله سوى البكاء.

لكن الرحلة استمرت، وحين توقفت السيارة بعد عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة، كنت مبللاً تماماً؛ بالعرق، والخراء، والدموع. كان كياني كلُّه غارقاً في السوائل والبؤس.

"حسناً يا صديقي"، قالت السيدة ويذرسبون وهي تشعل سيجارة احتفاءً بالنصر. "لقد فعلناها. تجاوزنا علامة المئة. أراهنك أنني أول امرأة في هذه الولاية الخرائية المحافظة تفعل ذلك. ما رأيك؟ لا بأس بهذا الإنجاز بالنسبة إلى عجوز مثلي، أليس كذلك؟".

"أنت لست عجوزاً يا سيدتي"، قلت لها.

"آه، هذا لطيف. أقدّر لك هذه. أنت تجيد التعامل مع النساء يا صغيري. وفي غضون بضع سنوات فقط، سوف تأتي عليهنّ بهذا النوع من الكلام اللطيف".

رغبت في متابعة الحديث معها بتلك الطريقة، بهدوء ورصانة وكأن شيئاً لم يحدث، ولكن بعد أن توقفت السيارة أخذت رائحة سروالي تفوح وأدركت أن سرّي سينفضح بعد بضع ثوانٍ فقط. شعرت بالخجل والإحراج الشديد. وقبل أن أتمكن من قول كلمة أخرى كنت أضع وجهي بين يدي وأبكي بحرقة وأنا جالس بجانبها.

"يا إلهي يا وولت"، سمعتها تقول. "يا إله العرش. لقد فعلتها هذه المرة، أليس كذلك؟".

"أنا آسف"، قلت لها دون أن أجرؤ على النظر إليها. "كان الأمر خارج إرادتي".

"ربما بسبب كل تلك الحلوى التي أطعمك إياها. فمعدتك ليست معتادة على ذلك".

"ربما. أو ربما لأنني جبان".

"لا تكن أحمق. تعرضتَ لحادث بسيط، وهذا كل ما في الأمر. وهذا يحدث لنا كلنا".

"بالتأكيد. يحدث للمرء عندما يكون طفلاً صغيراً. لم أشعر بهذا القدر من الإحراج طوال حياتي كلها".

"انسَ الموضوع. هذا ليس وقت اللطم والنواح. علينا أن ننظف مؤخرتك قبل أن يتسرب شيء إلى فرش السيارة. هل تستمع إلى ما أقوله يا وولت؟ لا تهمّني أمعاؤك اللعينة، فأنا لا أريد أن تتسخ السيارة. هناك، خلفَ الأشجار، بركةٌ صغيرة، وسوف آخذك الآن. سنمسح الخردل والتوابل، وبعدها تعود جديداً كما كنت".

لم يكن لدي أي خيار سوى الذهاب معها. كان من الصعب عليّ

أن أنهض وأمشي بسبب كل تلك الأشياء العالقة داخل سروالي، وبما أنني لم أكن قد توقفت عن البكاء والنشيج، كان صدري يعلو ويهبط ويصدر أصواتاً مخنوقة غريبة. مشت السيدة ويذرسبون أمامي نحو البركة. كانت على بعد مئة قدم من الطريق، وكانت معزولة عن محيطها بسياج من الشجار والجنبات بحيث تبدو أشبه بواحة صغيرة في وسط البريّة. وعندما وصلنا إلى حافة الماء، طلبت مني أن أخلع ثيابي وأخذت تحثني بنبرة عملية على الإسراع. لم أشأ أن أفعل ذلك، على الأقل ليس وهي تنظر إليّ، ولكن حالما أدركت أنها لن تدير ظهرها، ثبّتُّ عينيّ على الأرض وفعلت ما طلبته مني. أولاً، نزعت حذائي وجواربي، ثم فكت حزامي وأزرار السروال وسحبته إلى الأسفل. سقط السروال والكلسون على كاحليّ دفعة واحدة، ووجدت نفسي واقفاً وعضوي يتدلى في الهواء أمام امرأة ناضجة، فيما ساقاي البيضاوان ملطّختان بمادة طرية بنّية ومؤخرتي تفوح مثل قمامة البارحة. كانت واحدة من اللحظات البائسة في حياتي، لكن السيدة ويذرسبون لم تصدر أي صوت (وهو أمرٌ لم أنسَه قطّ)؛ لا صوت يعبّر عن القرف أو الاستياء أو التأفف. وبكل حنان الأم التي تنظف وليدَها الرضيع: غمست يديها في الماء وأخذت تنظفني، تشطفني وتفرك جلدي لعاري إلى أن اختفت جميع آثار ذلك الخزي الذي لحق بي.

"لقد انتهينا"، قالت لي وهي تنشّفني بمحرمة أخرجتها من حقيبتها المزخرفة بالخرز الأحمر. "بعيد عن العين، بعيد عن الذهن".

"حسناً، ولكن ماذا نفعل بالثياب الداخلية الوسخة؟".

"نتركها للطيور، هذا ما سنفعله بها، وهذا ما سنفعله بالسروال أيضاً".

"وتتوقعين مني أن أعود إلى المنزل بهذه الهيئة؟ عارياً من وسطي إلى أسفل قدمي؟".

"لَم لا؟ قميصك يصل إلى ركبتيك، ولا يوجد الكثير لتخبّئه على كل حال. لا يوجد سوى بعض الجواهر الصغيرة جداً يا عزيزي".

"لا تتهكّمي على أعضائي الخاصة يا سيدتي. ربما تكون تافهة بالنسبة إليك، ومع ذلك فأنا فخور بها".

"طبعاً أنتَ فخورٌ بها... لن نذهب لتناول الآيس كريم اليوم وسوف نعود مباشرة إلى البيت. وإن كان ذلك يريحك، سوف أهرّبك عبر الباب الخلفي. ما رأيك؟ لن يعرف بذلك أحد غيري، وأعدك بأنني لن أخبر أحداً بما حدث".

"حتّى المعلّم؟".

"خصوصاً المعلّم. فما حدث هنا اليوم سوف يبقى بيني وبينك فقط".

يمكن لهذه المرأة أن تكون لطيفة في بعض الأحيان، وكانت شخصاً يمكنك الاعتماد عليه عندما يتطلب الأمر ذلك. ولكن في أحيان أخرى، لم أكن قادراً على فهمها. ففي اللحظة التي تعتقد أنها صديقك الحميم، تنقلب وتفعل شيئاً لا يخطر في البال – كأن تغيظك، مثلاً، أو تتعالى عليك، أو تلتزم الصمت حيالك – مما يحيل ذلك العالم الصغير الجميل الذي كنت تتنعّم فيه إلى نوع من الجحيم. كانت هناك أشياء كثيرة لم أتمكن من فهمها، أشياء تخص

عالم البالغين وتبدو غامضة بالنسبة إليّ، لكنني بدأت أفهم شيئاً فشيئاً أنها تتوق إلى المعلّم ياهودي. كانت تلقي بنفسها في غياهب الكآبة وهي تنتظر خروجه من حالته تلك، ولو أن الوضع طال أكثر من ذلك، فأنا على يقين أنها كانت سترمي بنفسها إلى التّهلكة.

جاءت نقطة التحول بعد ليلتين من حادثة الخراء. كنا جالسين في الحديقة الخلفية نراقب اليراعات وهي تنطلق من الجنبات ثم تعود إليها، ونستمع إلى الجداجد تصدح بأغانيها الحادة. كانت تلك بمثابة متعة كبيرة في تلك الأيام، حتى في ما يسمى "العشرينيات الصاخبة". لا أحب أن أسخر من الأساطير الشعبية، ولكن لم يكن هناك أي شيء صاخب في ويتشوتا، وبعد شهرين من التجوال في تلك المنطقة الناعسة بحثاً عن الصخب واللهو، كنا قد استهلكنا كل الموارد المتوفرة. شاهدنا جميع الأفلام، وتناولنا جميع أصناف الآيس كريم، وجربنا جميع الألعاب الموجودة، وركبنا جميع المراجيح الدوارة. لم يعد هناك شيء يستحق الخروج من المنزل، ولذلك بقينا في البيت على مدى ليالٍ متتالية وتركنا الكسل ينتشر في عظامنا كمرض قاتل. كنت أشرب كاساً من الليموناضة الفاترة في تلك الليلة، على ما أذكر، وكانت السيدة ويذرسبون تشرب الخمر كعادتها، ولم يكن أيٌّ منا قد نبس ببنت شفة طوال أربعين دقيقة.

"كنت أعتقد"، قالت أخيراً، وكأنها تتابع سلسلة سرية من الأفكار، "كنت أعتقد أنه أقوى فحل خرج من ذلك الإصطبل اللعين".

أخذَت رشفة من شرابي ونظرَت إلى النجوم اللامعة في السماء المظلمة ثم تثاءَبت.

"عمن تتحدثين؟" سألتها، دون أن أخفي سأمي.

"عمّن تعتقد، أيها الغبي؟" كانت تغمغم بكلمات لا تكاد تكون مفهومة. ولو أنني لم أعرفها جيداً لظننت أنها شخص معتوه لا يملك ذرة من الإدراك.

"آه"، قلت وقد أدركت فجأة طبيعة الحديث القادم.

"نعم، ذاك، يا سيد عصفور، هذا ما أتحدث عنه".

"إنّه في حالة بائسة يا سيدتي، تعرفين ذلك، وكل ما يمكننا أن نفعله هو أن نأمل بأن يستعيد روحه القديمة قبل فوات الأوان".

"أنا لا أتحدث عن روحه أيها الغبي، بل عن قضيبه. لا يزال يملك قضيباً، أليس كذلك؟".

"أعتقد ذلك. مع أنني لا أسأله عنه في العادة".

"على الرجل أن يؤدي واجبه. لا يمكنه أن يهجر امرأة طوال شهرين متتاليين وينفذ بذلك. ما هكذا تسير الأمور. العشعوش بحاجة إلى الحب. يحتاج إلى المداعبة والغذاء، مثل أي حيوان آخر".

حتى في العتمة وبعيداً عن الأعين، شعرت بوجهي يحمرّ خجلاً.

"هل تريدين حقاً إخباري بتلك الأشياء، سيدة ويذرسبون؟".

"ليس هناك أحد آخر يا عزيزي. كما أنك كبير بما فيه الكفاية لتعرف هذه الأشياء. فأنت لا تريد أن تعيش حياتك مثل أولئك الأغبياء، أليس كذلك؟".

"طالما فكرتُ أن أترك الطبيعة تهتم بنفسها".

"هذا هو خطؤك. على الرجل أن يعتني بخابية العسل. عليه أن يتأكد من إغلاق الفتحة كيلا ينفد العسل. هل تسمع ما أقوله لك؟".

"أعتقد ذلك".

"تعتقد ذلك؟ ما هذه الإجابة الغبية؟".

"نعم، أسمع ما تقولينه لي".

"هذا لا يعني أنني لم أتلقَّ عروضاً أخرى. فأنا فتاة شابة وأتمتع بصحة جيدة، ولقد سئمت من الانتظار هكذا. أنا أداعب عشعوشي طوال الصيف، وقد جفّ تماماً. لا يمكنني أن أتكلم بوضوح أكبر من هذا، أليس كذلك؟".

"كما سمعت، رفضتِ عرض المعلم للزواج ثلاث مرات".

"الأشياء تتغير، أليس كذلك، أيها السيد العارف بكل شيء؟".

"ربما تتغير، وربما لا تتغير. فأنا لا أعرف هذه الأشياء".

كان الحديث يأخذ منحىً بشعاً، ولم أرغب الخوض فيه؛ أن أجلس هناك أستمع إليها وهي ترغي عن فرجها البائس. لم أكن مهيأً للتعاطي مع تلك الأشياء، وعلى الرغم من انزعاجي الشديد من المعلّم، فإنّ قلبي لم يطاوعني للمشاركة في الطعن في رجولته. كان بمقدوري أن أقف وأمشي، على ما أعتقد، لكنها كانت ستصرخ عليّ وبعد تسع دقائق سيكون جميع أفراد شرطة ويتشوتا قد تجمعوا في حديقة المنزل ليجرّونا إلى الحبس بتهمة تعكير الهدوء.

لكنني لم أضطر إلى فعل أي شيء من ذلك. فقبل أن تتمكن من قول كلمة أخرى، طلع من داخل المنزل صوت انفجار قوي. كان أقرب إلى الانفجار من التحطم، على ما أظن؛ نوعاً من الانفجار الطويل الفارغ الذي يُنتج على الفور عدة طرقات قوية: طراك، طراك، طراك، وكأن الجدران على وشك الانهيار. ولسبب ما، وجدت

السيدة ويذرسبون في ذلك شيئاً يبعث على الضحك. قذفت برأسها إلى الخلف في نوبة من الضحك، وعلى مدى الثواني الخمس عشرة التالية كان الهواء يتدفق من حنجرتها كسربٍ من الجنادب الطائرة. لم أسمع أحداً يضحك بتلك الطريقة من قبل. بدت ضحكتها أشبه بواحد من الأوبئة العشرة، أو بمئتي كأس من الجن، أو بأربعمئة ضبع يترصدون في شوارع مدينة مجنونة. ثم، وعلى الرغم من استمرار أصوات الاصطدام، أخذت تهذي بأعلى صوتها: "هل تسمع ذلك؟" قالت صارخة. "هل تسمع ذلك يا وولت! هذا أنا! هذا صوت أفكاري، صوت الأفكار وهي تتقافز في رأسي! مثل الفُشار يا وولت! جمجمتي على وشك الانفجار! ها، ها! رأسي كله سينفجر إلى قطع صغيرة!".

عندها، تحولت أصوات الارتطام إلى ضجة ناجمة عن تحطم الزجاج. أولاً تكسّر شيء، ثم شيء آخر؛ فناجين، ومرايا، وزجاجات، في سلسلة من الأصوات الصاخبة. كان من الصعب التمييز بين تلك الأشياء، لكنّ كلاً منها كان يتحطم بطريقة مختلفة، واستمر الأمر لوقت طويل دام أكثر من دقيقة، على ما أعتقد، وبعد الثواني الأولى كان الضجيج يملأ المكان، وكان الليلُ يردد صوت الزجاج المتناثر. قفزتُ، دون أي تفكير، وركضت نحو المنزل. حاولت السيدة ويذرسبون اللحاق بي، لكنها كانت ثملة جداً. آخر ما أتذكّره أنني التفتّ إلى الخلف ورأيتها تنزلق وتقع على وجهها، مثل رجل سكران في القصص المصورة. أطلقت صرخة. ثم، وقد أدركت عجزها عن الوقوف، غرقت في نوبة أخرى من الضحك. هكذا تركتُها؛ تتمرجح

على الأرض وتضحك بطريقة هستيرية.

الفكرة الوحيدة التي خطرت لي أنّ أحداً ما اقتحم المنزل ويهاجم المعلّم ياهودي. ولكن حين دخلت عبر الباب الخلفي وأخذت أتسلق الدرج، كان كل شيء قد هدأ. بدا ذلك غريباً، لكن الأكثر غرابة هو ما حدث بعد ذلك. قطعتُ القاعة وتوجهت إلى غرفة المعلّم وطرقت برفق على الباب وسمعته ينده عليّ بصوتٍ واضح وطبيعي جداً: "ادخل". دخلت ورأيت المعلّم ياهودي واقفاً هناك في روب الحمام والخفّين في وسط الغرفة ويداه في جيبيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة غريبة. كان كل ما حوله مدمّراً؛ تحول السرير إلى عشرات القطع، وبدت الجدران محفرة، وكانت ملايين الريشات البيضاء تتطاير في الهواء. إطارات صور محطمة، وكراسيّ محطمة، وقطع متناثرة من أشياء أخرى؛ كانت كلها مبعثرة على الأرض كالركام. منحني ثانيتين لأستوعب ما أراه، ثم تكلم مخاطباً إياي بهدوء رجلٍ أخذ لتوّه حمّاماً ساخناً. "مساء الخير يا وولت"، قال لي. "ما الذي يأتي بك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة؟".

"معلّم ياهودي"، قلت له. "هل أنت بخير؟".

"بخير؟ بالطبع أنا بخير. ألا يبدو عليّ أنني بخير؟".

"لا أدري. نعم، حسناً، ربما تبدو بخير. لكن هذا"، قلتُ وأنا أشير إلى الدمار المتناثر حول قدميّ، "وهذا؟ لا أفهم. المكان محطم كله، مدمر تماماً".

"تمرينٌ في التطهّر يا بني".

"تمرينٌ في ماذا؟".

"لا يهم. إنه نوع من الطب القلبي، بلسمٌ للمعنويات المتهالكة".

"هل تقصد أن تقول إنك فعلت هذا كله بنفسك؟".

"كان عليّ أن أفعل ذلك. أعتذر عن هذه الضجة كلّها، لكنها كانت ضرورية، عاجلاً أم آجلاً".

من الطريقة التي كان ينظر بها إليّ، شعرتُ أنه استعاد حيويته السابقة. فقد استعاد صوتُه نبرتَه المتعالية، وبدا كأنه يمزج اللطفَ والسخرية بمَكره القديم المعتاد. "هل هذا يعني"، قلت دون أن أتجرأ على الأمل، "هل هذا يعني أن الأمور ستكون مختلفة الآن؟".

"من واجبنا أن نتذكر الموتى. هذا هو القانون الأساسي. فإن لم نتذكرهم، سوف نفقد الحق في إنسانيتنا. هل تفهمني يا وولت؟".

"نعم يا سيدي، أفهمك. لا يمر يوم دون أن أفكر في صديقينا العزيزين وما لحق بهما. لكن...".

"لكن ماذا يا وولت؟".

"لكن الوقت يضيع، وسوف نظلم العالم إن لم نفكر في أنفسنا أيضاً".

"لديك بديهة سريعة يا بني. ربما لا يزال لديك بعض الأمل".

"الأمر لا يتعلق بي فقط، كما ترى. هناك السيدة ويذرسبون أيضاً. فخلال الأسبوعين الأخيرين، كانت في ذروة الغضب. وإن لم تخنّي عيناي منذ قليل، أعتقد أنها فقدت وعيها على عشب الحديقة، وهي تشخر في بركة من القيء".

"لن أعتذر عن أشياء لا تتطلب الاعتذار. فعلت ما عليّ أن أفعله، وقد أخذ مني ذلك ما أخذه. الآن يبدأ فصلٌ جديد. الشياطين هربت،

وعتمة الروح انجلت". أخذ نفساً عميقاً، وأخرج يديه من جيبيه، ثم أمسكني من كتفي بقوة. "ما قولك أيها الرجل الصغير؟ هل أنت جاهز لتريهم أشياءك تلك؟".

"أنا جاهز أيها المعلم. أنا جاهز بكل تأكيد. احجز لي مكاناً، وأنا صبيّك حتّى يفرّقَنا الموت".

قدّمتُ عرضي الشعبي الأول في ٢٥ أغسطس من سنة ١٩٢٧ تحت اسم "الصبي المعجزة وولت" لمرة واحدة في "معرض بوني كاونتي" في لارنِد، كانساس. من الصعب تصوّر عرضٍ أول أكثر تواضعاً، لكنه تحول إلى شيء أشبه بعرضي الأخير. لم يكن أدائي فاشلاً، لكن الحشد كان فظاً ولئيماً، مليئاً بالسكارى والمشاغبين، ولولا تفكير المعلم السريع لما عشتُ لأرى يوماً آخر.

كانوا قد سوّروا حقلاً على الجانب الآخر من المعارض الزراعية بالحبال، بعد الأكشاك التي تحتوي على عرانيس الذرة الفائزة والبقرة برأسين والخنزير الذي يزن ستمئة باوند، وأذكر أنني سافرتُ زهاء نصف ميلٍ قبل أن أصل إلى بركة صغيرة تحتوي على ماء أخضر عكرٍ تعوم على سطحه أوساخ بيضاء. بدا لي موقعاً سيئاً لمثل تلك الواقعة التاريخية، لكن المعلّم كان قد خطط لبداية متواضعة لا تسبب أية ضجة أو جعجعة. "جميع اللاعبين النجوم لعبوا في فرق متواضعة"، قال لي ونحن نترجل من سيارة السيدة ويذرسبون. "عليك أن تقدم بعض العروض أولاً. احرص على أن يكون أداؤك جيداً هنا، وسوف نتحدث عن العروض الكبرى في غضون بضعة أشهر".

لسوء الحظ لم تكن هناك مدرجات للمشاهدين، مما أتعب الكثيرين وسبّب بعض الاعتراضات، ونتيجة بيع البطاقة بعشرة سنتات شعر الحضور أنهم تعرضوا للخداع قبل أن أبدأ عرضي.

لم يكونوا أكثر من ستين أو سبعين شخصاً؛ عبارة عن مجموعة من المزارعين المحليين المتغطرسين يتجولون في سراويلهم الفضفاضة وقمصان الفانيلا، ويبدون أشبه بمندوبي "المؤتمر العالمي الأول للرعاع". كان نصفهم من السكارى الذين يبحثون عن شراب السعال البني، وكان نصفهم الآخر قد فرغوا من الشرب ويبحثون عن المزيد. وعندما تقدم المعلّم ياهودي، في بزة التوكسيدو السوداء والقبعة الحريرية، ليعلن العرض العالمي الأول للصبي المعجزة وولت، بدأت التعليقات الساخرة تنهال عليه. ربما لم تعجبهم ثيابه، أو ربما كانوا يعترضون على لكنة بروكلين–بودابست التي يتحدث بها، لكنني واثق أن ما زاد في الطين بلّة أنني كنت أرتدي أسوأ زيّ في تاريخ الاستعراضات الترفيهية: روب أبيض طويل جعلني أبدو أشبه بنسخة قزمة عن يوحنا المعمدان، مع صندل جلدي وكيس من القنّب مربوط حول خصري. كان المعلم قد أصرّ على ما أسماه "الهيئة الغيبية"، لكنني شعرت أنني أبدو معتوهاً في ذلك الزي، وعندما سمعت أحد المهرجين يصرخ بأعلى صوته "الفتاة المعجزة وولت"، أدركت أنني لم أكن الوحيد الذي انتابه ذلك الشعور.

إن كنت قد وجدت الشجاعة الكافية للبدء في العرض فذلك يعود حصراً إلى إيسوب. كنت أعرف أنه ينظر إليّ حيث هو، ولم أكن لأخذله. كان واثقاً من قدرتي على التألق، وبغض النظر عن رأي ذلك الحشد الغبي المكون من الرعاع، كنت مديناً لأخي ببذل قصارى جهدي. مشيتُ إلى حافة البركة ودخلتُ في روتيني المعتاد، بفتح ذراعيّ والاستسلام للنشوة التامة، وأنا أجاهد لتجاهل الأصوات

الساخرة والشتائم. سمعت أصوات الدهشة والاستغراب مع ارتفاع جسدي عن الأرض؛ لكن الأصوات تناهت خافتة، خافتة جداً، إذ كنت قد ولجت إلى عالم منفصل آنذاك، محصناً ضد الجميع في مجد ارتقائي. كان أول عرض أؤديه، لكنني كنت أمتلك سلفاً مؤهلات كبيرة وتصميماً لا يلين، وأنا واثق من أنني كنت سأنال إعجاب ذلك الحشد لولا ذلك الغبي التافه الذي رمى بزجاجة نحوي. في تسع عشرة مرة من عشرين مرة، يطير المقذوف بالقرب مني بسلام، لكن هذا اليوم كان مخصصاً للصدف والرميات الجامحة، فأصابني ذلك الشيء اللعين في رأسي تماماً. أودت الضربة بتركيزي (إن لم نقل أفقدتني وعيي)، وقبل أن أعرف رأسي من رجليّ كنت أغرق كحجرةٍ إلى قاع البركة. لولا مسارعةُ المعلّم إلى الغوص خلفي دون أن يأبه لخلع ملابسه، لغرقتُ في تلك الحفرة الموحلة، ولكانت تلك أول وآخر انحناءة لي.

غادرْنا لارنِد مكلّلين بالعار، وانطلقنا بأقصى سرعتنا بينما كان أولئك الأوغاد المتعطشون للدماء يرموننا بالبيض والحجارة والبطيخ. لم يهتم أحدٌ بأنني كدت أموت من تلك الضربة على الرأس، بل أخذوا يضحكون بينما كان المعلم الطيب ينتشلني من الماء ويحملني إلى سيارة السيدة ويذرسبون. كنت لا أزال أهذي من جراء غرقي الوشيك، وكنت أسعل وأتقيأ على قميص المعلّم وهو يركض في الحقل حاملاً جسدي المبلل المتأرجح بين ذراعيه. لم أتمكن من سماع كل ما قيل، لكنني سمعت ما يكفي لأقدّر أن الآراء حولنا متناقضة تناقضاً حادّاً. فقد تبنّى البعض وجهة النظر الدينية

وأكدوا أننا متحالفان مع الشيطان، ووصفنا آخرون بأننا مخادعان ومهرّجان، وكان هناك البعض الآخر الذي لم يصل إلى رأي معين. كانوا يصرخون لمتعة الصراخ، مسرورين لأنهم جزء من تلك الفوضى العظيمة وهم يطلقون صرخات غاضبة وعويلاً حادّاً. ولحسن الحظ كانت السيارة بانتظارنا على الجانب الآخر من المنطقة المسيّجة بالحبال، وقد تمكنا من الصعود إلى السيارة قبل وصول الرعاع إلينا. اصطدمت بضع بيضات بزجاج السيارة الخلفي ثم انطلقنا دون أن يتحطّم الزجاجٍ أو تؤزّ الطلقات النارية، وبالمجمل أعتقد أننا كنا محظوظين لتمكّننا من الهرب دون التعرض لأي أذى.

أعتقد أننا قطعنا نحو ميلين قبل أن يستجمع أحدنا الشجاعة ليتكلم. كنا قد صرنا بين المزارع والمراعي عندها، ننهب الطريق الفرعي في ثيابنا المبللة. ومع كل ارتجاج في السيارة كان الماء يتدفق منا ويغرق في فرش سيارة السيدة ويذرسبون الفاخر. تبدو القصة مضحكة وأنا أرويها الآن، لكن الأمر لم يكن مضحكاً بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. كنت أجلس في المقعد الأمامي، أحاول السيطرة على أعصابي والتفكير في الخطأ الذي حدث. فعلى الرغم من أخطائه وحساباته المغلوطة، لم يبدُ من العدل إلقاء اللوم على المعلّم. كان قد عانى الكثير، وكنت أدرك أن محاكمته لم تكن صائبة تماماً، لكنني كنت مخطئاً في مسايرته. ما كان يجب أن أسمح لنفسي بالتورط في تلك العملية البائسة. كنت أجازف بمؤخرتي هناك، وعندما انتهى كل شيء وقيل كل شيء، كانت مسؤولية حمايتها تقع عليّ أنا.

"حسناً يا شريكي"، قال المعلّم، وهو يبذل قصارى جهده لكي

يبتسم، "أهلاً بك في عالم الاستعراض".

"لا علاقة لما حدث بعالم الاستعراض"، قلت له. "ما حدث هناك كان هجوماً واعتداءً. كان أشبه بالوقوع في كمين والتعرض للخطر والأذية".

"هذه هي طبيعة التعاطي مع الحشود يا صغيري. فحالما ترتفع الستارة، لا يمكنك التنبؤ بما سيحدث".

"لا أقصد أن أكون وقحاً يا سيدي، لكن هذا الكلام مجرد هراء".

"أوه، أوه"، قال المعلّم وقد أثار ردّي الحاد اهتمامه. "الصبي الصغير غاضب. وأي نوع من الكلام تقترح أن نتبادله، سيد رولي؟".

"الكلام العملي يا سيدي. ذلك النوع من الكلام الذي يمنعنا من تكرار أخطائنا".

"لم نرتكب أية أخطاء. لقد جذبنا مجموعة من المشاهدين الرعاع، هذا كل ما في الأمر. أحياناً يحالفك الحظ، ولا يحالفك في أحايين أخرى".

"لا علاقة للحظ بالأمر. ارتكبنا حماقات كثيرة اليوم، وقد دفعنا الثمن".

"أعتقد أنك كنت رائعاً. ولولا تلك الزجاجة الطائرة، لحققنا نجاحاً باهراً".

"أولاً، أريد التخلص من هذا الزي. فهو أسوأ شيء رأيته في حياتي. نحن لسنا بحاجة إلى زخارف وأشياء توحي بعوالم أخرى. فالعرض نفسه كفيل بإعطاء هذا الإيحاء، ولا نريد إرباك الناس بمثل هذه الأزياء الملائكية الغريبة. من شأن هذا أن يزعجهم. هذه الأزياء

تجعلني أبدو أفضل منهم".

"لكنك أفضل منهم بالفعل يا وولت. لا تنسَ ذلك".

"ربما. ولكن حالما نجعلهم يدركون ذلك، نكون قد حكمنا على أنفسنا بالفشل. كانوا ضدي حتى قبل أن أبدأ العرض".

"لا علاقة للزي بذلك. كان ذلك الحشد ثملاً؛ جاء إلى العرض وقد تعتعه السّكر. كانوا حُولاً، ولم يرَ أيٌّ منهم ما فعلتَه".

"أنت أفضل معلّم يا سيدي، وأنا ممتنٌّ لك لإنقاذ حياتي اليوم، ولكن في هذه النقطة بالتحديد، أنت مخطئ تماماً. الزي في غاية الرداءة. أنا آسف على صراحتي الفظة، ولكن مهما صرخت عليّ فلن أرتديه ثانية".

"ولماذا أصرخ عليك؟ نحن معاً في هذا الأمر يا بني، وأنت حر في التعبير عن آرائك. فإن كنت ترغب في ارتداء زي آخر، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تخبرني فقط".

"هل أنت جادّ في ما تقوله؟".

"أمامنا رحلة طويلة إلى ويتشوتا، وليس هناك أي سبب يمنعنا من مناقشة هذه الأمور الآن".

"لا أريد أن أتذمر"، قلت له وأنا أقفز من باب السيارة الذي فتحه لي. "ولكن في رأيي، لن تكون أمامنا أية فرصة إن لم نكسبهم منذ البداية. فهؤلاء الرعاع لا يحبون الأشياء الغريبة. لم تعجبهم بزة البطريق التي كنت ترتديها، ولم يحبوا الروب الأنثوي الذي كنت أرتديه أنا. ولم يفهموا أياً من ذلك الكلام المنمق الذي قلته لهم في البداية؛ فاتَهم معناه تماماً".

"كان مجرد هراء الغرض منه تهيئتهم للعرض الذي سيشاهدونه".

"كما تريد. ولكن ما رأيك لو نتجاوزه في المستقبل؟ حاول أن تترك الأمر بسيطاً وشعبياً. شيء مثل 'سيداتي وسادتي، يسرّني أن أقدم لكم'، ثم تبتعد وتدعني أباشر العرض. فإن لبستَ بزة بسيطة قديمة وقبعة جميلة من القش، فإن ذلك لن يستفزهم. سوف يعتقدون أنك شخص ودود وطيب يحاول أن يجني بعض المال بعرق جبينه. هذا هو السر؛ التواضع والتذلل. ثم أتمشى أمامهم كصبي غبي لا يعرف شيئاً، صبي يعمل في مزرعة ويرتدي سروال جينز وقميصاً مقلّماً. بلا أحذية، ولا جوارب؛ صبي حافٍ وغبي مثل أبنائهم وأبناء إخوتهم وأخواتهم. بمجرّد أن يروني سيشعرون بالارتياح، كأنني فرد من العائلة. ثم، في اللحظة التي أرتفع فيها عن الأرض، سوف تخفق قلوبهم. الأمر بهذه البساطة. ليّنهم قليلاً، ثم أعطِهم الضربة القاضية. ستكون خطة ناجحة بالتأكيد. وبعد دقيقتين على بدء العرض، سوف يأكلون من يديك كما تفعل السناجب".

وصلنا إلى المنزل بعد ثلاث ساعات كنت أتحدث خلالها إلى المعلّم وأعبّر له عن آرائي بطريقة لم أفعلها من قبل. تكلمت عن جميع الأشياء التي خطرت لي – من الأزياء إلى أماكن العرض، ومن إدخال المشاهدين إلى الموسيقا، ومن أوقات العروض إلى الدعاية – وقد تركني أقول كل ما أريده. بدا معجباً بما أقوله، وربما مندهشاً قليلاً بإحاطتي الشاملة وآرائي القوية، لكنني كنت أحارب من أجل حياتي في ذلك المساء، وكان من الضروري أن أعبّر عن كل ما يجول في خاطري. كان المعلّم ياهودي قد أطلق سفينة مليئة بالثقوب، وبدلاً

من أن أحاول سدّ تلك الثقوب التي تتسرب منها المياه وتغرقنا، كنت أريد أن أسحب ذلك الشيء إلى الميناء وأعيد بناءَه من جديد. استمع المعلم إلى آرائي دون أن يقاطعني أو يسخر مني، وفي النهاية وافق على معظم النقاط التي أثرتُها. لم يكن من السهل عليه أن يتقبل فشله كرجل استعراض، لكن المعلّم ياهودي كان يريد أن تسير الأمور جيّداً بالقدر الذي كنت أريده أنا، وكان كبيراً بما يكفي ليعترف أنه وضعنا على الطريق الخطأ. كانت لديه طريقته الخاصة في تنظيم الأمور، لكنها كانت طريقة قديمة وبالية تناسب الفترة المبتذلة التي سبقت الحرب أكثر مما تناسب حيوية العصر الجديد. كنت أبحث عن شيء حديث، شيء أنيق ومفهوم ومباشر، وقد نجحت في إقناعه تدريجيّاً من أجل تبنّي مقاربة مختلفة.

مع ذلك رفض الموافقة على بعض الأشياء. كنت أرغب في تقديم العرض في سينت لويس والتباهي أمام سكان مدينتي القديمة، لكنه رفض الفكرة رفضاً قاطعاً. "هذا أخطر مكان على الأرض بالنسبة إليك"، قال لي، "وفي اللحظة التي تعود فيها إلى هناك، تكون قد وقعت على حكم إعدامك. صدقني يا وولت، سينت لويس مكان موبوء. إنه مكان مسموم، ولن تخرج من هناك حياً". لم أفهم معارضته الحادة تلك، لكنه كان يتحدث كأنه قد حسم أمره، ولم أكن لأعارضه في ذلك. وكما تبيّن لاحقاً، أدركت صحة كلامه. فبعد شهر واحد فقط، تعرضت سينت لويس لأسوأ إعصار في ذلك القرن. انطلق الإعصار عبر المدينة كقذيفة آتية من الجحيم، وعندما غادرها بعد خمس دقائق، كانت مئات الأبنية قد سُوّيت بالأرض،

ومات مئة شخص، بينما علق ألفا شخص بين الركام بعد أن تحطمت عظامهم وسالت الدماء من الجروح التي تعرضوا لها. كنا في طريقنا إلى فيرنون، في أوكلاهوما، آنذاك، لتقديم العرض الخامس من جولة تتضمن أربعة عشر عرضاً، وعندما أمسكت بالصحيفة المحلية الصباحية ورأيت الصور على الصفحة الأولى، كدت أن أتقيأ طعام الإفطار. كنت قد اعتقدت أن المعلّم فقدَ حسّه القوي بالأشياء، لكنني أخطأت في حكمي عليه مرة أخرى. كان يعرف أشياء لم يكن لي أن أعرفها، وكان يسمع أشياء ليس بمقدور أحد أن يسمعها، ولم يكن له نظير في هذا العالم. فإن شككتُ في كلامه ثانيةً، قلت لنفسي، فليُمتني الله ويجعل من جثتي طعاماً للخنازير.

لكنني تسرّعت قليلاً. لم يضرب الإعصار حتى أواخر شهر سبتمبر، وكنا لا نزال آنذاك في الخامس والعشرين من أغسطس. لا زلنا نجلس، أنا والمعلّم ياهودي، في ثيابنا الرطبة ونحن في طريق عودتنا إلى منزل السيدة ويذرسبون في ويتشوتا. بعد نقاشنا الطويل حول إعادة تنظيم العرض، بدأت أشعر بالتفاؤل حول عروضنا المستقبلية، لكنني لم أشعر بارتياح كامل. فإلغاء فكرة سينت لويس شيء، مجرد اختلاف بسيط في الرأي، ولكن كانت هناك مسائل أخرى تثير فيّ قلقاً عميقاً. ربما تسمّيها أخطاء جوهرية في الترتيبات، وبما أنني عبّرت عن كل ما جال في خاطري، فكرتُ في التطرق إلى الخاتم النحاسي. وهكذا، غامرت وأثرت موضوع السيدة ويذرسبون. لم يسبق لي أن تجرأت على الحديث عنها من قبل، وأملتُ ألا يثور غضب المعلّم ويجلدني بالسوط.

"ربما هذا ليس من شأني"، قلت بنبرة لطيفة وهادئة، "لكنني لا أفهم لماذا لم تأتِ معنا السيدة ويذرسبون".

"لم تشأ أن تعطلنا عن أعمالنا"، قال المعلم. "اعتقدَت أنها ربما تكون نحساً علينا".

"لكنها وليّة نعمتنا، أليس كذلك؟ هي من تدفع الفواتير. ومن المفترض أن ترافقنا وتتأكد من حسن سير استثمارها هذا".

"إنّها مَن يسمونه بالشريك الصامت".

"الصامت؟ أنت تمزح أيها المعلم. السيدة هي أكثر امرأة ثرثارة في المنطقة كلّها. إنّها قادرة على مضغ أذنك وبصق أجزائها قبل أن تتمكن من قول كلمة واحدة".

"في الحياة، نعم. لكنني أتكلم عن التجارة. في الحياة، مما لا شك فيه أنّ لها لساناً طويلاً. لن أجادلك في هذه المسألة".

"لا أعرف ما مشكلتها، ولكن طوال الفترة التي اعتكفت فيها، فعلت أشياء غريبة جداً. لا أقول إنها ليست شخصاً لطيفاً وكريماً، ولكن في بعض الأوقات، دعني أخبرك، في بعض الأوقات كنت أخاف من رؤيتها وهي تتصرف بتلك الطريقة".

"كانت مرهقة. لا يمكنك أن تلومها يا وولت. فقد عانت كثيراً في الأشهر القليلة الماضية، وهي أكثر هشاشة مما تتخيل. عليك أن تصبر عليها".

"هذا ما قالته عنك أنت".

"إنها امرأة ذكية. ربما تبالغ قليلاً، لكنها تتمتع بعقل راجح، وقلبها في المكان الصحيح".

"ماما سيو، فلترقد روحها بسلام، قالت لي مرة إنك كنت تفكر في الزواج بها".

"كنت. ثم أقلعت عن الفكرة. ثم فكرت في ذلك ثانيةً. ثم أقلعت عن الفكرة من جديد. والآن، من يعرف؟ إن كانت السنوات قد علمتني شيئاً يا بنيّ، فهو أن أي شيء يمكن أن يحدث. فعندما يتعلّق الأمر بالرجال والنساء، تسقط جميع المراهنات".

"نعم، إنها امرأة جامحة، أتّفق معك في هذا. عندما تعتقد أنك أحكمت السيطرة عليها، تفك العقدة وتنطلق إلى أقرب مرعى".

"تماماً. وهذا يفسر لماذا من الأفضل أحياناً ألا تفعل شيئاً. فإن وقفت هناك وانتظرت، فمن المحتمل أن الشيء الذي تأمل فيه سوف يأتي إليك".

"من الصعب عليّ أن أفهم هذا مثل هذا الكلام العميق يا سيدي".

"أنت لست الوحيد ياوولت".

"ولكن إن حدث ودخلت قفص الزوجية، أراهن أنها لن تكون تجربة سهلة".

"لا تفكر في هذا الأمر. ركّز على عملك واترك مسألة الحب لي. فأنا لا أحتاج إلى النصيحة من المعاتيه. إنها أغنيتي أنا، وسوف أغنيها بطريقتي الخاصة".

لم أملك الجرأة الكافية على الخوض في هذا الموضوع أكثر من ذلك. كان المعلّم ياهودي عبقرياً وحكيماً، ولكن تبيّن لي في ما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يعرف شيئاً عن النساء. لقد اطلعت على أفكار السيدة ويذرسبون العميقة، واستمعت لاعترافاتها الثملة الخليعة في

عدة مناسبات، وكنت متأكداً أن المعلّم لن يتمكّن من التعاطي معها إن لم يمسك الثور من قرونه. لم تكن ترغب في أن يذعن لها الآخرون، بل تريد أن تتعرض للاجتياح وتؤخذ عنوةً، وكلما تردد في قراراته تضاءلت الفرص المتاحة أمامه. ولكن كيف أخبره بهذه الأشياء؟ لم أتمكن من فعل ذلك. كنت خائفاً على جلدي، ولذلك لم أفاتحه في الموضوع ثانية وتركت الأمر كما هو. كانت إوزته اللعينة، قلت لنفسي، وإن كان يخطط لطهوها، فمن أنا لأقف في طريقه؟

عدنا إلى ويتشوتا وانشغلنا في التخطيط لبداية جديدة. لم تقل السيدة ويدرسبون كلمة واحدة عن بقع الماء التي تشكلت على المقاعد، ولكن أظن أنها فكرت فيها كنوع من مصاريف العمل؛ جزءاً من المجازفة في جني مبالغ كبيرة من المال. بقينا ثلاثة أسابيع ونحن نعمل على التحضيرات - تحديد مواعيد العروض، وطباعة المنشورات والملصقات الإعلانية، والتدرب على الروتين الجديد - وخلال ذلك الوقت كان المعلم والسيدة ويدرسبون يتمتعان بعلاقة قريبة وحميمة أكثر ممّا توقعت. ربما كنت مخطئاً، فكرت في نفسي، وربما كان المعلم يعرف ما يفعله تماماً. ولكن في اليوم المحدد لمغادرتنا، ارتكب خطأً، خطأ تكتيكياً كشف عن ضعف استراتيجيته العامة. رأيت ذلك بأم عينيّ وأنا أقف على الشرفة بينما كان المعلم والسيدة يودعان بعضهما بعضاً، وكانت رؤية ذلك شيئاً يبعث على الألم؛ فصلاً صغيراً حزيناً في تاريخ القلوب المحطمة.

قال: "إلى اللقاء يا أختي. سوف نراكِ بعد شهر وثلاثة أيام".
فقالت: "لترافقكما السلامة، أيّها الصبيّان، إلى غياهب المجهول".

حلّ صمتٌ مربك بعد ذلك، وبما أنني شعرت بشيء من الانزعاج، فتحت فمي الكبير وقلت: "ما رأيك يا سيدتي؟ لماذا لا تصعدين إلى السيارة وتأتي معنا؟".

رأيت عينيها تبرقان عندما قلت ذلك، وأقسم بالله أنّها كانت على استعداد للتخلي عن ست سنوات من عمرها لكي تترك كل شيء وتصعد إلى السيارة. التفتت إلى المعلّم وقالت: "ما رأيك؟ هل أذهب معكما أم لا؟". ربتَ، بغطرسته المعهودة، على كتفها وقال: "الأمر يعود لك يا عزيزتي". غامت عيناها لوهلة، لكنها لم تفقد الأمل. وهي لا تزال تأمل في سماع الكلمات المناسبة، حاولت مرة ثانية وقالت: "لا، قرّر أنت. لا أريد أن ألهيكما عن العمل". فقال: "أنت حرة يا ماريون، ولن أُملي عليك ما تفعلينه". هكذا، رأيت البريق ينطفئ في عينيها؛ ارتسم على وجهها تعبيرٌ يشي بالتوتر والسخرية، ثم هزت كتفيها وقالت: "لا مشكلة. هناك أعمال كثيرة عليّ القيام بها هنا على أية حال". ثم جاهدت لكي ترسم ابتسامة على شفتيها وأضافت: "أرسل لي بطاقة بريدية عندما تستطيع. فآخر ما سمعته هو أن سعر البطاقة بنس واحد فقط".

هكذا ببساطة يا أصدقائي، ضاعت فرصةُ العمر للأبد. تركها المعلّم تنزلق من بين أصابعه. والأسوأ، لا أعتقد أنه كان مدركاً لما فعله.

سافرنا في سيارة مختلفة هذه المرة؛ في سيارة فورد سوداء مستعملة كانت السيدة ويذرسبون قد اشترتها لنا بعد عودتنا من لارنِد. أطلقت عليها اسم "السيارة العجيبة". ومع أنها أصغر وأبطأ من سيارة الكرايزلر، فقد فعلت كل ما هو مطلوب منها. انطلقنا في صباح ماطر في أواسط شهر سبتمبر، وبعد ساعة من خروجنا من ويتشوتا كنت قد نسيت ذلك المشهد المليء بالعواطف الذي رأيته على الشرفة. كان ذهني مركزاً على أوكلاهوما، الولاية الأولى التي حجزناها في جولتنا، ولدى وصولنا إلى ريدبيرد بعد يومين، كنت في غاية الحماسة والتأهب. سوف ننجح هذه المرة، قلت لنفسي. نعم يا سيدي، هنا يبدأ كل شيء. حتى إن اسم المدينة بدا له كأنه فأل خير. وبما أنني كنت أؤمن بالخرافات في تلك الأيام، فقد ترك ذلك أثراً قوياً فيَّ. ريدبيرد. مثل فريق سينت لويس العزيز على قلبي، أحباء قلبي القدامى في فريق "كاردينالز".

كان العرض نفسه في ثياب جديدة، لكن كل شيء بدا مختلفاً، وقد أحبني الجمهور منذ اللحظة التي ظهرت فيها؛ وهو شيء يشكّل نصف المعركة. أدى المعلّم ياهودي دور الرجل الريفي بشكل رائع، وترك زيّ هكلبيري فينْ أثراً كبيراً، وفي مجمل الأمر تمكّنا من الذهاب بعقولهم. أغمي على ست أو سبع نساء، وكان الأطفال يصرخون، وجمد الرجال فاغرين أفواههم غير مصدقين ما

يرون. سحرتهم طوالَ ثلاثين دقيقة، وأنا أرقص وأتشقلب في الهواء وجسدي الصغير يعوم فوق سطح بحيرة كبيرة متلألئة، لكي أدفع نفسي وأرتفع في النهاية إلى أربعة أقدام ونصف، قبل أن أعود هابطاً إلى الأرض وأحيي الجمهور بانحناءة. كان التصفيق عاصفاً وقوياً. كانوا يهتفون ويبكون، ويضربون على الطناجر والقدور، ويرمون بالقصاصات الملونة في الهواء. كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها طعم النجاح، وقد أحببت ذلك؛ أحببته بطريقة لم أحب بها شيئاً قبله أو بعده.

دَنبار وباتيست. جَمبو وبلانكتزفيل. بيكينز، وميوز، وبيثيل. وابانوكا. بوغي ديبوت وكينغفيشر. غيرتي، وورينغلينغ، وماربل سيتي. لو كان هذا فيلماً سينمائياً، فهنا كانت ستبدأ صفحات الروزنامة بالتطاير عن الحائط. سوف نراها ترفرف على خلفية الطرق الريفية وكرات القش المتدحرجة، ثم تظهر أسماء تلك البلدات والمدن ونحن نتابع تقدم سيارة فورد السوداء تلك عبر خارطة أوكلاهوما الشرقية. سوف تكون الموسيقا مرحة ومليئة بالإيقاع ومعدّلة لتماثل طقطقة صناديق المحاسبة الآلية. سوف تتوالى اللقطات واحدة تلو الأخرى وتذوب كل منها في ما تليها. السلال الكبيرة المليئة بالنقود، والمنازل المحاذية للطريق، والأيدي المصفقة والأقدام التي تضرب الأرض، والأفواه الفاغرة، والعيون الجاحظة الشاخصة إلى السماء. سوف يأخذ الشريط نحو عشر ثوانٍ، وعندما ينتهي سيعرف جميع الموجودين في المسرح قصة ذلك الشهر. آه، ذلك السحر الهوليودي القديم. لا شيء أروع من هذا. ربما لا تكون طريقة حاذقة، لكنها

ستفي بالغرض.

يا للذاكرة المراوغة. فإن كنت أفكر فجأة في الأفلام الآن، فربما لأنني شاهدت الكثير منها خلال الأشهر التالية. فبعد الانتصار الذي حققناه في أوكلاهوما، لم تعد الحجوزات مشكلة، وقد قضيت أنا والمعلّم معظم وقتنا على الطرقات متنقلين من مكان ناءٍ إلى آخر. قدمنا عروضاً في تكساس وأركنسو ولويزيانا في طريقنا نحو الجنوب مع قدوم الشتاء، وكنت أملأ أوقاتي الميتة بين العروض بزيارة دور السينما المحلية لإلقاء نظرة على آخر الأفلام. كان للمعلّم أعماله التي يهتم بها - التحدث مع مديري المعارض وبائعي البطاقات، وتوزيع المنشورات والملصقات الإعلانية في المدينة، وإجراء الترتيبات اللازمة للعروض القادمة - ولم يكن يذهب معي إلّا في حالات نادرة. وعندما كنت أعود، أجده في غالب الأحيان وحيداً في غرفته، يجلس في كرسي ويقرأ كتابَه. كان الكتاب نفسه دائماً - كتاب صغير أخضر وقديم يحمله معه في رحلاتنا كلها - وقد بات مألوفاً لي مثل خطوط وتقاطيع وجهه. كان مكتوباً باللاتينية ويحمل اسم سبينوزا، وهو تفصيل لم أنسه قطّ، حتى بعد سنوات طويلة. وعندما سألت المعلّم عن سبب قراءته لذلك الكتاب مرة بعد أخرى، قال لي لأنه لا يمكنك أن تصل إلى قراره. فكلما تعمّقتَ أكثر، قال لي، تكشفت لك أشياءُ أخرى، وكلما تكشفت لك أشياءُ أخرى، احتجتَ إلى وقتٍ أطول لقراءته.

"كتاب سحري"، قلت له. "لا يمكن لمعانيه أن تنضب أبداً".

"تماماً يا فهلوي. لا ينضب أبداً. تشرب النبيذ وتضع الكأس على

الطاولة ثم تمسك بها ثانية لتكتشف أنها لا تزال مُترعة".

"وها أنت ذا، تشرب حتى الثمالة بسعر كأس واحدة".

"لم أكن لأعبّر عن ذلك بطريقة أفضل"، قال ثم استدار فجأة وأخذ يحدق عبر النافذة. "تثمل على العالم يا بني. تثمل على الغموض الذي يكتنف هذا العالم".

يا إلهي! لكنني كنت سعيداً في تجوالي معه. فمجرد التنقل من مكان إلى آخر كان كفيلاً برفع معنوياتي. ولكن عندما تضيف إلى ذلك بقية المكوّنات الأخرى - الحشود، والعروض، والمال الذي نجنيه - تكون تلك الأشهر الأولى أجمل أشهر أعيشها في حياتي. فحتى بعد تلاشي الحماسة واعتيادي على الروتين، لم أشأ لتلك المتعة أن تنتهي. فالأسرّة المزعجة، والإطارات المثقوبة، والطعام الرديء، وكل تلك التقطعات الناجمة عن الأمطار وفترات الهدوء والأوقات المضجرة لم تكن تعني شيئاً لي؛ مجرد حصىً ترتدّ عن جلد كركدن. كنا نصعد إلى سيارة الفورد وننطلق خارج المدينة بعد أن جمعنا سبعين أو مئة دولار أخرى أودعناها في صندوق السيارة، ثم نتوقف لننطلق من جديد ونتمتع بمراقبة الطبيعة وهي تعبر بنا متسارعة ونحن نسترجع اللحظات المتألقة في العرض الأخير. كان المعلم لطيفاً معي، يشجّعني دوماً ويوجّهني ويستمع إلى ما أقوله، دون أن يجعلني أشعر للحظة واحدة أنني أقل أهميةً منه. تغيرت أشياء كثيرة بيننا منذ الصيف وبدا أن علاقة جديدة قد نشأت الآن وكأننا وصلنا إلى نوع من التوازن الدائم. كان كلّ منا يؤدي عمله المنوط به، وقد نجحنا في ما نقوم به معاً.

لم يحدث انهيار البورصة إلا بعد سنتين، لكن الكساد كان قد بدأ في المناطق النائية وبدأ المزارعون وسكان الأرياف يشعرون بوطأته على امتداد الولايات المترامية. التقينا بالكثير من الأشخاص اليائسين أثناء تنقلاتنا، وقد علمني المعلّم ياهودي ألا أنظر إليهم بازدراء. فقد كانوا بحاجة إلى "الصبي المعجزة وولت"، قال لي، ويجب ألا أنسى أبداً المسؤولية التي تنطوي عليها تلك الحاجة. كانت رؤية صبيّ في الثانية عشرة يفعل ما فعله القدّيسون والأنبياء فقط من قَبلِه أشبهَ بنفحة من السماء، ويمكن لعروضي تلك أن تعطي دفعاً روحياً لآلاف الأرواح المعذبة. لا يعني ذلك ألا أجني المالَ من هذه العروض، ولكن إن لم أفهم أن عليّ ملامسة قلوب الناس فلن أحصل على التقدير الذي أستحقّه. أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل المعلّم يطلق عروضي في أماكن نائية، في مجموعة الزوايا والصدوع المهملة المنسية على الخارطة. كان يريد لشهرتي أن تنتشر ببطء وللدعم أن يبدأ من الأسفل إلى الأعلى. لم يكن الأمر ينحصر في عملية إطلاقي، بل في التحكم بالأشياء والتأكد من أنني لن أكون مجرد ظاهرة تتألق ثم سرعان ما تنطفئ.

ومن أنا لكي أعارض خططه تلك؟ كانت الحجوزات تتم بطريقة منهجية، وكان الحضور جيداً، وكنا دائماً نجد مكاناً يؤوينا عندما يحلّ موعد النوم. كنت أفعل ما أرغب فيه، وقد منحني ذلك شعوراً جيداً ومنعشاً، ولم أكن آبه إن كان الأشخاص الذين يشاهدونني من باريس فرنسا أو باريس تكساس. وبين الفينة والأخرى، بالطبع، كنا نواجه مطباً في الطريق، لكن المعلّم ياهودي كان جاهزاً للتعامل مع

جميع الأوضاع الطارئة. في إحدى المرات، على سبيل المثال، جاء أحد ضباط التغيّب عن المدرسة وقرع على باب غرفتنا في دبلن في المسيسيبي. لماذا لا يذهب هذا الصبي إلى المدرسة؟ سأل المعلم وهو يشير بإصبعه الطويلة النحيلة إليّ. كانت هناك قوانين تمنع مثل هذه الأشياء؛ لوائح وأنظمة وأشياء من ذاك القبيل. ظننتُ أن أمرنا انتهى، لكن المعلّم ابتسم ودعا السيدَ إلى الدخول، ثم أخرج ورقة من جيب معطفه. كانت مغطاة بأختام بدت رسمية، وحالما قرأها الضابط لمسَ قبعته بطريقة تنمّ عن الإحراج، ثم اعتذر عن الخطأ الذي ارتكبه ومضى. الله يعلم ما الذي كان مكتوباً في تلك الورقة، لكنه نجح في إبعاد المفتش في الحال. وقبل أن أتمكن من قراءة أي من تلك الكلمات، كان المعلّم قد طوى الورقة وأعادها إلى جيب معطفه. "ما الذي تقوله هذه الورقة؟" سألت المعلم. وعلى الرغم من أنني أعدت السؤال عليه، فهو لم يُجبني. اكتفى بالربت على جيبه والابتسام، وقد بدا مغروراً ومسروراً من نفسه. ذكرني بقطٍّ يلتهم عصفورَ العائلة، ويرفض أن يقول لي كيف فتح باب القفص.

من الجزء الأخير من سنة ١٩٢٧ وحتى النصف الأول من سنة ١٩٢٨، عشتُ في شرنقة من التركيز التام. لم أفكر في الماضي، ولم أفكر في المستقبل؛ بل في ما يحدث الآن فقط، في ما كنت أفعله في هذه اللحظة أو تلك. وبشكل عام، لم نكن نقضي أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام في ويتشوتا، وكنا نمضي بقية الوقت في الانتقال من مكان إلى آخر في تلك "السيارة العجيبة" السوداء. لم تأتِ الاستراحة الحقيقية إلا في أواسط شهر مايو. كان عيد ميلادي

يقترب، وارتأى المعلّم أن إجازة أسبوعين فكرة جيدة. نعود إلى منزل السيدة ويذرسبون، قال لي، ونأكل بعض الطعام المطبوخ. نرتاح ونحتفل ونحصي أموالنا، وبعد أن ننتهي من استراحة الباشوات هذه، نحزم حقائبنا وننطلق ثانية. بدت لي فكرة جيدة، ولكن حالما وصلنا إلى هناك واستقررنا لقضاء عطلتنا، شعرت أن هناك مشكلة ما. لم يكن الأمر يتعلق بالمعلم أو السيدة ويذرسبون. كانا يعاملانني بلطف شديد، وكانت العلاقة بينهما تنمّ عن تناغم كبير حينها. ولم يكن شيئاً متعلقاً بالمنزل أيضاً. كانت الوجبات التي تعدها لنا نيلي بوغز لذيذة وشهية، وكانت الأسرة مريحة، والجو الربيعي رائعاً. ولكن في اللحظة التي دخلت فيها إلى المنزل، شعرت بثقل خفيّ يجثم على قلبي، بنوع من الحزن الغامض والقلق. اعتقدتُ أن شعوري هذا سيتلاشى في الصباح، لكنه بقي يلازمني؛ قبع داخلي كقطعة من اللحم التي استعصت على الهضم، ولم أستطع التخلص منها بأية وسيلة ممكنة. وفي حقيقة الأمر، كانت تكبر أكثر فأكثر وتكتسب حياة خاصة بها إلى درجة أنني - في الليلة الثالثة، بعد أن ارتديت البيجاما وصعدت إلى السرير - شعرت برغبة قوية في البكاء. بدا الأمر جنونياً، ولكن بعد نصف دقيقة فقط كنت أدفن رأسي في الوسادة وأجهش ببكاءٍ مرير معمّدٍ بالبؤس وعذاب الضمير.

عندما جلستُ إلى الإفطار مع السيد ياهودي في الصباح التالي، لم أتمكن من السيطرة على نفسي وانسابت الكلماتُ حتى قبل أن أعرف أنني سأقولها. كانت السيدة ويذرسبون لا تزال في سريرها في الطابق العلوي، وكنا نحن الاثنان فقط بانتظار نيلي بوغز لكي تخرج

من المطبخ وتقدّم لنا النقانق والبيض المقلي.

"هل تذكر ذلك القانون الذي حدثتني عنه؟" سألت المعلّم ياهودي.

رفع المعلم، الذي كان يدفن أنفه في الصحيفة، نظرَه عن العناوين الرئيسية وحدّق فيّ مطولاً، ثم قال: "قانون! أي قانون؟".

"أنت تذكر. ذلك القانون المتعلق بالواجبات وأشياء من ذاك القبيل. كيف أننا نفقد إنسانيتنا إن نحن نسينا الموتى".

"بالطبع أذكر".

"يبدو لي أننا كنا نخالف هذا القانون على الطالع والنازل".

"وكيف ذلك يا وولت؟ إيسوب وماما سيو يعيشان في داخلنا. نحملهما في قلوبنا حيثما نذهب. ولن يغير ذلك أيُّ شيء أبداً".

"لكننا تركناهما ورحلنا، أليس كذلك؟ لقد قُتلا على أيدي مجموعة من الوحوش والشياطين، ولم نفعل أي شيء حيال ذلك".

"لم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئاً. فلو أننا لحقنا بهم لقتلونا نحن الاثنين".

"في تلك الليلة ربما. ولكن ماذا عن الآن؟ فإن كان علينا أن نتذكر الموتى، ليس أمامنا أي خيار سوى ملاحقة أولئك الأوغاد ومعاقبتهم على فعلتهم تلك. ما أعنيه هو أننا نقضي أوقاتاً ممتعة ورائعة، أليس كذلك؟ نتجول في طول البلاد وعرضها في سيارتنا، ونجني المال، ونتباهى أمام العالم كشخصيتين مهمتين. ولكن ماذا عن صديقي إيسوب؟ وماذا عن العجوز الظريفة ماما سيو؟ إنهما يتعفنان في قبريهما، وأولئك القذرون الذين شنقوهما لا يزالون طلقاء".

"تمالك نفسك يا وولت"، قال المعلم وهو يتمعن فيّ وقد فاضت عيناي بالدموع ثانية وأخذت تسيل على خديّ. كان صوته حازماً ويشي بنوع من الغضب. "بالطبع، يمكننا أن نلاحقهم"، قال لي. "يمكننا أن نبحث عنهم ونجلبهم إلى العدالة، لكنه سيكون العمل الوحيد الذي سنقوم به لبقية حياتنا. فالشرطة لن تساعدنا، أؤكد لك ذلك، وإن كنت تعتقد أن هيئة المحلّفين ستدينهم، فكر مرة ثانية. عصابة "كلان" موجودة في كل مكان يا وولت، ويتحكمون بكل شيء. إنهم الأشخاص اللطيفون المبتسمون نفسهم الذين كنت تراهم في شوارع سيبولا – توم سكينر، وجَد مَكنالي، وهارولد داود – كلهم جزء من هذه العصابة، كل واحد منهم. الجزار، والخباز، وصانع الشمعدانات. سيكون علينا أن نقتلهم بأنفسنا، وحالما نشرع في ملاحقتهم، سوف يلاحقوننا هم أيضاً. وسوف تُسال دماءٌ كثيرة يا وولت، ومعظمها سيكون دماءنا نحن".

"هذا ليس عدلاً"، قلت له وأنا أقاوم دفقة أخرى من الدموع. "هذا ليس عدلاً، وليس صواباً".

"أنت تعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك، وما دام كلانا يعرف ذلك فلا خوف على إيسوب وماما سيو".

"إنهما يتعذبان أيها المعلم، ولن تنعم روحاهما بالطمأنينة حتى نفعل ما علينا أن نفعله".

"لا يا وولت، أنت مخطئ. فهما يرقدان في طمأنينة سلفاً".

"حقاً؟ وما الذي يجعلك خبيراً بما يفعله الموتى في قبورهم؟".

"لأنني كنت معهما. كنت معهما وتحدثت إليهما، ولم يعودا

يتألمان. يريدان منا أن نمضي في عملنا. هذا ما قالاه لي. يريداننا أن نتذكرهما من خلال الاستمرار في العمل الذي بدأنا به".

"ماذا؟" قلت وقد شعرت بقشعريرة مفاجئة تجتاح كياني. "عمَّ تتكلم بحق الجحيم؟".

"إنهما يأتيان إليّ يا وولت. في كل ليلة تقريباً على مدار الأشهر الستة الماضية. يأتيان إليّ ويجلسان على سريري، يغنّيان لي ويمسّدان وجهي. صدقني أنهما أسعدُ مما كانا في هذا العالم. إيسوب وماما سيو هما ملاكان الآن، ولم يعد بمقدر شيء أن يؤذيهما".

كان ذلك أغرب شيء سمعته في حياتي، لكن المعلّم ياهودي قاله بقناعة مطلقة وبقدر كبير من الصدق والهدوء إلى درجة لم أشك معها أنه يقول الحقيقة. وحتى لو لم يكن ذلك صحيحاً بالمعنى المطلق، فمن المؤكد أنه كان يؤمن به؛ وحتى لو أنه لم يؤمن به، فإنه يكون بذلك قد قدّم واحداً من أقوى العروض التمثيلية في التاريخ. كنت محموماً وعاجزاً عن الحركة، وأخذت أتخيل الرؤيا في رأسي وأحاول التركيز على صورة إيسوب وماما سيو وهما يغنيان للمعلم في منتصف الليل. ليس مهماً إن حدث ذلك أم لا، لكن الحقيقة أنه غيّر كل شيء بالنسبة إليّ. بدأ الألم يخف، وأخذت الغيوم السوداء تتبعثر وتتلاشى، وعندما قمت عن الطاولة في ذلك الصباح كان حزني قد تبدّد. ففي نهاية الأمر، هذا ما يهم في الدرجة الأولى. فإن كان المعلم قد كذب، فقد فعل ذلك لسبب ما. وإن لم يكذب، فإن القصة قد حدثت فعلاً ولا موجب للدفاع عنه. لكنه أنقذني، بطريقة أو بأخرى. وبطريقة أو بأخرى، أنقذ روحي من براثن الوحش.

بعد ذلك بعشرة أيام، استأنفنا من حيث توقفنا وغادرنا ويتشوتا في سيارة جديدة أخرى. كنا نكسب مالاً كافياً يمكننا من تحسين ظروف معيشتنا، ولذلك قمنا باستبدال سيارة الفورد بـ"السيارة العجيبة ٢"، وهي سيارة "بيرس آرو" فضية تحتوي على مقاعد جلدية ودوّاسات أبواب عريضة. كانت أمورنا المالية جيدة منذ بداية الربيع، مما يعني أن السيدة ويذرسبون قد استردّت النفقات الأولية التي صرفتها علينا، وكنا أنا والمعلم نملك حسابات مصرفية، ولم نعد بحاجة إلى الاقتصاد في مصاريفنا كما من قبل. كانت العملية قد تقدمت بعض الشيء: مدن أكبر للعروض، وفنادق صغيرة عوضاً عن الغرف البائسة التي تؤوي أجسادنا المنهكة، ووسيلة نقل محترمة ومريحة. كنت قد استعدت حيويتي بشكل كامل وصرتُ جاهزاً ومتحمساً للعودة إلى العمل، وخلال الأشهر القليلة التالية قدّمت عروضاً رائعة متتالية أضفتُ عليها بعض الحركات المثيرة. ألفت الحشود في ذلك الوقت، وكنت أشعر بالارتياح وأنا أقدم العروض، حتى إنني رحت أرتجل وأكتشف حركات جديدة أثناء العروض. في البداية، كنت ألتزم بالروتين المحدد وأتبع الخطوات التي عملنا عليها أنا والمعلم مسبقاً، لكنني تجاوزت ذلك الآن ولم أعد خائفاً من التجديد والتجريب. طالما شكلت الحركة نقطة قوتي، فقد كانت الشيء الأساسي الذي تقوم عليه عروضي ويميّزني عن بقية المرتقين الذين جاؤوا قبلي. لكن ارتقائي كان في حدود المعدل العام ولم يتجاوز خمسة أقدام. كنت أريد العمل على تحسين هذا الجانب وأضاعف هذا الارتفاع مرة أو مرتين إن استطعت، لكنني

لم أعد أملك ذلك الوقت الطويل للتدريب وحرية العمل السابقة بإشراف المعلّم ياهودي التي كانت تمتد إلى أكثر من عشر ساعات دون توقف. صرت محترفاً الآن، مع كل ما يتطلبه ذلك من أعباء وعروض، وكان المكان الوحيد الذي يمكنني التدرب فيه هو أمام الجمهور، أثناء العروض الحية.

وهذا ما فعلتُه، خاصّةً بعد تلك العطلة القصيرة التي قضيناها في ويتشوتا، وقد اكتشفت لدهشتي أن الضغط يشكل عامل إلهامٍ بالنسبة إليّ. تعود أفضل حركاتي إلى تلك الفترة، ولولا عيون المشاهدين التي تحثني على تقديم أفضل ما عندي لا أعتقد أنني كنت سأملك الشجاعة الكافية لتجربة نصف الأشياء التي قمت بها. بدأ ذلك كله بفقرة الدرج، وكانت المرة الأولى التي أستخدم فيها "معدّات غير مرئية"؛ وهو المصطلح الذي طلعت به لاحقاً لتوصيف اختراعي. كنا في شمال ميشيغان حينها، وفي وسط العرض تماماً، وفي اللحظة التي ارتفعتُ لكي أقطع البحيرة، لمحتُ بناءً بعيداً. كان هيكلاً كبيراً من القرميد، مستودعاً أو مصنعاً قديماً ربّما، وكان مزوداً بدرج حريق يمتد إلى أسفل أحد الجدران الخارجية. لم أتمكن من رفع نظري عن تلك الدرجات المعدنية. كان الضوء ينعكس عنها في تلك اللحظة بالذات، وكانت تلمع بشكل بهيّ تحت الشمس. ودون أي تردد، رفعتُ قدماً في الهواء، وكأنني على وشك تسلّق درج حقيقي، ثم وضعتها على درجة غير مرئية؛ ثم رفعت القدمَ الأخرى ووضعتها على الدرجة التالية. لم أشعر بأي شيء صلب في الهواء، لكنني كنت أرتقي إلى الأعلى وأصعد تدريجياً على درج يمتد من

طرف البحيرة إلى طرفها الآخر. ومع أنني لم أتمكن من رؤيته، إلا أن صورته كانت ماثلة في ذهني. وأعتقد، إن لم تخنّي ذاكرتي، أنه بدا على هذه الشاكلة:

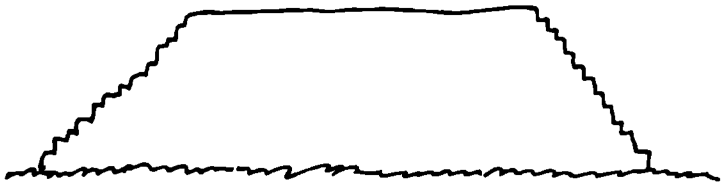

البحيرة

كانت نقطة الذروة – الواقعة في وسط المنطقة المنبسطة – على ارتفاع نحو تسعة أقدام ونصف عن سطح الماء؛ أي أعلى بأربعة أقدام من أي ارتفاع كنت قد حققته من قبل. المخيف في الأمر أنني لم أتردد قطّ. فحالما توضحت تلك الصورة في ذهني، عرفت أن بمقدوري الاعتماد عليها في قطع البحيرة. كان كل ما عليّ أن أفعله هو تتبّع شكل الجسر المتخيّل الذي سيحملني وكأنه موجود فعلاً. وبعد بضع لحظات، كنت أنزلق عبر البحيرة بسلاسة شديدة. اثنتا عشرة خطوة إلى الأعلى، واثنتان وخمسون خطوة عرضية، ثم اثنتا عشرة خطوة نزولاً. وقد جاءت النتيجة مثالية.

بعد ذلك الإنجاز، اكتشفت أن بمقدوري استخدام معدات أخرى تمكّنني من تحقيق نتائج مماثلة. فبما أنّني تمكنت من تخيّل الشيء الذي أريده، ومن تصوّره بدرجة عالية من الوضوح والدقة، فسوف أتمكن من استخدامه في العرض. بهذه الطريقة نجحت في تطوير

بعض أهم الفقرات التي أديتها في عروضي: روتين الحبل-السلّم، وروتين الانزلاق، وروتين الأرجوحة، وروتين السلك العالي، بالإضافة إلى عدد كبير من الابتكارات الأخرى التي طلعت بها. لم تقتصر أهمية تلك الحركات على زيادة متعة الجمهور فقط، بل عملت على تأسيس علاقتي الجديدة بعملي أيضاً. لم أعد مجرد شخص آلي، أو مهرجاً يؤدي الخدع نفسها في عروضه كلها؛ كنت أتحول إلى فنان، إلى مبدع حقيقي يؤدي حركاته لنفسه بالقدر الذي يؤديها من أجل الآخرين. ما أثار حماستي هو ذلك الحسّ الارتجالي، والمغامرة التي تنطوي عليها الأشياء الجديدة التي تتخلّق من كل عرض أؤديه. إن كان دافعُك الوحيد أن تكسب حب الآخرين وتفوز بدعم الحشود، فسوف تكتسب عادات سيئة وسوف يسأم منك الجمهور في نهاية المطاف. عليك أن تختبر نفسك باستمرار وتدفع بموهبتك إلى أقصاها. تفعل ذلك من أجلك أنت، لكن محاولاتك المتكررة تلك هي التي تزيد من حب معجبيك لك. هنا يكمن التناقض. إذ يشعر الناس أنك تجازف من أجلهم. تسمح لهم بالمشاركة في ذلك الغموض وفي ذلك الشيء الخفي الذي يدفعك إلى فعل ما تقوم به، وعندما يحدث ذلك لا تعود مجرد مؤدٍّ بل تبدأ بالتحول إلى نجم حقيقي. في خريف سنة ١٩٢٨، كنت قد وصلت إلى تلك المرحلة وكنت على وشك أن أتحول إلى نجم.

في منتصف شهر أكتوبر وجدنا أنفسنا في وسط إلينوي، حيث كنا نقدم بعض الحركات الختامية قبل عودتنا إلى ويتشوتا لقضاء عطلة مستحقة. إن لم تخنّي ذاكرتي، كنا قد انتهينا لتونا من عرضٍ في

مدينة غيبسون، وهي واحدة من تلك المدن الصغيرة الضائعة تنقّط أفقَها الأبراجُ المائية وصوامع الحبوب. تعتقد، من مسافة بعيدة، أنك تقترب من مدينة ضخمة، وما إن تصل إليها حتى تكتشف أن صوامع الحبوب تلك هي كل تملكه. كنا قد تركنا الفندق، نجلس في كافتيريا على الشارع الرئيسي ونحتسي بعض المشروبات المنعشة قبل أن نقفز إلى السيارة وننطلق. كانت ساعة ميتة من النهار، بين الإطار والغداء، وكنّا، المعلّم ياهودي وأنا، الزبونين الوحيدين. كنت قد أفرغتُ كأسَ الشوكولا الساخنة، على ما أذكر، عندما جلجلَ جرسُ الباب ودخل زبونٌ ثالث. ومن باب الفضول فقط، رفعت عينيّ لألقي نظرة على الواصل الجديد الذي تبيّن أنه عمي سليم، ذلك الرجل الأعجوبة الذي يفتقر إلى الذقن. ومع أن الجو كان بارداً في ذلك اليوم، فقد كان يرتدي بزة صيفية رقيقة. كانت الياقة مرفوعة على رقبته، ويمسك نصفي الجاكيت بيده اليمنى. كان يرتعش وهو يقطع مدخل الكافتيريا ويبدو أشبه بكلب تشيواوا ألقت به الرياح الشمالية، ولو لم تفاجئني رؤيته لضحكتُ من منظره.

كان ظهر المعلّم ياهودي إلى الباب. وعندما لاحظ التعبير الذي ارتسم على وجهي (الذي تحول إلى اللون الأبيض بالتأكيد)، التفت إلى الخلف ليرى ذلك الشيء الذي أربكني بتلك الطريقة. كان سليم لا يزال واقفاً عند المدخل، يفرك يديه ويستطلع المكان بعينيه الحولاوين، وفي اللحظة التي أمعن النظر فينا ارتسمت على وجهه واحدة من تلك الابتسامات البغيضة التي طالما كرهتها في صغري. لم يأتِ هذا اللقاء صدفةً. فقد جاء إلى مدينة غيبسون ليتكلم معي،

وكما أنني متأكد من أن ستة وسبعة تساويان ثلاثة عشر، وهو الرقم الأكثر شؤماً، كنت واثقاً من أننا نحدّق في كتلة من المشاكل.

"يا لها من مصادفة عجيبة"، قال وهو ينزّ لطفاً زائفاً ويتوجه نحو طاولتنا. "تخيلوا ذلك. آتي إلى هذه المنطقة النائية في عمل شخصي، وأدخل إلى كافتيريا محليّة لأشرب كأساً من العصير، فأصادف ابنَ أخي الضائع منذ زمن طويل، صغيري وولت، مهجة قلبي، الصبي المعجزة ذا الوجه المنمّش. إن القدر هو الذي رماني هنا بالتأكيد. مثل العثور على إبرة في كومة من القش". ومن دون أية كلمة من المعلم أو مني، جلس في الكرسي الفارغ بالقرب مني. "لا تمانعان جلوسي، أليس كذلك؟ فأنا أشعر بالغبطة الشديدة لهذه المناسبة السعيدة، وعليّ أن أعبّر عن فرحتي هذه قبل أن يُغمى عليّ". ثم ضربني على ظهري وعبث بشعري وهو لا يزال يتظاهر بالسعادة الغامرة لرؤيتي؛ ربما كان صادقاً في ذلك، ولكن ليس لأيّ من الأسباب التي تسبب السعادة لشخص عادي. شعرت بالقشعريرة عندما لمسني بتلك الطريقة. تلوّيت محاولاً تفادي يده، لكنه لم يُلقِ بالاً لصدّي له بتلك الطريقة واستمر في الثرثرة بطريقته الكريهة تلك وإبراز أسنانه البنية الملتوية كلما سنحت له الفرصة. "حسناً يا عزيزي"، تابع قائلاً، "يبدو أن أمورك تسير جيّداً في هذه الأيام، أليس كذلك؟ فتبعاً لما قرأته في الصحف، أنتَ نجمُ الآن، وأعظم ظاهرة منذ اختراع خبز الشعير. لا بد أن معلمك هنا فخور جداً بك؛ ولا أقصد بذلك الفخر العادي فقط، بما أن محفظته مليئة بالنقود الآن. لا يمكنني أن أعبر لك عن سعادتي يا وولت وأنا أرى قريبي يصنع

اسماً له في هذا العالم الكبير".

"ادخل في الموضوع يا صديقي"، قال المعلّم مقاطعاً مونولوجَ سليم. "كنت أنا والصبي على وشك الخروج، وليس لدينا الوقت للثرثرة الفارغة".

"اللعنة"، قال سليم متظاهراً بالإهانة، "أليس بإمكان رجل أن يدردش قليلاً مع ابن أخته؟ لَمَ العجلة؟ فمن شكل تلك الآلة المصفوفة عند المنعطف، يمكنكما الوصول إلى وجهتكما خلال وقت قصير".

"ليس لدى وولت ما يقوله لك"، قال المعلم، "ومن وجهة نظري أنا، ليس لديك ما تقوله له".

"لا أعتقد ذلك"، قال سليم وهو يُخرج السيجار المتغضن من جيبه ويشعله. "لديه الحق في أن يعرف ما حدث لزوجة خاله المسكينة بيغ، ولدي الحق لأخبره بذلك".

"ما الذي حدث لها؟" قلت بصوتٍ أقرب إلى الهمس.

"الصبي قادر على الكلام!" قال سليم وهو يقرص خدي بحماسة ساخرة. "فقد ظننت لوهلة أنه قد قطع لسانك يا وولت".

"ما الذي حدث لها؟" قلْتُ مكرّراً سؤالي.

"لقد ماتت يا بنيّ، هذا ما حدث لها. جرفها ذلك الإعصار الذي دمر سينت لويس السنة الماضية. انهار المنزل كله فوقها، وكانت تلك نهاية بيغ اللطيفة. حدث الأمر بتلك البساطة".

"ونجوتَ أنت"، قلت له.

"كانت مشيئة الله"، قال سليم. "من باب المصادفة، كنت في الجانب الآخر من المدينة أقوم بعملي على أكمل وجه".

"من المؤسف أن الأمر لم يكن معكوساً"، قلت له. "الخالة بيغ لم تكن امرأة عظيمة، ولكن على الأقل لم تكن تضربني كما كنت تفعل أنت".

"على رسلك"، قال سليم، "يجب ألّا تكلّم خالك بهذه الطريقة. فأنا من لحمك ودمك يا وولت، ولست مضطراً لتلفيق الأكاذيب عني، خاصّةً أنّي هنا في مهمة غاية في الأهمية. يجب أن نتكلم في بعض الأمور أنا والمعلّم ياهودي، ولست بحاجة لهذه الترهات التي من شأنها أن تعرقل أعمالنا".

"أظنّ أنك مخطئ"، قال المعلّم. "ليس لدينا، أنا وأنت، ما نتكلم فيه. لقد تأخرنا وسوف نستأذن منك".

"ليس بهذه السرعة يا سيد"، قال سليم وقد نسي فجأة لطفه الزائف. كان صوته يرشح فظاظة وغضباً، كما أتذكّره دائماً. "لقد عقدنا صفقة أنا وأنت، ولن أسمح لك بالإفلات من التزاماتك الآن".

"صفقة؟" قال المعلم. "وأية صفقة هذه التي تتحدث عنها؟".

"الصفقة التي عقدناها في سينت لويس قبل أربع سنوات. هل كنت تظن أنني سأنسى ذلك؟ أنا لست غبياً، لمعلوماتك. وعدتني بجزء من الأرباح، وأنا هنا لكي أطالب بحصتي من هذه الأرباح. بخمسة وعشرين في المئة. هذا ما وعدتني به، وهذا ما أريد أن أحصل عليه".

"كما أذكر، يا سيد سباركس"، قال المعلم محاولاً لجمَ غضبه، "كنتَ على وشك أن تقبّل قدميّ عندما عرضتُ عليك أن آخذ الصبي وأريحك منه. كنت تتوسل إلي وتقول لي كم أنت سعيد بالتخلص

منه. هذه هي الصفقة التي عقدناها. أنا طلبت الصبي، وأنت أعطيته لي".

"كانت لي شروطي. وقد أخبرتك بها، وأنت وافقت عليها. خمسة وعشرون في المئة. ولن تنكر عليّ هذه الصفقة الآن. لقد وعدتني، وأنا صدقت وعدك لي".

"عش في حلمك هذا إذاً. إن كنت تعتقد بوجود صفقة كهذه، فأرني العقد. أرني الورقة التي تقول إنني مدين لك بقرش واحد".

"لقد صافحتني على الوعد. كانت اتفاقية جنتلمان قائمة على الثقة".

"لديك خيالٌ واسع، يا سيد سباركس، لكنك كذاب ونصّاب. إن كنت تملك أي شيء ضدي، فجد لك محامياً، وسوف نرى مصداقية زعمك هذا في المحكمة. ولكن إلى أن يحدث ذلك، تفضل واغرب عن وجهي". ثم التفت المعلّم إليّ وقال، "هيا يا وولت، دعنا نذهب. إنهم بانتظارنا في أوربانا، وليس لدينا أي وقت نضيعه".

رمى المعلم دولاراً على الطاولة ثم وقف، فوقفت معه. لكن سليم لم يكن قد انتهى من كلامه، وختم اللقاء بإطلاق بعض التهديدات ونحن نغادر الكافتيريا. "تظن أنك ذكي يا سيد، لكن لم تنتهِ مني بعد. لا أحد يصف إدوارد جي سباركس بالغبي وينفذ بذلك، هل تسمعني؟ على راحتك، اخرج بالطريقة التي تريدها؛ لا يهم. لكن هذه هي المرة الأخيرة التي تدير فيها لي ظهرك. احذر يا صديقي. سوف ألاحقك. سوف ألاحقك، أنت وذلك الصبي القذر، وعندما أتمكن منكما، سوف تندم على الطريقة التي كلمتني بها. سوف تندم

حتّى اليوم الذي تموت فيه".

لاحقنا حتى باب الكافتيريا وهو يُمطرنا بالتهديدات إلى أن صعدنا إلى السيارة وشغّل المعلّم المحرك. ابتلعت الضجة كلمات خالي، لكنّ شفتيه كانتا لا تزالان تتحركان، ورأيت أوداج رقبته تنتفخ من الغضب. هكذا بدا عندما تركناه؛ في قمة غضبه، وهو يراقبنا نغادر المكان ويهزّ قبضته ويطلق تهديداته الغامضة. كان خالي قد أمضى أربعين سنة متجولاً في الصحراء، وكل ما أنجزه تاريخ من العثرات والقرارات الخاطئة التي قادت إلى فشل ذريع. وأنا أراقب وجهه عبر زجاج السيارة الخلفي، أدركتُ أنه قد وجد لنفسه قضية الآن، وأن الوغد قد وجد أخيراً رسالته في هذه الحياة".

حالما خرجنا من المدينة، التفت المعلم إليّ وقال: "ذلك الثرثار لا يملك أي شيء يستند إليه. إنها مجرد خدعة، مجرد هراء من البداية حتى النهاية. لقد ولد فاشلاً، وإن تجرأ واقترب منك يا وولت، سوف أقتله. أقسم على ذلك. سأقطّع ذلك الأفّاق إلى قِطَع، وسوف يعثرون على بقاياه في كندا بعد عشرين عاماً من الآن".

كنت فخوراً بالطريقة التي تصرّف بها المعلّم في الكافتيريا، لكن ذلك لم يخفّف من قلقي. كان شقيق أمي الأكبر زبوناً مخادعاً، وبعد أن وضع شيئاً في رأسه الآن، فلن يحيد عن هدفه ذاك. من ناحيتي، لم أكن أرغب في رؤية الخلاف من وجهة نظره. ربما كان المعلّم قد وعده بخمس وعشرين في المئة وربما لم يفعل ذلك، لكن هذا انتهى كله الآن والشيء الوحيد الذي كنت أرغب فيه هو التخلص من ذلك الكلب إلى الأبد. كان قد ضربني مراراً وتكراراً ورمى بي على

الجدران، ولم أكنّ له سوى مشاعر الكراهية، وسواء كان له الحق في تلك الأموال أم لا، لم يكن يستحق قرشاً واحداً منها. ولكن لم تكن لمشاعري تلك أية أهمية، ولا لمشاعر المعلّم. كان الأمر منوطاً بسليم الآن، وكنت واثقاً أنه سيلاحقنا، وأنه سيستمرّ في ملاحقتنا إلى أن يحكم قبضته على رقبتي.

لم تغادرني هذه المخاوف والهواجس. كانت تخيّم على جميع الأشياء التي حدثت خلال الأيام والأشهر التالية، وقد تمكنت مني إلى درجة أنها أفسدت عليّ متعة النجاحات المتواصلة التي كنت أحقّقها. كان الأمر سيئاً جداً في البداية. فحيثما ذهبنا، وفي كل مدينة سافرنا إليها، كنت أتوقع ظهور سليم ثانية. فسواء كنت جالساً في مطعم، أو أتمشى في بهو الفندق، أو أنزل من السيارة؛ كنت أتوقع رؤية خالي في أية لحظة وهو ينبثق من نسيج حياتي دون سابق إنذار. هذا ما جعل الوضع صعباً عليّ؛ الشك، وفكرة تحطم سعادتي كلها بلمح البصر. وكان المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان هو الوقوف أمام الحشد وتقديم العرض. لن يتجرأ سليم على القيام بأي شيء أمام الناس، ليس وأنا أشكل مركز الاهتمام على الأقل، ومع ذلك القلق الذي يلازمني في بقية الأوقات تحول الأداءُ إلى نوع من الراحة الذهنية وانحسار ذلك الرعب المتربّص بقلبي. غصتُ في عملي كما لم أفعل من قبل وأحببت فيه الحرية والحماية اللتين زودني بهما. كان شيء قد تحول في داخل روحي، وأدركت ماهيتي الجديدة: لم أعد وولتر رولي، ذلك الصبي الذي يتحول إلى "الصبي المعجزة وولت" لساعة واحدة في اليوم، بل "الصبي المعجزة وولت" على

طول الخط، الشخص الذي لا يوجد إلا عندما يكون معلقاً في الهواء. كانت الأرض وهماً، أرضاً قفراً مزروعة بالألغام والظلال، وكان كل ما يحدث هناك زيفاً بزيف. بدا الهواء وحده حقيقياً الآن، وكنت أعيش ثلاثاً وعشرين ساعةً في اليوم غريباً عن نفسي، نائياً عن مُتعي وعاداتي القديمة، مجرد كتلة منكمشة من اليأس والخوف.

مدّني العملُ بالاستمرارية، وكان متواصلاً لحسن الحظ، حيث كانت حجوزات الشتاء كاملة. وبعد عودتنا إلى ويتشوتا، قام المعلم بتنظيم جولة محكمة تتخللها عروض أسبوعية. فمن بين جميع التفاصيل التي عمل عليها، تمثلت ضربتُه الأكثر ذكاءً في أخذنا إلى فلوريدا في ذروة الطقس البارد. بقينا هناك من أواسط شهر يناير حتى نهاية مارس، حيث قمنا بتغطية شبه الجزيرة تلك من أعلاها إلى أسفلها، وقد رافقتنا السيدة ويذرسبون في هذه الرحلة الطويلة، للمرة الأولى والأخيرة. وخلافاً للهراء الذي يقول إنها فأل سيئ، لم تجلب لي سوى المزيد من الحظ الجيد؛ ليس فقط في ما يتعلق بسليم (لم نره قطّ)، بل بخصوص الحضور الغفير أيضاً، وشبابيك التذاكر، والرفقة الجيدة (كانت، مثلي، تحب الذهاب إلى السينما). كانت تلك أيامَ ازدهار الاستثمارات العقارية في فلوريدا، وبدأ الأثرياء يتدفقون على الولاية في البزز البيضاء وعقود الألماس لقضاء الشتاء في الاحتفال والرقص تحت أشجار النخيل. كانت تجربتي الأولى أمام حشد من الأثرياء. قمت بتأدية عروضي في النوادي الريفية، وملاعب الغولف، والمزارع الضخمة، وقد نلت إعجاب أولئك المتأنقين الأثرياء ذوي الدماء الزرقاء كما نلت إعجاب الفقراء والبائسين من قبل. لم يكن

هناك أي فارق بين الحالتين. كان عرضي يصلح للجميع، وقد أثّر في الجميع بالطريقة نفسها، الأثرياء منهم والفقراء.

بعد عودتنا إلى كانساس، بدأت أشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة. لم يظهر سليم طوال خمسة أشهر وأكثر، واعتقدت أنه لو كان يخطط لأية مفاجأة، لطلع بها خلال تلك الفترة. وعندما انطلقنا ثانية ميمّمين صوب الغرب الأوسط في نهاية شهر أبريل، كنت قد أقلعت عن التفكير فيه. بدا ذلك المشهد المخيف الذي حصل في مدينة غيبسون جزءاً من الماضي البعيد، وكأنه لم يحصل قطّ. كنت أشعر بالارتياح والثقة، وإن كان هناك أي شيء يشغل تفكيري بالإضافة إلى العروض فقد كان ذلك الشعر الذي أخذ ينمو تحت إبطيّ وحول عانتي؛ ذلك التبرعم المتأخر الذي أعلن دخولي إلى أرض الأحلام الرطبة والأفكار القذرة. كنت قد تخليت عن حذري وخوفي، وكما توقعت مسبقاً، وكما انتابني الخوف عندما بدأ ذلك كله، هوَت شفرة المقصلة في اللحظة التي لم أكن أتوقعها قطّ. كنا أنا والمعلم في نورثفيلد، في مينيسوتا، وهي مدينة صغيرة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من سينت بول، وكعادتي قبل العروض المسائية ذهبت إلى السينما لأروّح عن نفسي لساعتين من الزمن. كانت صناعة الأفلام مزدهرة في ذلك الوقت ولم أكن أشبع منها، فأذهب إلى السينما كلما سنحت لي الفرصة، وفي بعض الأحيان كنت أشاهد الفيلم نفسه ثلاث أو أربع مرات. في ذلك اليوم بالذات، كانوا يعرضون فيلم "جوز الهند"، وهو فيلم كوميدي من إنتاج الأخوين ماكس وتدور أحداثه في فلوريدا. كنت قد شاهدته من قبل،

لكنني كنت معجباً جداً بأولئك المهرجين، وخاصة هاربو، المهرج الصامت ذا الجمّة المستعارة الشعثاء والأنف الكبير، وسارعت لرؤيته حالما سمعت أنهم يعرضونه في ذلك المساء. كانت الصالة كبيرة بعض الشيء، تتسع لمئتي أو ثلاثمئة شخص، ولكن بسبب الطقس الربيعي الجميل، لم يكن هناك أكثر من عشرة أشخاص. لم أهتم لذلك بالطبع. جلست في مقعدي ومعي كيس من الفُشار وغرقت في نوبة من الضحك المتواصل متجاهلاً الأشخاص الآخرين المتناثرين في الظلام. وبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة على بداية العرض، شممتُ رائحة غريبة، أشبه برائحة الأدوية، تفوح خلفي تماماً. كانت رائحة قوية، وكانت تتكثف مع مرور كل ثانية. وقبل أن أتمكن من الالتفات لمعرفة مصدر تلك الرائحة، كان كيسٌ مبلّلٌ بذلك المزيج الكريه قد أطبق على وجهي. حاولت نزعه عن وجهي لكن يداً دفعتني إلى الخلف، وقبل أن أتمكّن من استجماع قوتي والمحاولة من جديد، شعرت بقواي تخور فجأة. تراخت عضلاتي، وأخذ جلدي يذوب كالزبدة السائلة، وانفصل رأسي عن جسدي. وبغض النظر عن المكان الذي وجدت نفسي فيه بعدها، فقد كان مكاناً لم آلفْه من قبل.

كنت قد تخيّلت جميع أنواع المعارك والمواجهات مع سليم – تبادل اللكمات، والتشليح، والطلقات التي تلعلع في الأزقة المظلمة – ولكن لم يخطر في بالي قطّ أنه سيخطفني. لم تكن من عادة خالي أن يفعل شيئاً يتطلب التخطيط على مدى بعيد. فقد كان شخصاً عصبياً أحمقَ يتورّط في الأشياء بشكل ارتجالي، وإن كان قد غيّر من عادته لأجلي فهذا يكشف عن عمق المرارة التي يشعر بها والإزعاج الذي سبّبه له نجاحي. كنت الفرصة الكبيرة الوحيدة المتبقية له، ولم يكن ليضيّعها من يديه. ليس هذه المرة. سوف يتصرف كرجل عصابات حقيقي، كمهنيّ ماهر يفكر في الأمر من جميع الزوايا، وسوف ينال منا. لم يكن يرغب في فعل ذلك من أجل المال فقط، ولا من أجل الانتقام فقط؛ كان يريد الاثنين معاً، وقد جاء اختطافي للمطالبة بفدية بمثابة الخلطة السحرية التي من شأنها أن تقتل عصفورين بحجر واحد.

كان له شريك هذه المرة؛ لصٌّ بدينٌ اسمه فريتز. وعلى الرغم من أنّ الاثنين معتوهان، فقد نجحا في إخفائي. في البداية وضعاني في كهفٍ يقع على مشارف نورثفيلد، كان عبارة عن حفرة رطبة قذرة قضيت فيها ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فيما ساقاي مربوطتان بحبالٍ ثخينة وقطعة من القماش مشدودة على فمي؛ ثم أعطياني جرعة ثانية من المخدر ونقلاني إلى مكان آخر كان عبارة عن قبوٍ في أحد الأبنية

السكنية المهجورة في مينابولس أو سينت بول. بقيت هناك يوماً واحداً فقط، ومن هناك عدنا بالسيارة إلى الريف لنستقر في منزل مهجور يملكه أحد المنقبين عن الذهب في جنوب داكوتا، كما عرفت لاحقاً. بدا المكان هناك أشبه بالقمر من الأرض، نائياً وساكناً وخالياً من الأشجار، وكنا بعيدين جداً عن أقرب طريق بحيث إن تمكنت من الفرار فسوف أقضي ساعات طويلة قبل أن أتمكن من طلب المساعدة. كانا قد خزّنا في المكان بعض الأغذية المعلبة التي تكفي لشهرين، وكانت جميع العلائم تشير إلى حصار طويل يهدّ الأعصاب. هكذا قرر سليم إدارة اللعبة؛ بقدر ما يمكنه من البطء. كان يريد أن يجعل المعلّم يتلوّى من القلق والألم، وإن تطلّب الأمر إلى دفع الأشياء إلى أبعد من ذلك فسوف يكون ذلك أفضل. لم يكن في عجلة من أمره. كان يتلذذ بما يفعله؛ فلماذا يضع حداً له قبل أن يقضي وطره؟ مكتبة سُر مَن قرأ

لم أره متغطرساً بذلك الشكل من قبل؛ متخايلاً ومسروراً من نفسه. كان يتمشّى حول ذلك الكوخ مثل جنرال عظيم، يطلق الأوامر ويضحك على النكت التي يرويها بطريقة تشي بالهستيريا والعته التام. شعرت بالتقزز لرؤيته في تلك الهيئة، ولكن في الوقت نفسه وفّرت عليّ التعرض لذلك القدر الكبير الذي يمتلكه من القسوة. فبعد أن نجح في تنفيذ خطته على أكمل وجه، استطاع أن يكون سخياً، ولم يعاملني قطّ بالطريقة الوحشية التي توقّعتها منه. هذا لا يعني أنه لم يكن يصفعني بين الفترة والأخرى أو يلطمني على فمي أو يلوي أذني حين يحلو له ذلك، لكن معظم الإساءات التي تلقيتها منه جاءت على

شكل إهانات وإساءات لفظية. لم يسأم قطّ من القول كيف أنه "قلب الطاولة على ذلك اليهودي التافه"، أو السخرية من حبّ الشباب الذي كان يملأ وجهي ("انظر، دملة أخرى مليئة بالقيح"؛ "يا إلهي، هناك الكثير من فتحات البركان التي تملأ جبينك")، أو تذكيري بأن مصيري قد صار بين يديه الآن. ولكي يؤكد على هذه النقطة الأخيرة، كان أحياناً يتمشى نحوي وهو يبرّم مسدساً على إصبعه ويضغط فوهته على جمجمتي. "هل ترى ما أعنيه، أيها الصبي؟"، كان يقول ومن ثم ينفجر ضاحكاً. "ضغطة خفيفة على هذا الزناد هنا ويطرش دماغك على الحائط". ومرّة أو مرتين، ضغط على الزناد بهدف إخافتي فقط. وبما أنّه لم يحصل على الفدية، كنت واثقاً أنه لن يجرؤ على حشو ذلك المسدس بالذخيرة الحية.

لم يكن الأمر نزهة، لكنني اكتشفت أن بمقدوري التعامل مع تلك الأمور. عصيّ وحجارة، كما يقولون، وقد أدركت أن الاستماع لتهديداته أفضل من تحطيم عظامي. يكفي أن أحافظ على صمتي وأتفادى استفزازه حتّى يهدأ بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة. وبما أنهما كانا يكمّمان فمي في معظم الأوقات، لم يكن لي أي خيار في جميع الأحوال. ولكن حتى عندما تتحرّر شفتاي، كنت أفعل ما بوسعي لأتجاهل إهاناته. طلعتُ بالعشرات من الشتائم المقذعة، لكنني احتفظت بها لنفسي وقد أدركت أنني كلّما تفاديت الجدال والعراك مع ذلك الوغد أمِنتُ شرَّه أكثر. وفي ما عدا ذلك، لم يكن لدي شيء آخر أتعلّق به. كان سليم مجنوناً إلى درجة لا يمكنك معها الوثوق به، ولم تكن هناك أية ضمانة أنه لن يحاول قتلي بعد أن

يحصل على المال. لم يكن بمقدوري أن أعرف ما يدور في ذهنه، وقد عذبني ذلك أكثر من أي شيء آخر. كان بمقدوري أن أحتمل مشقات الاحتجاز، لكن رأسي كان مليئاً بصور ما سيحدث لاحقاً: الذبح، أو رصاصة في الرأس، أو سلخ جلدي عن عظمي.

لم يحاول فريتز التخفيف عني. كان أشبه بالعبد المأمور؛ بديناً أحمق ينفّذ ما يأمره به سليم بنوع من التثاقل. كان يطبخ الفاصولياء على مدفأة الحطب، ويمسح الأرض، ويفرغ علب الخراء، ويعدّل ويُحكم الحبال حول ذراعيّ وساقيّ. الله يعلم كيف وقع سليم على هذه الكتلة البشرية المقيتة، ولكن لا أعتقد أنه كان يحلم برجل أكثر طاعةً منه. كان فريتز الخادم، والساقي، والصبي، والبغل الأحمق الذي لا يشكو ولا يتذمر. بقي صابراً طوال تلك الأيام والليالي وكأن تلك المنطقة القفر كانت أجمل منتجع في أميركا كلها، وكان سعيداً بالجلوس والانتظار والتحديق عبر النافذة والتنفس. فعلى مدار عشرة أيام أو اثني عشر يوماً لم يكن يكلمني في أي شيء، ثم بعد إرسال ورقة الفدية إلى المعلّم ياهودي بدأ سليم يذهب إلى المدينة كل صباح ربما لإرسال الرسائل أو إجراء المكالمات الهاتفية أو تقديم طلباته بأسماء أخرى، وصرنا أنا وفريتز نقضي فترة من كل يوم معاً. لا أريد القول إننا وصلنا إلى نوع من التفاهم بيننا، ولكن على الأقل لم يكن يخيفني على غرار سليم. لم يكن لدي فريتز أي شيء شخصي ضدي. كان يقوم بعمله فقط، وسرعان ما عرفت أنه يجهل ما يخبئه المستقبل بقدر ما أجهله أنا.

"سوف يقتلني، أليس كذلك؟" قلت له مرة وأنا أجلس في كرسي

بينما يُطعمني وجبة الغداء المكونة من الفاصولياء والكراكرز. كان سليم خائفاً من فكرة هربي وكان يتركني مقيداً دائماً، حتى وأنا آكل أو أنام أو أتغوط. ولذلك كان فريتز يُطعمني بالملعقة ويدفعها في فمي وكأنني طفل رضيع.

"ها؟" ردّ فريتز بطريقته السريعة المتأهبة. بدت عيناه فارغتين وكأن عقله قد علق في زحمة السير بين بتسبيرغ وجبال أليغني. "هل قلت شيئاً؟".

"سوف يتخلص مني، أليس كذلك؟" قلت له ثانية. "أعني، ليس أمامي أية فرصة للخروج من هنا حياً".

"لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع يا صاحبي. خالك لا يخبرني بأي شيء ينوي فعله. فهو يفعل ما يريده هو".

"وأنت ليست لديك مشكلة في أنه لا يخبرك بأي شيء؟".

"لا، لا مشكلة لدي. فما دمت أحصل على حصتي، لماذا تكون لدي مشكلة؟ ما يفعله بك ليس من شأني أبداً".

"وما الذي يضمن لك أنه سيعطيك حصتك؟".

"لا شيء. ولكن إن لم يفعل ذلك سأقتله".

"لن ينجح الأمر يا فريتز. كل تلك الرسائل التي يرسلها سليم من مركز البريد في المدينة – سوف يعثرون عليكما خلال وقت قصير، خلال وقت قصير جداً".

"ها، فكرة ذكية. هل تظن أننا غبيّان؟".

"نعم، هذا ما أظنه. غبيّان جداً".

"ها. وماذا لو قلت لك إن لدينا شريكاً آخر؟ وماذا لو كان ذلك

الشريك هو الشخص الذي يتلقى تلك الرسائل؟".

"وماذا لو قلت لي؟".

"نعم، وكأنني لم أقل لك. هل تفهم ما أعنيه يا صاحبي؟ هذا الشريك الآخر يقوم بإرسال الرسائل إلى الأشخاص الذين سيدفعون المال. لذلك لن يتمكنوا من العثور علينا هنا".

"وماذا عنه، ذلك الشخص الذي تنسقون معه؟ هل هو غير مرئي أو شيء من هذا القبيل؟".

"نعم، صحيح. أخذ بودرة الإخفاء تلك وارتفع مع الدخان".

كان ذلك أطول حديث أجريه معه؛ فريتز في ذروة فصاحته وثرثرته. لم يكن لئيماً معي، لكنه كان في غاية البرود ويؤدي دوره بمهارة وإتقان مما حال دون وصولي إليه. لم يكن بمقدوري أن أقلبه ضد خالي سليم، ولم أتمكن من إقناعه بفك الحبال ("آسف يا صاحبي، لا أستطيع")، ولم أتمكن من زعزعة ولائه قيد أنملة. كان أي شخص آخر سيجيب عن أسئلتي بواحدة من طريقتين: أن يقول لي إن ذلك صحيح أو غير صحيح. نعم، كان سيقول إن سليم يخطط لقتلي، أو كان سيربت على رأسي ويطمئنني بأن مخاوفي لا أساس لها من الصحة. حتى لو كذب ذلك الشخص وهو يقول تلك الأشياء (لأية أسباب، جيدة كانت أم سيئة)، كنت سأحصل على إجابة مباشرة. ولكن ليس مع فريتز. كان فريتز في غاية الصدق، وبما أنه لم يتمكن من الإجابة عن سؤالي، قال إنه لا يعرف، ونسيَ أن اللباقة الإنسانية العادية تتطلب من الشخص تقديم إجابة حاسمة على سؤال مصيري من ذلك النوع. لكن فريتز لم يتعلم قواعد السلوك الإنساني.

كان منحطاً وغبياً، ويمكن لأي صبي صغير أن يدرك أن الحديث معه مجرد مضيعة للوقت.

لقد قضيت وقتاً رائعاً في داكوتا الجنوبية؛ وقتاً رائعاً حقاً مليئاً بالضحك المتواصل والتسلية. كنت مقيداً ومكموم الفم لأكثر من شهر ومرمياً في غرفة موصدة مع اثني عشر معولاً ومذراة لتسليتي، وأنا على ثقة من أنني سأموت ميتة وحشية. كان أملي الوحيد أن المعلم سينقذني، وقد حلمتُ بشكل متكرر كيف سيهاجم هو ومجموعة من الرجال الكوخَ ويقيدون فريتز وسليم بالأصفاد ويعيدونني إلى عالم الأحياء. لكن الأسابيع مرت دون أن يتغير شيء. وعندما تغيرت الأمور، تغيرت إلى الأسوأ. فحالما بدأت رسائل الفدية والمفاوضات، لاحظتُ تصلباً تدريجياً في موقف ومزاج سليم ينمّ عن انحسارٍ خفيف في ثقته. لقد أصبحت اللعبة جدية الآن. تراجعت دفقة الحماسة الأولية، وشيئاً فشيئاً تلاشت دعاباته لتفسح المجال أمام شخصيته القذرة والعصبية القديمة. كان ينقّ على فريتز، ويتذمر حول الطعام البسيط، ويكسر الصحون على الحائط. تلك كانت العلامات الأولى، ثم تلتها سلوكيات أخرى: ركلي وإيقاعي عن الكرسي، والسخرية من جذع فريتز البدين، وإحكام الحبال حول جسمي كله. بدا واضحاً أن الضغط بدأ ينال منه، لكنني لم أعرف السبب الذي أدى إلى هذه التغيرات. لم أكن أعرف ما يدور في الغرفة المجاورة، ولم أقرأ رسائل الفدية أو أرَ المقالات الصحفية المكتوبة عني، والقليل الذي كنت أسمعه من خلال الباب كان غامضاً ومجزأً بحيث لم أتمكن من فهم شيء منه. كل ما عرفته أن سليم بدأ يعود إلى

طبيعته تدريجيّاً. كان ذلك في غاية الوضوح، وحالما عاد إلى طبيعته الأصلية أدركت أن ما حدث حتى الآن سوف يبدو أشبه بنزهة إلى جزر الأنتيل الصغرى على متن يختٍ فاخر.

مع بداية شهر يونيو، كان قد وصل إلى مرحلة الانهيار. حتى فريتز، فريتز الهادئ المتثاقل، بدأ يُبدي أعراضاً تشي بالإنهاك والعصبية، وكنت أرى في عينيه أنه بدأ يتحسس من سخرية سليم المتواصلة منه. أصبح ذلك موضوع صلواتي الأول - أن ينشأ بينهما الشقاق - ولكن حتى لو لم يصل الأمر إلى تلك المرحلة، كنت أشعر بالارتياح الكبير لرؤية الأحاديث الدائرة بينهما تتحول في غالب الأحيان إلى شجار يتبدى، في معظم الأحيان، في إهانات يوجهها سليم لفريتز واعتكاف فريتز في الزاوية وتحديقه في الأرض وتلفظه ببعض الشتائم بصوت خافت. يكفي أن هذه الحالة الجديدة قد رفعت عن كاهلي بعض العبء. ومع وجود الكثير من المخاطر التي تحوم في الجو، كان نسياني لخمس أو عشر دقائق بمثابة نعمة حقيقية.

في كل يوم كان الطقس يزداد حرارة ويترك آثاره على جسدي. بدت الشمس كأنها لم تعد تغرب، وكنت أحكّ جلدي باستمرار بسبب الحبال الملتصقة به. ومع قدوم الحرارة، امتلأت الغرفة التي كنت أقضي فيها معظم الوقت بالعناكب. كانت تدب على ساقيّ وتغطي وجهي وتفقس بيوضها في شعري. وما إن أهش واحداً منها حتى يجدني واحدٌ آخر. وكان البعوض يغوص في أذنيّ والذباب يطنّ في جميع أنحاء الغرفة، وكنت أتعرق باستمرار. لم يكن الأمر

يقتصر فقط على هذه الحشرات، فقد أخذت أعاني من جفاف في حلقي وشعور شديد بالعطش، بالإضافة إلى الحزن وتداعي إرادتي وصمودي. كنت أتحول إلى حساء من البصاق والفرو الأشعث يغلي في قدر، ومهما حاولت استجماع شجاعتي وقوتي كانت هناك لحظات أنهار فيها تماماً وأطلق العنان لدموعي التي تنهار دون توقف.

في إحدى الأمسيات، دخل سليم إلى غرفتي وفاجأني وأنا في واحدة من نوبات البكاء تلك. "لماذا كل هذه الكآبة يا صاحبي؟" قال لي. "ألا تعرف أن غداً هو يومك المشهود؟".

راعني أن يراني في تلك الحالة فأدرت رأسي جانباً ولم أردّ عليه. لم تكن لديّ فكرة عمّ يتكلم، وبما أنني لم أكن قادراً على التكلم إلّا بعينيّ فلم أتمكن من فهم ما يعنيه. ولم يعد الأمر ذا أهمية على كل حال.

"موعد الدفع يا صاحبي. غداً نحصل على المال، وسوف يكون مبلغاً محترماً. خمسون ألف راقصة مكدّسة في حقيبة بالية من القش. ما أوصى به الطبيب تماماً، أليس كذلك؟ إنها خطة تقاعد جهنمية، دعني أقل لك، وعندما تضيف إلى ذلك أنّه لا يمكن تقصّي تلك الأوراق النّقديّة، يصبح بمقدوري أن أهرب بها إلى المكسيك دون أن يعرف عنها عملاء الشرطة الفيدرالية شيئاً".

لم يكن لديّ أي سبب لأشكك في ما قاله. كان يتكلم بسرعة، وأعصابه متوترة، وبدا واضحاً أن هناك ترتيباً ما. لكنني لزمت الصمت. لم أرِدْ أن أشعره بنشوة الانتصار وبقيت مشيحاً بنظري

عنه. وبعد قليل جلس سليم على السرير المقابل لكرسيّ، وعندما لم أتجاوب معه، انحنى إلى الأمام وفك الكمامة ونزعها عن فمي.

"انظر إليّ عندما أتكلم معك"، قال لي.

لكنني أبقيتُ عينيّ مثبّتتين في الأرض ورفضت النظر إليه. ودون أي إنذار، هجم عليّ وصفعني على خدي بقوة. نظرت إليه.

"هذا أفضل"، قال لي. في العادة، كان سيبتسم لتحقيق نصره الصغير ذاك، لكنه تجاوز تلك التفاصيل التافهة اليوم. تجهّم وجهه وأخذ يحدق فيّ لبضع ثوانٍ بطريقة بثّت فيّ الرعب. "أنت صبي محظوظ"، تابع قائلاً. "خمسون ألف دولار يا بنَ أختي. هل تعتقد أنك تساوي هذا المال كله؟ لم أتوقع أن يدفعوا هذا المبلغ الكبير، لكن الثمن بقي يتصاعد دون أن يرف لهم جفن. اللعنة، ليست هناك طريقة في العالم يمكن أن تجلب لي مبلغاً كهذا. ففي السوق الحرة، لا يمكنني أن أجني أكثر من خمسة أو عشرة سنتات؛ هذا في الأيام الجيدة، عندما أكون في قمة لطفي ولباقتي. وها هو ذلك اليهودي التافه مستعد للتضحية بأكثر من خمسين ألف دولار لاستردادك. أعتقد أن هذا يجعل منك شخصاً مهماً، أليس كذلك؟ أم هل تعتقد أنه يحاول خداعي؟ هل هذا ما يفكّر فيه يا بنَ أختي؟ قطعُ المزيد من الوعود التي لا ينوي الإيفاء بها؟".

كنت أنظر إليه الآن، لكن ذلك لم يعنِ أنني كنت أنوي الإجابة عن أسئلته. كان خالي سليم على وشك اعتلائي، ملتفاً كلاعب بيسبول على حافة السرير ووجهه مقابل وجهي تماماً. كان قريباً جداً فيمكنني رؤية أوردة عينيه المحمرّة ومسامات جلده. كان بؤبؤا عينيه

متوسّعين، وكان يتنفس بصعوبة، ويبدو كأنه على وشك الانقضاض عليّ وقضم أنفي.

"الصبي المعجزة وولت"، قال وقد خفض صوته حتى بدا همساً. "لها جِرسٌ جميل، أليس كذلك؟ الصبي... المعجزة... وولت. لقد سمع الجميع بك، وأصبحت حديث البلاد اللعينة كلها. لقد شاهدتُ عروضك. ليس مرة واحدة، بل عدة مرات؛ ست أو سبع مرات خلال السنة الماضية. إنها فريدة من نوعها، أليس كذلك؟ صبي تافه يمشي على الماء. إنها أخبث خدعة رأيتها في حياتي؛ أخبث خدعة منذ اختراع الراديو. من دون أسلاك، أو مرايا، أو أبواب خفية. ما السر في هذه الخدعة يا وولت؟ كيف تتمكن من رفع نفسك عن الأرض بتلك الطريقة اللعينة؟".

لم أكن أنوي على الكلام؛ لم أرد التلفظ بكلمة واحدة، ولكن بعد أن حدّقتُ فيه بصمت لعشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية، قفز ولطمني على صدغي بقفا يده، ثم صفعني على وجهي بيده الأخرى.

"ليست هناك أية حيلة أو خدعة"، قلت له.

"آها... آها... آها".

"العرض حقيقي. فما تراه يحصل فعلاً".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"وتتوقع مني أن أصدقك؟".

"لا يهمني إن صدقت أم لا. أقول لك إنه ليست هناك أية خدعة في الأمر".

"الكذب خطيئة يا وولت، وأنت تعرف ذلك، خاصّة على الكبار. الكذابون يحترقون في النار، وإن لم تتوقف عن قول هذا

الهراء، فسوف تذهب إلى الجحيم، وسوف تُشوى بنارها. تأكد من هذا. أريد الحقيقة، الآن".

"وهذا ما أقوله لك. الحقيقة ولا شيء عير الحقيقة، وليعنّي الله".

"حسناً"، قال سليم وهو يضرب على ركبتيه بغضب. "إن كنت تريد أن تلعب بهذه الطريقة، فسوف نلعب بهذه الطريقة". قفز عن السرير وأمسك بياقتي ورماني عن الكرسي بضربة واحدة. "إن كنت واثقاً من نفسك إلى هذه الدرجة، أرِني إذاً. سوف نذهب إلى الخارج وسوف تقدم لي عرضاً صغيراً. ولكن من الأفضل لك أن تقدم عرضاً جيداً، فأنا لا أحب المنافقين والأفّاقين. هل تسمعني يا وولت؟ إما أن تقدم شيئاً حقيقياً وإما لا. إما أن ترتفع عن الأرض وإما أمسح بك الأرض".

جرّني إلى الغرفة الأخرى وهو يصرخ متوعداً، بينما كان رأسي يضرب بالأرض ونثرات الخشب تخترق فروة رأسي. لم أتمكن من المقاومة. كانت الحبال لا تزال مشدودة حول ذراعيّ وساقيّ، ولم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً سوى التلوّي والصراخ والاستجداء بينما كان الدم يقطر من شعري.

"فُكّه"، قال لفريتز بنبرة آمرة. "هذا الوغد يقول إنه قادر على الطيران، وسوف نرى إن كان ما يقوله صحيحاً. ولا أريد أعذاراً من أي نوع. حان وقت العرض أيها السادة. وولت الصغير سينشر جناحيه ويرقص لنا في الهواء".

كنت أرى وجه فريتز وأنا مستلقٍ على الأرض، وكان ينظر إلى سليم بمزيج من الرعب والارتباك. بدا الرجل البدين مذهولاً ولم

ينطق بكلمة واحدة.

"حسناً؟" قال سليم. "ماذا تنتظر؟ فكّ رباطه!".

"ولكن يا سليم"، قال فريتز متلعثماً. "هذه فكرة سيئة. فإن تركناه يطير في الهواء، سوف يهرب منا. كما كنت تقول دائماً".

"انسَ ما كنت أقوله. فكّ رباطه، وسوف نرى أكاذيبه اللعينة. أراهن أنه لن يرتفع قدماً واحداً عن الأرض، ولا إنشاً واحداً. وحتى لو فعل ذلك، لن تكون هناك أية مشكلة. انظر إلى هذا المسدس الذي في يدي. طلقة واحدة في ساقه وسوف يهوي سريعاً كبطة لعينة".

بدا فريتز مقتنعاً بما قاله سليم. هزّ كتفيه ومشى إلى وسط الغرفة حيث تركني سليم ثم انحنى ليفعل ما أمره به. ولكن في اللحظة التي فك فيها العقدة الأولى، شعرت بالخوف والاشمئزاز يسريان في بدني كله.

"لن أفعل ذلك"، قلت له.

"آه، بل ستفعل"، قال سليم. كانت يداي حرتين عندها، وكان فريتز قد انتقل إلى الحبال التي تقيد ساقيّ. "ستفعل ذلك طوال النهار إن أمرتك بذلك".

"يمكنك أن تطلق النار عليّ وتقتلني"، قلت له. "يمكنك أن تذبحني أو تحرقني إلى أن أترمّد، لكنني لن أفعل ذلك".

أطلق سليم ضحكة قصيرة ثم ركلني بقوة في ظهري. خرجت الآهة مني كصاروخ وسقطت على الأرض ثانية.

"آو، اتركه في حاله يا سليم"، قال فريتز وهو يفك العقدة الأخيرة

حول كاحليّ. "فهو لا يرغب في ذلك الآن. يمكن لأيّ غبي أن يرى ذلك".

"ومن طلب رأيك أيها البرميل؟" قال سليم محوّلاً غضبه على رجل بضعف وزنه وثلاثة أضعاف قوته.

"توقف عن ذلك"، قال فريتز وهو يتنفس بصعوبة من الجهد الذي يتطلبه نهوضه عن الأرض. "تعرف أنني لا أحب هذه النعوت التي تصفني بها".

"نعوت؟" صرخ سليم. "عن أية نعوت تتكلم أيها الطبل؟".

"تعرف أية نعوت. أشياء مثل البرميل والطبل. ليس لطيفاً أن تسخر من شخص بهذه الطريقة".

"لقد أصبحت حساساً، ها؟ وماذا عليّ أن أسميك إذاً؟ انظر إلى نفسك في المرآة وقل لي ماذا ترى؛ جبلاً من اللحم، هذا ما ستراه. أنا أسمّي الأشياء كما أراها أيها الطبل. فإن كنت تريدني أن أسميك باسم آخر، فابدأ أوّلاً بإنقاص وزنك قليلاً".

كان فريز شخصاً طويل البال وصبوراً بشكل لم أشهده من قبل، لكن سليم تمادى كثيراً هذه المرة. كنت أشعر بذلك، كنت أتذوّقه، وحتى وأنا مرميٌّ هناك أحاول التعافي من الركلة التي تلقيتها في ظهري، أدركت أن هذه هي فرصتي الأولى والأخيرة. كانت ذراعاي محررتين، وكذلك ساقاي، وهناك عراك وشيك فوقي، وكل ما عليّ أن أفعله هو انتهاز اللحظة المناسبة. وجاءت عندما تقدم فريتز نحو سليم ونكزه في صدره. "ليس لك الحق في التعامل معي بهذه الطريقة"، قال له. "خاصة بعد أن طلبت منك التوقف عن ذلك".

دون أن أصدر أي صوت، بدأت أزحف صوب الباب بسلاسة وبطء شديدين. ثم سمعت ضربة أخرى سرعان ما تلتها ضجة تصاعدت من جراء احتكاك الأحذية بالأرضية الخشبية العارية؛ صرخات ونخرات وكلمات بذيئة لوّنت التانغو الخشن، لكن يدي كانت عندها تضغط على الباب الشبكي الذي كان - لحسن الحظ - مورورباً قليلاً وغير محكم الإغلاق. فتحته بدفعة واحدة، وزحفت قليلاً إلى الأمام، ثم تشقلبت إلى الخارج وسقطت على كتفي، تحت ضوء الشمس، على أرض داكوتا الجنوبية الصلبة.

شعرت بعضلاتي واهنة وإسفنجية. وعندما حاولت النهوض، لم أعد أشعر بها قطّ. فقد خانتني ولم أمكن من تحريكها ثانية. فبعد كل ذلك الوقت من الحبس والسكون، كنت قد تحولت إلى مهرّج مشلول. صارعت للنهوض على قدميّ، وما إن حاولت التقدم قليلاً حتى بدأت أتعثر في مشيتي. وقعت، ثم نهضت ثانية، ثم تقدمت إلى الأمام قليلاً، ثم سقطت ثانية. لم يكن لديّ ثانية أضيعها، لكنني كنت أترنّح كشخص تعتعه السكر، وأتعثر بعد كل ثلاث أو أربع خطوات. وبصعوبة بالغة، وصلت أخيراً إلى سيارة سليم البالية المركونة إلى جانب البيت. كانت الشمس قد حولت السيارة إلى فرن، وعندما لمست مسكة الباب كان المعدن ساخناً جداً إلى درجة كادت أن تدفعني إلى الصراخ. ولحسن الحظ، كنت أعرف شيئاً عن السيارات. كان المعلم قد علّمني قيادة السيارة، ولم أجد صعوبة في تحرير مكبح اليد وسحب الصمام وإدارة مفتاح التشغيل. لم يكن لدي الوقت لتعديل المقعد. كانت ساقاي قصيرتين، وكانت الطريقة الوحيدة

لكي أصل بقدمي إلى دواسة البنزين هي أن أنزلق إلى الأسفل وأتعلق بالمقود وأنطلق في محاولة لإنقاذ حياتي. أوقف أولُ صوت أصدره المحركُ العراكَ الدائر في الكوخ، وعندما كنت مستعداً للانطلاق بالسيارة كان سليم قد انطلق خارجاً من الباب مسرعاً نحوي وفي يده المسدس. درتُ في قوس، محاولاً ترك أكبر مسافة بيننا، لكن الوغد كان يقترب مني بسرعة هائلة ولم أتمكن من ترك المقود وتغيير ناقل الحركة إلى السرعة الثانية. رأيت سليم وهو يرفع المسدس ويصوبه نحوي. وبدلاً من الالتفاف إلى اليمين، التفت إلى اليسار وصدمته بواقي السيارة. صدمته فوق الركبة فوثب وسقط على الأرض. منحني ذلك بضع ثوان لتحسين وضعي. وقبل أن يتمكن سليم من النهوض، كنت قد استعدتُ توازن السيارة وانطلقت بها في الاتجاه الصحيح. وضعت الناقل على السرعة الثانية وضغطت على دواسة البنزين بكل ما أوتيت من قوة. دخلت رصاصة حطمت الزجاج الخلفي الذي تبعثر خلفي. دخلت رصاصة أخرى في لوحة القيادة وفتحت ثقباً في التابلو. دعست على الدوبرياج بقدمي اليسرى وانتقلت إلى السرعة الثالثة ثم انطلقت مبتعداً. زدت من سرعة السيارة إلى ثلاثين ثم أربعين ميلاً في الساعة فوق الطريق الترابي الوعر، أقفز مثل كاوبوي يروّض فرساً حَروناً وأنتظر الرصاصة التالية التي ستخترق ظهري. لكن الرصاص توقف. تركتُ كيس الخراء ذاك في الغبار، ثم وصلت إلى الطريق المعبد بعد دقائق قليلة وانطلقت باتّجاه حريتي.

هل كنت سعيداً لرؤية المعلّم ثانية؟ بالطبع كنت في غاية السعادة. وهل بدأ قلبي يضرب بقوة من الفرح عندما فتح ذراعيه وغمرني بقوة في عناق طويل؟ نعم، كان قلبي يضرب بقوة من الفرح. وهل بكينا فرحاً لحظّنا الجيد؟ نعم. وهل ضحكنا واحتفلنا ورقصنا حتى الثمالة؟ فعلنا هذا كله وأكثر.

قال المعلّم ياهودي: "لن أتركك تغيب عن نظري مرة ثانية".

وقلت له: "لن أذهب إلى أي مكان من دونك طوال حياتي".

هناك قول مأثور: نحن لا نقدّر الأشياء التي نملكها حتى نضيّعها. ولكن على الرغم من صحة هذه الحكمة، فهي لا تنطبق عليّ. كنت أعرف ما فقدته طوال الوقت؛ من اللحظة التي تعرضت فيها للاختطاف في دار السينما في نورثفيلد، مينيسوتا، وحتى اللحظة التي وقعت فيها عيناي على المعلم ثانية في رابيد سيتي، في داكوتا الجنوبية. وعلى مدى خمسة أسابيع ونصف، حزنت على فقداني لكل الأشياء الجميلة والغالية على قلبي، وأشهد أمام العالم كله الآن أن لا شيء يوازي حلاوة استعادة ما أُخذ منك. ومن بين جميع الانتصارات التي حققتها في حياتي، لم يُفرحني شيء كما أفرحتني عودة حياتي السابقة لي.

حصل لقاؤنا في رابيد سيتي لأنها كانت المكان الذي تمكنت من الوصول إليه بعد هربي. فبسبب بُخله الشديد، لم يهتم سليم بسيارته

جيداً، وقد نفد الوقود قبل أن أقطع عشرين ميلاً. ولو لم يقلّني بائع متجول قبل هبوط الظلام، لكنت لا أزال هائماً في تلك المنطقة القفر أبحث عن المساعدة ولا أجدها. طلبت منه أن يوصلني إلى أقرب مخفر للشرطة، وحالما عرف رجال الشرطة هويتي عاملوني بكثير من اللطف والاحترام. قدموا لي الحساء والنقانق، وأعطوني ثياباً جديدة بعد حمّام ساخن، وعلّموني لعبة "بينَكل". وعندما وصل المعلم في المساء التالي، كنت قد تحدثت إلى مجموعة من الصحافيين الذين أخذوا لي مئات الصور. كانت أنباء اختطافي تحتل الصفحات الأولى لأكثر من شهر، وعندما جاء أحد الصحافيين المحليين إلى مخفر الشرطة بحثاً عن آخر الأخبار، عرفني من الصور وأذاع الخبر. ثم تدفق الصحافيون من كل مكان بعد ذلك. كانت الأضواء تلمع حولي وبقيت حتى ساعات الصباح الأولى أروي لهم تلك القصص الجامحة حول هربي من الخاطفين قبل استلام الفدية مقابل إطلاق سراحي. أعتقد أن الحقائق وحدها كانت ستفي بالغرض، لكنني لم أتمكن من مقاومة الرغبة في تضخيم ما حدث. أثملتني شهرتي الجديدة، لكنني شعرت بالتعب بعد بضع ساعات من الطريقة التي يرمقني بها أولئك الصحافيون ويتعلقون بكل كلمة أقولها. كنت رجل استعراض في نهاية المطاف، وبوجود ذلك النوع من الجمهور، كان عليّ أن أروي فضولهم وتعطشهم لسماع أدق التفاصيل.

لكن المعلم وضع حدّاً لذلك الهراء كله لحظة وصوله. قضينا الساعة التالية في العناق والبكاء بعيداً عن أعين الجميع. جلسنا

وحيدَين في غرفة خلفية ونحن نحضن بعضنا بعضاً ونجهش بالبكاء، بينما كان شرطيان يحرسان الباب. وبعد تسجيل الإفادات وتوقيع بعض الأوراق، أخرجني المعلّم من هناك وسط الحشود المتجمهرة في الشارع. علت الهتافات والتمنيات الطيبة، لكن المعلّم اكتفى بالابتسام والتلويح وسارع إلى إدخالي إلى سيارة يقودها سائق كانت مركونة عند المنعطف. وبعد ساعة ونصف، كنا نجلس في مقصورة خاصة في قطار متجه إلى نيو إنغلاند وشواطئ كيب كود الرملية.

لم أدرك أننا لن نتوقف في كانساس إلّا مع حلول الظلام. فبعد الكثير من الأحاديث مع المعلّم حول المستجدات الأخيرة والقصص والتفاصيل شعرت برأسي يدور كخلاط كهربائي، وبعد أن أُطفئت الأضواء وأوينا إلى أسرتنا فكرت في أن أسأل عن السيدة ويذرسبون. فبعد ست ساعات قضيناها أنا والمعلم معاً، لم يأتِ على ذكرها قطّ.

"لماذا لم نذهب إلى ويتشوتا؟" سألت المعلم. "أليست مكاناً جيداً مثل كيب كود؟".

"إنها مكان جميل"، قال المعلم، "لكنّ الجو حار جداً في هذا الوقت من السنة. سيكون المحيط مفيداً لك يا وولتر. سوف تتعافى بشكل أسرع".

"وماذا عن السيدة ويذرسبون؟ متى ستلتحق بنا؟".

"لن تأتي معنا هذه المرة يا بنيّ".

"لماذا؟ هل تذكر فلوريدا؟ فقد أحبت المكان جداً، وكان علينا

أن نسحبها من الماء. كانت في غاية السعادة وهي تلهو مع تلك الأمواج".

"ربما، لكنها لن تسبح هذا الصيف. ليس معنا على الأقل".

أطلق المعلّم ياهودي تنهيدة قوية ترددت في ظلام الغرفة، ومع أنني كنت مرهقاً وعلى وشك الاستسلام للنوم بدأ قلبي يدق بسرعة ويخفق داخلي مثل منبّه قوي.

"أوه" قلت محاولاً إخفاء قلقي. "وما السبب؟".

"لم أكن أنوي إخبارك الليلة. ولكن بما أنك سألتني عنها، فلا فائدة من إخفاء الأمر عنك".

"تخبرني بماذا؟".

"السيدة ماريون على وشك الارتباط".

"الارتباط؟ أيّ نوع من الارتباط؟".

"إنها مخطوبة وسوف تتزوج. وإن سار كل شيء تبعاً للخطة المرسومة، فسوف تتزوج قبل عيد الشكر".

"تعني أنها علقت في الصِّنارة؟ تعني أنها ستبقى حبيسة الزواج لبقية حياتها الطبيعية؟".

"نعم. مع محبسٍ في إصبعها وزوج في سريرها".

"وذلك الزوج ليس أنت؟".

"انسَ الموضوع. أنا معك الآن، أليس كذلك؟ فكيف يمكن لي أن أكون معها هناك إن كنت معك هنا؟".

"لكنها مغرمة بك أنت. ليس لها الحق في التخلي عنك بهذه الطريقة. ليس من دون موافقتك".

"كان عليها أن تفعل ذلك، ولم أقف في طريقها. تلك المرأة فريدة من نوعها يا وولت، ولا أريد أن أسمعك تقول كلمة واحدة بحقها".

"سأقول جميع الكلمات التي أريدها. فإن أساء إليك أحد، سأقول عنه ما أريد".

"لم تُسئ لي. كانت يداها مقيدتين، وقد أطلقت وعداً لا يمكنها التراجع عنه. ولو كنت مكانك يا بنيّ، فسوف أشكرها لقطعها ذلك الوعد ساعة بعد ساعة وعلى مدى الخمسين سنة القادمة".

"أشكرها؟ سوف أبصق على تلك العاهرة. سأبصق على تلك الكلبة وأشتمها لأنها أساءت إليك".

"لكنك لن تفعل هذا عندما تعرف السبب وراء فعلتها تلك. كل ذلك بسببك يا صغيري. فقد جازفت بحياتها من أجل صبي تافه اسمه وولتر كليربورن رولي، ولم أرَ في حياتي كلها شخصاً يُقدم على فعل جريء كهذا ينطوي على التضحية ونكران الذات".

"هراء. لا علاقة لي بالأمر. حتى إنني لم أكن هناك".

"خمسون ألف دولار يا صاحبي. هل تعتقد أن مبلغاً كهذا ينمو على الأشجار؟ عندما وصلت رسائل الفدية، كان علينا أن نتصرف بسرعة".

"صحيح أنه مبلغ كبير، ولكن من المفترض أننا كسبنا ضعف ذلك المبلغ".

"لا، لم نكسب نصفه حتى. لم نستطع أنا وماريون جمع نصفه، نحن الاثنان معاً. لقد جنينا مبلغاً جيداً يا وولت، لكنه لا يصل إلى

ما تفكر فيه. فالنفقات كثيرة. الفنادق، والتنقل، والإعلانات؛ إنه مصروف كبير، وكنا بالكاد نتدبر أمورنا".

"أوه"، قلت وأنا أقوم بحسابات ذهنية سريعة للأموال التي أنفقناها وأتوه في الأرقام الكثيرة.

"أوه هي الكلمة الصحيحة. فماذا نفعل؛ هذا هو السؤال. إلى أين نذهب قبل فوات الأوان؟ رفض القاضي ويذرسبون العجوز مساعدتنا. لم يكن قد تكلم مع ماريون منذ أن قتل تشارلي نفسه، وما كان ليكسر صمته الآن. المصارف سخرت منا، ورفض الدائنون التعامل معنا، وحتى لو بعنا المنزل فلن نتمكن من جمع المبلغ المطلوب. فماذا نفعل؟ هذا هو السؤال الذي كان يمزق أحشاءنا. الوقت يمر، ونحن نخسر كل يوم، والسعر يتزايد باستمرار".

"خمسون ألف دولار مقابل حياتي".

"وكان سعراً زهيداً أيضاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأموال التي ستتدفق من شبابيك التذاكر في السنوات التالية. مبلغ زهيد، لكنه لم يكن بحوزتنا".

"وماذا فعلتما؟".

"أنت تعرف أن السيدة ويذرسبون امرأة تمتلك الكثير من السحر والإغواء. ربما نجحت في احتلال مكان خاص في قلبها، لكنني لم أكن الرجل الوحيد الذي يرغب فيها. ويتشوتا مليئة بالرجال الذين يتوددون إليها في كل مكان. كان واحدٌ منهم، وهو شاب وتاجر حبوب ثري اسمه أورفيل كوكس، قد تقدّم لها خمس مرات خلال السنة الماضية. فعندما كنا أنا وأنت نجول بين المدن والولايات،

عاد الشاب أورڤيل إلى المدينة وأخذ يلح عليها كي تقبل به. رفضته ماريون طبعاً، ولكن بشيء من الندم، وفي كل مرة كانت ترفضه كان ذلك الندم يتعاظم أكثر، على ما أعتقد. هل تريدني أن أكمل؟ لجأت إلى كوكس من أجل المبلغ المطلوب، وكان سعيداً بإعطائها إياه، ولكن بشرط أن تتركني وتتزوجه".

"هذا ابتزاز".

"تقريباً. لكن أورڤيل هذا ليس شخصاً سيئاً. ربما يكون بليداً بعض الشيء، لكن ماريون تعرف تماماً ما تفعله".

"حسناً"، قلت بارتباك واضح. "أعتقد أنني مدين لها بالاعتذار. فقد وقفت إلى جانبي كصديق حقيقي".

"صحيح. كبطلة حقيقية".

"ولكن"، تابعت قائلاً دون أي رغبة في الاستسلام، "لكن كل ذلك انتهى الآن. أعني، انتهت جميع المساومات والرهانات. فقد هربت من سليم دون أن يضطر أحدٌ إلى دفع الفدية. لا يزال أورڤيل يحتفظ بماله اللعين، ومن حق السيدة ويذرسبون أن تتحرر من وعدها له".

"ربما. لكنها لا تزال تخطط للزواج به. تكلمت معها البارحة، وهذا ما فهمته منها. لا زالت تخطط للزواج به".

"يجب أن نعطل هذه الخطة أيها المعلم؛ هذا ما يجب أن نفعله. نقتحم مراسيم الزواج ونخطفها منه".

"كما يحدث في الأفلام. أليس كذلك يا وولت؟". وللمرة الأولى منذ بداية تلك المحادثة المشؤومة، ضحك المعلّم ياهو دي.

"تماماً، كما يحدث في الأفلام القصيرة المليئة بالحركة".

"دعها تذهب يا وولت. فقد اتخذت قرارها، ولا يمكننا أن نفعل شيئاً لإيقافها".

"لكنه ذنبي أنا. فلولا حادثةُ الاختطاف التافهة تلك، لما حدث شيء من هذا".

"إنه ذنب خالك يا بني، وليس ذنبك أنت، ويجب ألا تلوم نفسك على ما حصل، الآن أو في المستقبل. انسَ الموضوع. السيدة ويذرسبون تفعل ما تريد أن تفعله، ولا نريد التسبب بأية مشاكل. مفهوم؟ سوف نتصرف كأشخاص محترمين، ولن نكتفي بمسامحتها بل سنرسل لها أجمل هدية تلقّتها أيّ عروس قبلها. والآن، اخلد إلى النوم. أمامَنا الكثير من العمل، ولا أريدك أن تفكر في هذا الأمر بعد الآن. فقد انتهى وتم. لقد أسدلت الستارة، والعرض التالي على وشك أن يبدأ".

بدا المعلّم ياهودي صادقاً في ما قاله، ولكن عندما جلسنا إلى الإفطار في عربة الطعام صباح اليوم التالي، بدا وجهه شاحباً ومضطرباً وكأنه قضى الليل كله وهو يحدق في الظلمة ويتأمل نهاية العالم. خطر لي أنه بدا أكثر نحولاً مما كان في الماضي، وتساءلتُ كيف فاتني أن ألاحظ ذلك في اليوم السابق. هل أعمتني السعادة؟ أمعنت النظر فيه وتفحّصت وجهَه بقدرٍ من التجرّد والموضوعية. بدا جلياً أن شيئاً ما قد تغير فيه. كانت سحنتُه شاحبة وناحلة، وقد تسلّل نوع من الضنى والإرهاق إلى التغضنات المحيطة بعينيه، وبدا ذاوياً بشكل عام وأقلَّ أنفةً من قبل. لقد عانى الكثير في الآونة الأخيرة – أولاً،

محنة اختطافي، ومن ثم فقدانه للمرأة التي يحبها – وأملتُ ألا يكون هناك شيء آخر. فبين الفينة والأخرى، كنت ألاحظ توجعاً خفيفاً وهو يمضغ طعامه. وفي إحدى المرات – قبيل انتهائنا من الطعام – رأيت يده تنزل تحت الطاولة وتمسك بمعدته. هل كان مريضاً، أم أن ذلك مجرد عارضٍ يشي بنوع من عسر الهضم؟ وإن كان يعاني من شيء ما، فما مدى سوء حالته تلك؟

لم يقل شيئاً بالطبع، وبما أنني لم أكن في صحة جيدة فقد ركز اهتمامه كله على حالتي خلال الإفطار.

"كُل"، قال لي. "لقد صرت مثل العود. كُلِ الفطائر يا بني، وسوف أطلب لك المزيد منها. علينا أن نهتم بصحتك لكي تتمكن من استعادة قواك".

"أنا أفعل ما بوسعي"، قلت له. "لم أكن مقيماً في فندق فاخر. كنت أعيش على طعام يليق بالكلاب لرفقة ذينك المغفّلين، وقد تقلصت معدتي حتى صارت بحجم حبة البازلاء".

"ثم هناك مسألة السحنة"، أضاف المعلم وهو يراقبني أتعارك مع قطعة أخرى من اللحم. "علينا أن نفعل شيئاً بشأن ذلك أيضاً. كل تلك البقع. تبدو كأنك مصاب بالجدري".

"لا يا سيدي، هذه بثور، وهي تؤلمني أحياناً إلى درجة تمنعني من الابتسام".

"هذا طبيعي. فقد أصاب الوهنُ جسمك كله من جراء الحبس لفترة طويلة، بعيداً من ضوء الشمس ونَهباً للقلق والخوف؛ فلا عجب أن تبدو على هذه الهيئة المزرية. سوف يفيدك الشاطئ كثيراً يا

وولت. وإن لم تختفِ تلك البثور، فسوف أعلمك كيف تتعامل معها وتخفف من انتشارها. كان لدى جدتي علاج سري أثبت فاعليته في جميع الحالات".

"تعني أنه لن يكون عليّ أن أغيّر وجهي؟".

"وجهك هذا مقبول. كان سيبدو جيداً لولا ذلك النمش كلّه. لكن تركيبة البثور والنمش معاً كفيلة بتوليد تأثير قوي. لا تقلق يا بني. ففي القريب العاجل، سوف يتركز اهتمامك على شيء واحد هو السالفان، وهما دائمان، وسيبقيان معك إلى أن تحين النهاية المريرة".

قضينا أكثير من شهر في منزل صغير على شاطئ كيب كود، على عدد الأيام التي حبسني فيها خالي سليم. استأجره المعلّم باسم مستعار لإبعاد الصحافيين عني، كما قدمنا أنفسنا للآخرين كأب وابنه توخياً للبساطة والسهولة. اختار لنفسه اسم بَك، تيموثي بَك، واسمَ تيموثي بَك الثاني لي؛ أو تيم بَك الأول وتيم بَك الثاني. ضحكنا كثيراً على ذلك، والمضحك في الأمر أن الاسم كان قريباً من تيمبوكتو حيث كنا نمضي وقتنا ذاك، من حيث العزلة على الأقل؛ فوق رَعنٍ منعزلٍ مطلٍّ على المحيط وبعيدٍ من أعين الناس. كانت امرأة تحمل اسم السيدة هوثورن تأتي من ترورو كلّ يوم لتطبخ لنا وتنظّف المنزل، وفي ما عدا ذلك كنا نقضي أوقاتنا معاً في عزلة تامة. كنا نتشمّس، ونتمشى على الشاطئ لمسافات طويلة، ونتناول حساء البطلينوس، وننام عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة كلّ ليلة. وبعد أسبوع من الراحة والاستجمام شعرت أنني جاهز لمحاولة الارتقاء من جديد. بدأ معي

المعلّم ببطء، حيث ركزنا على بعض التمارين والحركات الأرضية أولاً؛ تمارين الضغط، والقفز، والركض على الشاطئ، وعندما حان الوقت لاختبار الحركات الهوائية كانت التدريبات تجري خلف الجرف الصخري بعيداً من عينَي السيدة هوثورن. شعرت بتصلّب في عضلاتي في بداية الأمر، وقمت ببعض الحركات الخفيفة، ولكن بعد خمسة أو ستة أيام استعدت لياقتي السابقة ومرونة حركتي المعهودة. كان الهواء المنعش النقي ترياقاً حقيقياً، ومع أن علاج المعلم لم يرتقِ إلى الفعالية التي وعد بها (منشفة ساخنة، مبلّلة بالماء المالح والخل وبعض المحاليل الطبية الحارقة، توضع على وجهي كل أربع ساعات)، إلا أن نصف البثور بدأ بالتراجع من تلقاء نفسه، بسبب أشعة الشمس والطعام الجيد الذي كنت أتناوله دون أدنى شك.

كانت قوتي ستعود إليّ بشكل أسرع، على ما أظن، لولا عادة سيئة كسبتُها خلال تلك العطلة بين تلك الكثبان الرملية وأبواق الضباب. فبعد أن تحرّرت يداي، بدأتا تكتسبان نوعاً من الاستقلال الغريب. كانتا تضجان بشبق الحركة والرغبة في التجوال والاستكشاف، ومهما حاولتُ تثبيتهما كانتا تذهبان حيثما يحلو لهما. وحالما أندسّ تحت الأغطية في الليل، كانتا تيمّمان صوب منطقتهما الساخنة المفضلة، نحو مملكة الغابة الواقعة تحت خط الاستواء. وهناك، تزوران صديقتهما، الإصبع العظمى، الإصبع الجبّارة التي تحكم الكونَ عبر التخاطر الذهني. فعندما يأمر، لم يكن بمقدور الرعية أن تقاوم النداء. كانت يداي رهنَ إشارته، فباستثناء تقييدهما بالحبال مرة ثانية لم يكن لدي أيّ خيار سوى إطلاقهما بحرية. وهكذا تملّكني

الجنونُ الذي أصاب إيسوب من قبلي، وهكذا انتصب عضوي ليأخذ بزمام حياتي. لم يعد يشبه المسدّس البلاستيكي الصغير الذي أخذته السيدة ويذرسبون مرةً في راحة يدها. فقد تعاظم حجمُه وقوامه منذ ذلك الوقت، وكانت كلمته بمثابة القانون. كان يتوسّل اللمسَ، وكنت ألمسه. كان يستجدي المداعبة، والتمسيد، والعصرَ، وكنت ألبّي نزواته بسرور وطيب خاطر. فما همّني لو أنني عميت؟ وما همّني لو تساقط شعري؟ كانت الطبيعة تنادي، وكنت ألبّي نداءها في كل ليلة بتوقِ آدم وجوعه.

أما بالنسبة إلى المعلّم، فلم أتمكن من معرفة ما ألمّ به. بدا سعيداً، ولكن على الرغم من التحسن الواضح الذي طرأ على سحنته وتعابيره، فقد رأيته يمسك بمعدته ثلاث أو أربع مرات، كما كان الوخز المفاجئ يتكرر بشكل منتظم الآن، أثناء كل وجبتين أو ثلاث. لكن معنوياته كانت عالية جداً، وعندما لا يكون منكباً على قراءة سبينوزا أو منهمكاً في تدريبي، يشغل نفسه بالهاتف وتنسيق التحضيرات اللازمة لجولتي القادمة. كنت شخصية مهمة. وقد ساهم اختطافي في توسيع شهرتي، وكان المعلّم ياهودي على أتم استعداد لاستغلال ذلك الوضع إلى أقصى درجة ممكنة. فبعد أن راجع بسرعة الخطط التي أعدّها لمستقبلي المهني، طلع بفكرة إقامتنا في كيب كود ثم انتقل إلى الهجوم. كان يمسك بالخيوط ويتحكم بالأشياء على هواه. كان قادراً على فرض الشروط التي يريدها، ومطالبة عملاء الحجوزات بنسَب مئوية عالية وغير مسبوقة، والمطالبة بضمانات خاصة بالعروض الضخمة فقط. كنت قد وصلتُ إلى القمة بأسرع مما توقّع أيٌّ منا،

وقبل انتهاء المعلّم من الترتيبات والمفاوضات، كان قد نجح في حجز العشرات من العروض على طول الساحل الشرقي؛ سلسلة من العروض الواحدة والثنائية الكفيلة باستمرارنا حتى نهاية السنة. وليس في البلدات والقرى الصغيرة فقط، بل في المدن الحقيقية والتجمعات الكبرى التي طالما حلمتُ بزيارتها. بروفيدنس ونيوارك؛ نيو هيفن وبولتيمور؛ فيلادلفيا، وبوسطن، ونيويورك. وانتقلت العروض أيضاً إلى الصالات المغلقة، ومن الآن فصاعداً سوف يرتفع سقف رهاناتنا كثيراً. "سوف نتخلى عن المشي على الماء"، قال المعلم، "وعن زيّ الصبي الريفي، وعن المعارض ونزهات غرفة التجارة. فقد أصبحتَ فناناً هوائياً الآن يا وولت، الوحيد من نوعك، وسوف يدفع الناسُ أية مبالغ لرؤية العروض التي تقدمها. سيرتدون بزاتهم الأنيقة ويجلسون في مقاعد مخملية مريحة، وحالما تنطفئ أضواء المسرح ويتركز الضوء الوحيد عليك، ستسقط أعينهم من رؤوسهم. سوف يموتون ألف ميتة يا وولت. سوف تقفز وتدور أمامهم، وسوف يتبعونك على السلم المودي إلى السماء واحداً تلو الآخر. ومع انتهاء العرض، سوف يكونون في حضرة الله".

هكذا هو انقلاب الحظوظ. كان الاختطاف أسوأ ما حصل لي في حياتي، ومع ذلك فقد تحول إلى فرصة العمر وصار الوقودَ الذي أطلقني إلى المدار. فقد حصلت خلال شهر واحد على دعاية مجانية، وعندما تمكنت من الفرار من قبضة سليم، كنت قد أصبحت مشهوراً على نطاق واسع، وصرت النجم الأول في البلاد كلها. سبّبَت أنباء هربي ضجة كبيرة كانت بمثابة حدثٍ أضيف إلى الحدث الأول،

وبعد ذلك لم يعد بمقدوري ارتكاب أي خطأ. لم أكن ضحية فقط، بل كنت بطلاً أيضاً؛ رمزاً للشجاعة والإقدام والمغامرة، وبدلاً من أن يشفق الناس عليّ صاروا يحبونني. فكيف لي أن أستوعب ما حصل؟ لقد تم إلقائي في الجحيم. تعرّضتُ للتقييد والتكميم وصرت في عداد الموتى، وبعد شهر واحد أصبحت محبوبَ الجميع. كان ذلك كافياً لتعتملَ النار في دماغك ويفور الدم في عروقك. كانت أميركا عند قدميّ، وبوجود رجل مثل المعلّم ياهودي إلى جانبي من المرجح أن تبقى قابعة هناك لوقتٍ طويل.

لقد تغلّبتُ على خالي سليم، هذا صحيح، لكنه لم يزل طليقاً. هاجم رجالُ الشرطة الكوخ في داكوتا الجنوبية، ولكن باستثناء بعض البصمات والثياب الوسخة لم يجدوا أي أثر للمجرمَين. كان عليّ أن أخاف وأتوقع المزيد من المشاكل، لكن الغريب في الأمر أنني لم ألقِ بالاً لذلك. فقد قضينا وقتاً هادئاً في كيب كود، وبعد أن تغلبتُ على خالي مرة شعرت بالثقة على فعل ذلك ثانية، وقد نسيتُ بسرعة خطورة الوضع الذي سبق أن كنت فيه. لكن المعلّم ياهودي وعد أنه سيحميني، وقد صدّقته. لن أذهب إلى دور السينما لوحدي ثانية، وما دام يرافقني حيث ذهبت، فماذا يمكن أن يحدث لي! مع مرور الأيام، لم أعد أفكر كثيراً في حادثة الاختطاف. وعندما كنت أفكر فيها، كنت أفعل ذلك لاستعادة حادثة فراري والتساؤل عن الأذى الذي سبّبتُه لساق سليم عندما صدمته بالسيارة. أملتُ أن يكون الأذى كبيراً؛ أن يكون الواقي قد صدمه في ركبته بقوة كافية لتحطيم عظامه. رغبت لو أنني تسببت له بأذية حقيقية، وأنه سيعرج لبقية حياته.

لكن مشاغلي الكثيرة حدّت من رغبتي في التفكير في الماضي. كانت الأيام مليئة بالتحضيرات والبروفات لعرضي الجديد، ولم يكن هناك أي متسع للتسلية الليلية أيضاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار جهوزية عضوي للّهو والمداعبة. وبين هذه المتع الليلية والأعمال المجهدة التي كنت أقوم بها في فترات العصر، لم يكن لدي دقيقة واحدة للتفكر أو الإحساس بالخوف. لم يكن سليم يقض مضجعي، ولم يكن زواج السيدة ويذرسبون الوشيك يزعجني. كانت أفكاري كلها متمحورة حول مشكلة أكثر إلحاحاً وكفيلة باحتلال وقتي كله: كيف أحوّل "الصبي المعجزة وولت" إلى مؤدٍّ مسرحي؛ إلى مخلوقٍ يصلح لخشبات المسارح المغلقة.

تباحثنا أنا والمعلّم ياهودي مطولاً في هذا الموضوع، لكننا صممنا أنواع الروتين الجديدة عن طريق التجربة والخطأ. فساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، كنا نقف على الشاطئ العاصف نُجري التغييرات ونصوّب الأخطاء في محاولة لمناغمة الحركات وتقويم الأداء، بينما كانت أسراب النوارس تنعق وتحوم فوقنا. كنا نريد استغلال كل دقيقة. كان ذلك هو البوصلة التي نهتدي بها، والهدف النهائي من كل جهودنا وحساباتنا. في ذلك المكان القفر، كنت قد أدّيتُ جميع العروض لنفسي، على مدى ساعة أو أكثر حين يكون مزاجي عالياً. لكن برنامج "ڤودڤيل" الترفيهي المنوّع شيء آخر تماماً. فسوف أشارك مع عروض مختلفة أخرى، وسيكون البرنامج مقتصراً على عشرين دقيقة فقط. لكننا فقدنا البحيرة، وفقدنا الأثر الذي تولّده السماء الطبيعية، كما فقدنا عظمة الارتقاء والتنقل بسلاسة

وحرية. والآن يجب تقليص كل شيء وتضييق الفضاءات. وحالما شرعنا في استكشاف الظروف الجديدة بعَجَرها وبَجَرها وجدنا أن المساحات الأصغر لا تعني خيارات أسوأ بالضرورة. فقد توفرت لنا أدوات جديدة وعلينا أن نستغلها لصالحنا. أولاً، كانت لدينا الأضواء. وقد سال لعابُنا على هذه الفكرة إذ تخيّلنا التأثيرات المختلفة التي تخلقها. يمكننا الانتقال من الظلام الحالك إلى الضوء في غمضة عين، والعكس صحيح. ويمكننا أن نخفت أنوار القاعة ثم نسلط الأضواء على الأماكن التي نريدها، ونستغل الألوان بطريقة تجعلني أختفي وأظهر كما أشاء. ثم كانت هناك الموسيقا التي يتردد صداها أكثر في الصالات المغلقة، دون أن تتلاشى في الخلفية أو تبتلعها ضجة السيارات والأراجيح. سوف تصبح هذه الأدوات جزءاً أساسياً من العرض، وسوف توجّه المشاهدَ في بحرٍ من المشاعر المتغيرة وتتحكم بالطريقة التي يتفاعل معها الحشدُ مع العرض. الخيوط، والأبواق، والآلات النفخية، والطبول؛ سوف يرافقنا العازفون المحترفون في كل ليلة، وعندما نطلب منهم أن يعزفوا مقطوعات معينة سوف يؤدونها ببراعة. لكن أفضل ما في الأمر أن الجمهور سيكون مرتاحاً؛ فبعيداً من طنين الذباب ووهج الشمس القوي، لن يلجأ المشاهدون إلى الأحاديث ولن يفقدوا تركيزهم. سوف تسود هَدأةٌ حالما ترتفع الستارة، وسوف يكون العرض مضبوطاً من بدايته إلى نهايته، حيث يتقدم بدقة كبيرة من بعض الحركات البسيطة وصولاً إلى قفلة جامحة لم يعرف المسرح الحديث لها مثيلاً.

ناقشنا الأفكار التي طلعنا بها وقمنا بتقليبها ودراستها على مدى

أسبوعين متتاليين، ثم توصلنا إلى خطة عمل. "الشكل والترابط"، قال المعلّم. "البنية، والإيقاع، والمفاجأة". لن نقدم لهم مجموعة عشوائية من الخدع. سوف يتكشف العرضُ كقصةٍ، وشيئاً فشيئاً سنصل بالعرض إلى ذروته وننتقل بالمشاهد من إثارة إلى أخرى أكبر منها، ثم نختم بالحركات الأكثر إثارةً وإذهالاً.

أما بالنسبة إلى الزي، فقد كان في غاية البساطة: قميص مفتوح عند الياقة، وسروال أسود فضفاض، وحذاء رقص أبيض. كان الحذاء الأبيض ضرورياً لإبراز القفزة وتوليد التناقض مع أرضية المسرح البنيّة. وبما أن مدة العرض محصورة بعشرين دقيقة فقط، لن يكون هناك وقت لتبديل الملابس أو دخول وخروج إضافيّين. قمنا بتصميم العرض ليكون متواصلاً دون توقف أو انقطاع، لكننا قطّعناه في ذهنينا إلى أربعة أجزاء، وعملنا على كل جزء بشكل منفصل وكأنه فصلٌ من مسرحية.

الجزء الأول - كلارينيت سولو، تعزف بعض الموسيقا الريفية. اللحنُ يَشي بالبراءة، والفراشات، والهندباء البرية المتمايلة في النسيم. ترتفع الستارة عن مسرح عارٍ مضاء. أدخل، وأتظاهر خلال أول دقيقتين أنني شخص غبي وأحمق. أتعثر بأشياء غير مرئية مبعثرة حولي، وأواجه عقبة تلو الأخرى بينما ينضم إلى الكلارينيت مزمارٌ قوي. أتعثر بحجرة، وأصدم أنفي بحائط، ثم تعلق إصبعي في باب. أنا صورة للعجز البشري؛ أحمق متعثر بالكاد يستطيع الوقوف على الأرض، عداك عن الارتقاء عنها. وأخيراً، وبعد عدة محاولات

فاشلة، أسقط على وجهي. الترومبون يعزف لحناً متواصلاً يوحي بالغرق، فتنطلق بعض الضحكات. ثم الترومبون ثانية، يليه إيقاع سريع على الطبل، ثم يليه صوت قوي على الطبلة. قمة الكوميديا التهريجية، وأنا على وشك الاصطدام بالجليد. وحالما أنهض وأخطو قليلاً، تنزلق قدمي على مزلاج وأقع ثانية. ضحك هستيري. أجاهد للوقوف على قدميّ وأنا أتأرجح محاولاً نزع بيوت العنكبوت من رأسي ثم، وفي اللحظة التي تبدو فيها الحيرة على الجمهور وأبدو معتوهاً حقيقياً، أقوم بالحركة الأولى.

الجزء الثاني – يجب أن يبدو المشهد كأنه حادث. تعثرتُ ثانية، وبينما أتقدم مترنحاً في محاولة يائسة لاستعادة توازني أمدّ يدي وأمسك بشيء ما. إنه قائمة سلّم غير مرئي، وفجأة أجدني معلقاً في الهواء؛ ولكن لأجزاء من الثانية فقط. يحدث كل ذلك بسرعة كبيرة، فيبدو معها من الصعب القول إن كنت قد رفعت قدمي. وقبل أن يدرك الجمهور ما حدث، أرخي قبضتي وأسقط على الأرض. تخفت الأضواء وتغرق الصالة في العتمة. تعزف الموسيقا: أوتار غامضة ترتعش انبهاراً وانتظاراً. وبعد لحظة، يشعل ضوء كشاف. يتحرك يسرة ويمنة، ثم يتوقف في المكان الذي يحتله السلّم. أقف وأبدأ البحث عن القائمة غير المرئية. وعندما تلمس يداي السلم ثانية، أربت عليه بلطف وذهول. شيء غير مرئي لكنّه موجود. أربت عليه ثانية لأتأكد من ثباته ثم أبدأ في التسلق بحذر شديد، درجة بعد درجة. لا ريب فيه الآن. أنا معلق في الهواء، وفردتا حذائي الأبيض تتدليان

في الهواء لإثبات ذلك. وخلال ارتقائي، يتوسع الضوء الكشاف ثم يتحلل إلى وهجٍ خفيف لا يلبث أن يملأ المسرح كله. أصل إلى القمة، وأنظر إلى الأسفل، ثم ينتابني الخوف. أنا على ارتفاع خمسة أقدام فوق الأرض الآن؛ فما الذي أفعله هناك، بحق الجحيم؟ تهتز الأوتارُ ثانية تعبيراً عن هلعي. أبدأ بالنزول، وفي طريقي إلى الأرض أمدّ يدي وأصطدم بشيء صلب؛ لوح خشبي معلق في الهواء. يصيبني الذهول. أمرّر أصابعي على اللوح غير المرئي، وشيئاً فشيئاً يتملّكني الفضول. أنزلق بجسدي حول السلّم وأزحف على اللوح الخشبي. إنه متين بما يكفي لكي يحمل وزني. أقف ثم أمشي ببطء وأقطع المسرحَ على ارتفاع ثلاثة أقدام. وبعد ذلك، كل أداة تقود إلى أخرى. اللوح الخشبي يصبح درجاً، والدرج يصبح حبلاً، والحبل يصبح أرجوحة، والأرجوحة تصبح زلّاقة. وعلى مدى سبع دقائق أستكشف هذه الأشياء، أزحف عليها وأمشي فوقها على رؤوس أصابعي، وأكتسب المزيد من الثقة مع تصاعد الموسيقا. يبدو كأنني سأتمكن من اللهو والتسلية بهذه الطريقة إلى الأبد. ثم فجأة أنزل عن حافة وأبدأ في السقوط.

الجزء الثالث – أطفو نزولاً نحو الأرض وذراعاي مفتوحتان، أهبط ببطءٍ كما في الأحلام. وعندما أشارف ملامسةَ خشبة المسرح، أتوقف. تتعطل الجاذبية، وها أنا ذا، أحوم على ارتفاع ستة إنشات عن الأرض دون الاعتماد على أية أداة. تخفت أضواء المسرح، وبعد ثانية ألقى نفسي محاطاً بشعاع ضوء كشاف واحد. أنظر إلى السفل،

ثم أنظر إلى الأعلى، ثم إلى السفل ثانيةً. أحرّك أصابع قدميّ. أدير قدمي اليسرى إلى هذه الناحية ثم إلى تلك. لقد حدث ذلك حقاً. صحيح أنني واقف في الهواء. يكسر صوتُ الطبل الصمت؛ عالياً، ملحاً، يضرب على الأعصاب. يبدو أنه يعلن عن مجازفات مروعة، عن خوضٍ في المستحيل. أغلق عينيّ، وأمد ذراعيّ على مداهما، وآخذ نفساً عميقاً. هذه لحظة منتصف العرض، لحظة اللحظات. والضوء الكشاف لا يزال مثبتاً عليّ، أبدأ بالارتفاع في الهواء، أرتقي ببطء وسلاسة، وأعلو إلى ارتفاع سبعة أقدام في حركة سلسة واحدة. أتوقف في الأعلى، وأعدّ ثلاث ضربات طويلة في رأسي، ثم أفتح عينيّ. ثم يتحول كل شيء إلى سحر بعد ذلك. وعلى خلفية الموسيقا الهادرة، أؤدي بعض الحركات الهوائية البهلوانية لمدة ثماني دقائق، أدخل دائرة الضوء وأخرج منها وأنا ألتف وأتشقلب في الهواء. حركة تتدفق في حركة أخرى، وكل حركة أجمل من سابقتها. يتلاشى إحساسي بالخطر. تم تحويل كل شيء إلى متعة خالصة، وجذل خالص، ونشوة متأتية من رؤية قوانين الطبيعة تتهاوى أمام عينيك.

الجزء الرابع – بعد الشقلبة الأخيرة، أنزلق عائداً إلى موقعي في وسط المسرح الذي يرتفع سبعة أقدام عن الأرض. تتوقف الموسيقا. تُسلّط عليّ ثلاثة أضواء كشافة؛ أحدها أحمر، والآخر أبيض، وثالثها أزرق. تبدأ الموسيقا ثانية؛ تتصاعد أصوات التشيللو والأبواق الفرنسية في لحن غاية في الجمال. والأوركسترا تعزف لحنَ "أميركا جميلة"، الأغنية الأكثر شعبية على الإطلاق. وعندما يبدأ الفاصل الموسيقي

الرابع، أبدأ بالتحرك إلى الأمام ثم أمشي على الهواء فوق رؤوس العازفين وصولاً إلى الجمهور. أستمر في المشي، والموسيقا تعزف، وصولاً إلى خلفية المسرح، وعيناي مثبتتان إلى الأمام، بينما تدور الرقاب وينهض المشاهدون من مقاعدهم. أصل إلى الحائط، ألتف، ثم أبدأ في العودة، ماشياً بالطريقة البطيئة والمهيبة نفسها. ولدى وصولي إلى خشبة المسرح ثانية، تكون أعين الجمهور شاخصة فيّ. فقد لامستهم بسموّي وفضيلتي، وأشركتُهم في لغز قواي الإلهية. ألتف في الهواء، وأتوقف ثانية لوقت وجيز، ثم أطفو عائداً إلى الأرض مع نغمات الأغنية الأخيرة. أفتح ذراعيّ وأبتسم. أنحني – مرة واحدة فقط – ثم تنسدل الستارة.

لم يكن عرضاً سيئاً. ربما ينطوي على شيء من الزهو في النهاية، لكن المعلم أصرّ على "أميركا جميلة"، ولم أتمكن من إقناعه بإسقاطها من العرض. الحركات الإيمائية الافتتاحية جاءت رغماً عني، وكان المعلم متحمساً جداً لتلك السقطات المضحكة إلى درجة وصلت حد المبالغة. من شأن زيّ المهرج أن يجعلها مضحكة أكثر، قال لي، لكنني اعترضت على ذلك قائلاً إن العكس صحيح. فإن كان الناس ينتظرون نكتةً، عليك أن تبذل جهداً أكبر لكي تتمكن من إضحاكهم. لا يمكنك أن تقدم ما لديك دفعة واحدة؛ عليك أن تتسلل إليهم وتدغدغهم أولاً. بذلت جهداً كبيراً لكي أقنعه بذلك، لكنني لم أكن مقنعاً إلى ذلك الحد في ما يتعلق بالمسائل الأخرى. كان قلقي الأكبر يتمحور حول النهاية؛ ذلك الجزء حيث أغادر المسرح وأجول في

الهواء فوق المشاهدين. كنت أدرك أنها فكرة جيدة، لكنني لم أكن أملك ثقة كافية في قدراتي على الارتقاء. فإن لم أحافظ على ارتفاع يصل إلى ثمانية أقدام ونصف أو تسعة أقدام، يمكن لأي شيء أن يحدث. يمكن أن يقفز بعض المشاهدين ويضربوا قدميّ بأيديهم، ويمكن لأي ضربة خفيفة أن تُفقدني توازني وتُحيدني عن مساري. وماذا لو تمسّك أحدٌ بكاحلي وسحبني إلى الأرض؟ سوف يحدث هرج ومرج في المسرح، وربما ينتهي الأمر إلى قتلي. بدا لي ذلك خطراً محتملاً جداً، لكن المعلم سخر من توجسي ذاك. "يمكنك أن تفعل ذلك"، قال لي. "ارتفعت إلى اثني عشر قدماً في فلوريدا في الشتاء الماضي، ولا أعود أذكر عرضاً نزلت فيه عن عشرة أقدام. ربما في ألاباما، كنت تعاني من الزكام في ذلك اليوم ولم تكن متحمساً للعرض. لكنك تحسّنت يا وولت. فقد أظهرت تقدماً تدريجياً في جميع المجالات. سيتطلب الأمر منك بعض التركيز، لكن الارتقاء إلى تسعة أقدام لم يعد يتطلب جهداً كبيراً منك. إنه مجرد يوم آخر من العمل؛ مجرد نزهة صغيرة تعود بعدها إلى موقعك الأساسي. لا مشكلة في ذلك. مرة واحدة وتتجاوز الأمر. صدقني يا بنيّ، سوف تسير الأمور بسهولة وسلاسة".

كانت الخدعة الأصعب هي قفزة السلّم، وقد قضيت وقتاً في التدرب عليها يعادل كل ما قضيته في التدرب على الحركات الأخرى كلها. كان معظم العرض إعادة تركيب لحركات سبق أن أدّيتها بسهولة بالغة. المعدات غير المرئية، والانطلاقات العمودية، والحركات البهلوانية الهوائية؛ كانت جميع تلك الأشياء قد أصبحت خدعاً قديمة

في تلك المرحلة. لكن قفزة السلّم كانت جديدة، وكان العرض كله متوقفاً على إتقاني تلك الحركة. ربما لا تبدو مهمة بالمقارنة مع تلك الاستعراضات الدرامية – مجرد الارتقاء ثلاثة إنشات مع كل تكة من الساعة – لكن الصعوبة تكمن في التحوّل، في الخطوتين السريعتين المطلوبتين لنقلي من حالة إلى أخرى. فمن الحركات السريعة على خشبة المسرح، كان عليّ الانتقال مباشرة إلى الارتقاء، وكان عليّ القيام بذلك بحركة سلسلة واحدة، مما يتطلب التعثر إلى الأمام، والإمساك بعارضة السلم، والارتقاء في الوقت نفسه. قبل ذلك بستة أشهر، ما كنت لأحاول شيئاً كهذا، لكنني كنت قد أحرزت تقدماً في تقليص مدة الغيبوبة التي تسبق الارتقاء. فبعد أن استغرقت هذه الفترات ستّ أو سبع ثوانٍ في البداية، نجحتُ في تقليصها إلى أقل من ثانية واحدة، مما نتج عنه انصهارٌ شبه آنيّ بين الفكرة والفعل. كنت أفعل ذلك من وضعية الوقوف. طالما فعلتها بتلك الطريقة؛ كانت واحدة من السمات الأساسية للفن الذي أقدمه، ومثل ذلك التغيير الجذري كان يستدعي إعادة التفكير في العملية كلها من أولها إلى آخرها. لكنني فعلتها. فعلتها حقاً؛ ومن بين جميع الحركات التي أتقنتها في عمليات الارتقاء، كانت تلك الحركة مصدر فخري الأكبر. أطلق عليها المعلّم ياهودي اسمَ "الاندفاعة التناثرية"، وكان توصيفه دقيقاً؛ الشعور بالوجود في أكثر من مكان في الوقت نفسه. فأثناء سقوطي الأمامي، عليّ أن أثبت قدميّ في الأرض لجزء من الثانية، ثم أرمش. كانت الرمشة مهمّة جداً، لأنها تستعيد ذكرى الغيبوبة، فمجرد لحظة واحدة من ذلك الفراغ كانت كافية لتحفيز

ذلك التحول الضروري فيّ. سوف أرمش وأرفع ذراعي لأمسك بتلك العارضة غير المرئية، ثم أبدأ في الارتقاء. لم يكن لمثل تلك الحركة السريعة أن تستغرق وقتاً طويلاً. كان الوقت الأقصى المخصص لها ثلاثة أرباع الثانية، لكن ذلك كان كل ما أحتاجه، وحالما أتقنتُ تلك الحركة حتّى أصبحت نقطة الانعطاف الكبيرة في العرض والمحورَ الذي تدور حوله جميع الأشياء الأخرى.

قبل أن نغادر كيب كود بثلاثة أيام، قام رجل في بزة بيضاء بإيصال سيارة "بيرس آرو" إلى مكان إقامتنا. كان السائق قد جلب السيارة من ويتشوتا، وعندما نزل منها وسلّم على المعلم بحرارة، اعتقدتُ أنني أنظر إلى أورفيل كوكس اللعين. رغبتُ في ركل ذلك المخادع الأفّاق في قصبة ساقه، ولكن قبل أن أتمكن من استقباله بتلك الطريقة أنقذني المعلّم ياهودي حين ناداه بالسيد بيغيلو. وسرعان ما أدركت أنه واحد آخر من المعجبين بالسيدة ويذرسبون. كان شاباً في الرابعة والعشرين تقريباً، يتمتع بوجه مدوّر وضحكة تنم عن الخبث، وبين كل كلمة وأخرى يقولها كانت يطلع اسم "ماريون". لا بدّ أنها بذلت جهداً كبيراً في إقناعه لتقديم تلك الخدمة لها، لكنه بدا مسروراً من نفسه وفخوراً بتلبية طلبها. شعرت برغبة في التقيّؤ. وعندما دعاه المعلم إلى الدخول وتناول شراب بارد، كنت قد أدرت له ظهري وبدأت أصعد على الدرج الخشبي.

توجهت مباشرة إلى المطبخ. كانت السيدة هوثورن هناك تغسل الأطباق، بجسدها الضئيل النحيل القابع على كرسي صغير قرب المجلى. "مرحبا، سيدة هوثورن"، قلت لها والغضب لا يزال يعتمل

في داخلي، وشعور يتملكني بأن الشيطان نفسه يلهو داخل رأسي.

"ما العشاء الليلة؟".

"سمك، مع هريس البطاطا، والشمندر المخلل"، أجابت بنبرة نيو إنغلاند المقتضبة.

"يَم. كم أنا متشوق لالتهام ذلك الشمندر. احسبي حسابي بكمية كبيرة منه".

ارتسمت على فمها ابتسامة خفيفة. "تكرم عينك، معلّم بَك"، قالت ذلك واستدارت على الكرسي لتنظر إليّ. تقدمت ثلاث أو أربع خطوات نحوها، ثم تذوقت المخلل الشهي.

"مع أنك طباخة ماهرة يا سيدتي"، قلت لها، "أراهن أنك لم تحضّري شيئاً لذيذاً كهذا من قبل".

ثم، وقبل أن تتفوّه بكلمة واحدة، ابتسمتُ لها، ومددتُ ذراعيّ، وارتفعت عن الأرض. ارتفعت ببطء إلى أعلى ما يمكنني دون أن أضرب رأسي بالسقف. وحين صرت في الأعلى، تعلقت هناك في الهواء وأنا أنظر إلى السيدة هوثورن تحتي، وكانت الصدمة التي ارتسمت على محيّاها كل ما أملتُ في تحقيقه. اختنقت صرخة في حلقها؛ زاغت عيناها؛ ثم أغمي عليها وسقطت عن الكرسي محدثة ضجة خفيفة.

صدف أن المعلم والسيد بيغيلو كانا يدخلان المنزل في تلك اللحظة، وعندما سمعا صوت الارتطام هرع الاثنان إلى المطبخ. دخل المعلّم ياهودي أولاً وأنا أهبط عائداً إلى الأرض، ولكن عندما وصل بيغيلو بعد ثانيتين كانت قدماي قد لامستا الأرض.

"ما هذا!" قال المعلم وقد فهم الوضع بلمحة واحدة. دفعني جانباً ثم انحنى فوق جسد السيدة هوثورن الهامد. "ما هذا، بحق الجحيم!".

"مجرد حادث بسيط"، قلت له.

"حادث، ها؟" قال لي بصوت ينمّ عن غضب لم أشهده منذ أشهر، بل ربما سنوات. فجأة ندمتُ على تلك الحركة السخيفة التي قمت بها. "اذهب إلى غرفتك، أيها الغبي، ولا تخرج منها قبل أن أطلب منك ذلك. لدينا ضيف الآن، وسيأتي حسابك لاحقاً".

لم تتح لي الفرصة لآكل الشمندر المخلل ذاك، ولا أيّاً من أطباق السيدة هوثورن الأخرى في حقيقة الأمر. فحالما استفاقت من غيبوبتها، نهضت وغادرت المنزل على الفور وهي تقسم أن قدميها لن تطآ منزلنا ثانية. لم أكن موجوداً عندما غادرت المنزل، ولكن هذا ما قاله لي المعلّم في صباح اليوم التالي. في البداية اعتقدتُ أنه يمازحني، ولكن عندما لم تأتِ عند منتصف النهار كعادتها أدركتُ أنني أخفتُ المرأة حتى الموت. هذا ما أردتُ أن أفعله بالضبط، ولكن بعد أن فعلت ذلك لم يعد الأمر مضحكاً لي. حتى إنها لم تعُد لتأخذ أجورها المتبقية، ومع أننا بقينا في المنزل لثلاثة أيام أخرى إلا أننا لم نرها بعد ذلك.

بالإضافة إلى الطعام الرديء الذي تناولناه في تلك الفترة المتبقية، شعرتُ بالإذلال عندما طلب مني المعلّم ياهودي تنظيف المنزل صبيحة اليوم الذي وضّبنا فيه أغراضنا ورحلنا. كنت أكره ذلك النوع من العقوبات – كالذهاب إلى النوم من دون عشاء، وإنجاز الأعمال

المنزلية - وعلى الرغم من نوبات الاحتجاج والتذمّر، كان المعلّم يصرّ على تنفيذي أوامره تلك. لم يكن يهمّ أنني كنت ألمعَ صبيّ منذ داوود ونقّافته تلك. كنت قد خالفت الأوامرَ، وقبل أن يكبر رأسي كثيراً وينتفخ كالمنطاد، لم يكن أمام المعلّم أيّ خيار سوى معاقبتي وتأديبي.

أما في ما يتعلق ببيغيلو، الذي تسبّب في انفعالي المزاجي ذاك، ليس هناك الكثير ليقال. بقي لبضع ساعات، وعند المساء جاءت سيارة أجرة كي تقلّه، أو ربما لتوصله إلى أقرب محطة قطار يستقله في عودته الطويلة إلى كانساس. راقبته وهو يغادر من نافذتي في الطابق الثاني وأنا أشعر بازدراء كبير نحوه بسبب روحه المرحة الغبية تلك وصحبته لأورڤيل كوكس، الرجل الذي فضّلَته السيدة ويذرسبون على المعلّم. ومما زاد في الطين بلّة أن المعلّم ياهودي كان في غاية التهذيب معه، وقد زاد من غضبي أن أراه يعامل الموظف المصرفي التافه ذاك بذلك القدر من التهذيب والأدب. إذ لم يكتفِ بمصافحته فقط، بل كلّفه بإيصال هديته للعروس. فقبل أن يغلق باب سيارة الأجرة، وضع في يدي ذلك الوغد طرداً كبيراً مغلفاً بشكل جميل. لم تكن لديّ فكرة عن الهدية المخبأة في ذلك الصندوق. لم يخبرني المعلم شيئاً عنها، ومع أنني كنت أنوي سؤاله في أول فرصة، إلا أنه لم يطلق سراحي إلا بعد ساعات طويلة بحيث نسيت الأمرَ عندما حانت اللحظة المناسبة. لم أكتشف نوع الهدية تلك إلا بعد مضي سبع سنوات.

ذهبنا من كيب كود إلى ووستر، التي تبعد نصف يوم بالسيارة إلى

الغرب. كانت السيارة مريحة بمقاعدها الجلدية الوثيرة، وحالما توجهنا غرباً تركنا خلفنا جميع مشاكلنا وخلافاتنا. ومع ذلك، لم أشأ أن أتجاهل مسؤوليتي عما حصل، وحرصاً على صفاء النية بيننا اعتذرتُ للمعلم ثانية. "لقد ارتكبت خطأً"، قلت له، "وأنا آسف على ما فعلت"؛ وهكذا مضى الأمر وانتهى كما تمضي أخبار البارحة.

نزلنا في فندق "شيري فالي"، وهو مكان رثٌّ يعج بالعاهرات على مقربة من مسرح "لاكسور"، حيث سأؤدي عرضي الأول. وخلال اليام الأربعة التالية، كنا نتمرن على العرض في قاعة الموسيقا تلك كل صباح ومساء. كان هذا المسرح أبعد ما يكون عن القصر الترفيهي الكبير الذي حلمتُ به، لكنه كان يحتوي على خشبة وستائر وأضواء، وقد أكد لي المعلم أن المسارح التالية ستكون أفضل حالما نصل إلى المدن الكبيرة في جولتنا تلك. إن ووستر مكانٌ هادئ ومناسب لانطلاقتنا، قال لي، لكي أعتاد المسرحَ ثانية. تعلمت الحركات بسرعة كبيرة ودون أية صعوبات، ولكن بقيت هناك أشياء تفصيلية كان عليّ العمل عليها، مثل إتقان التتابع الضوئي، وتنسيق الحركات مع الموسيقا، وتصميم القفلة لتفادي الشرفة النافرة فوق نصف المقاعد في الأوركسترا. كان المعلم غارقاً في ألف تفصيل وتفصيل. فحص الستائر مع عامل الستائر، وقام بتعديل الأضواء مع مهندس الضوء، وأجرى محادثات مطولة عن الموسيقا مع الموسيقيين. كما دفع لهم مبلغاً لا بأس به لسبعة منهم لمرافقتنا في بروفات اليومين الأخيرين، وبقي يُجري تعديلات وتصحيحات على أدائهم حتى اللحظة الأخيرة في محاولة يائسة لضبط كل شيء.

وقد سعدت بالعمل مع أولئك الرجال. كانوا مجموعة من العازفين العاديين والقدامى الذين امتهنوا العزفَ قبل ولادتي، وعندما تجري بعض الحسابات السريعة تكتشف أنهم قضوا عشرين ألف ليلة في مسارح المنوّعات وعزفوا في مئة ألف عرضٍ مختلف. كان أولئك العجائز قد رأوا كل شيء، ومع ذلك عندما قدّمت عرضي أمامهم انفتحت أبواب الجحيم. فقد أغمي على الطبّال، وأسقط عازف الزمر زمرَه، وأصيب عازف الترومبون بالرعب. بدا ذلك كله علامة جيدة بالنسبة إلي. فإن تمكنتُ من التأثير في أولئك الساخرين العتيقين، فكّر في ما يمكن أفعله أمام جمهور عادي.

كان موقع الفندق مناسباً، لكن الليالي في ذلك المكان النتن كانت تؤرّقني. فمع وجود تلك العاهرات وهنّ ينزلن ويصعدن على الدرج ويتجولن في الصالات، كان عضوي ينبض مثل عظم مكسور ولا يفسح لي مجالاً للراحة. كنا نتشارك أنا والمعلم غرفة مزدوجة، وكان عليّ الانتظار حتى أسمع شخيره في السرير المجاور قبل أن أتجرأ على مداعبة عضوي. وكان ذلك يحدث على دفعات متقطعة. كان يحبّ أن يتكلم في الظلام ويناقش النقاط الصغيرة المتعلقة ببروفات ذلك اليوم، وعوضاً عن الالتفات إلى مشاغلي الكثيرة، كان عليّ التفكير في إجابات مهذبة لأسئلته. ومع مرور كل دقيقة، كان عذابي يتفاقم أكثر ويصبح أكثر إلحاحاً. وعندما يغفو أخيراً، كنت أمد يدي وأنزع إحدى فردتي جوربي المتسخ لكي أقذف فيها، وكنت أمسكها بيدي اليسرى بينما أطلق اليد اليمنى للعمل، ثم أقذف بالمني في ثنايا قطعة القطن تلك. وبعد فترة طويلة من التأجيل، لم يكن الأمر يأخذ أكثر من

بضع ثوانٍ. كنت أتأوه بصوت منخفض وأحاول النوم بعدها، لكن مرة واحدة لم تكن كافية لي في تلك الأيام. فعندما أسمع ضحكات إحدى العاهرات في الرواق، أو صرير سريرٍ في الغرفة العلوية، كان رأسي يمتلئ بالصور البذيئة. وسرعان ما يتصلّب عضوي لأعود إلى مداعبته وإسكاته.

في إحدى الليالي، يبدو أنني أصدرتُ ضجة قوية. كانت الليلة التي تسبق عرضَ ووستر، وكنت على وشك التبرّك بتلك النعمة العظيمة عندما استيقظ المعلم. وأية صدمة كانت! فعندما طلع صوتُه من العتمة، شعرتُ كأن الثريا قد سقطت على رأسي.

"ما المشكلة يا وولت؟".

ألقيت ببضاعتي وكأنها أزهرت أشواكاً. "مشكلة؟" قلت له. "ماذا تعني بالمشكلة؟".

"أعني تلك الضجة. ذلك الاحتكاك والاهتزاز والصرير. تلك الأصوات القادمة من سريرك".

"لديّ حكّة. إنها حكة سيئة أيها المعلم، وإن لم أحكّ بقوة لا يمكنني التخلص منها".

"ويا لها من حكّة. حكّة تبدأ بين الجنبين وتنتهي فوق الأغطية. خذ استراحة يا بني. سوف ترهق نفسك، والاستعراضي المتعب مؤدٍّ سيئ".

"لكنني لست متعباً. فأنا في قمة الجهوزية وجاهز للانطلاق".

"في الوقت الحاضر، ربما. لكن للعادة السرية تأثيرها، فبعد وقت قصير سوف تشعر بالإرهاق. لست بحاجة لأخبرك عن قيمة العضو.

ولعلك به يتزايد باستمرار، ومن الممكن أن يتحول إلى إصبع من الديناميت. احتفظ بالبِندو يا وولت. وفّره للوقت المناسب".

"أحتفظ بماذا؟".

"البندو. إنه مصطلح هندي للدلالة على أصل الحياة".

"تعني الحليب؟".

"نعم، الحليب. أو أي شيء آخر تريد أن تسميه. هناك مئات الأسماء، لكنها تعني الشيء نفسه".

"أحب البندو. فهو يساعدني على جلدهنّ بسهولة".

"حاول ألّا تجلد نفسك، أيها الرجل الصغير. لدينا أيام وليالٍ عصيبة ومهمة أمامنا، وسوف تحتاج إلى قواك كلها".

لم يهمني ذلك كله. فسواء كنت متعباً أم لا، كنت أدخل من البوابة كخفاشٍ خارج من الجحيم. أذهلناهم في ووستر. وصدمناهم في سبرينغفيلد. وشلّحناهم سراويلَهم في بريدجبورت. وحتى ذلك الخطأ الذي حصل في نيو هيڤن كان بمثابة نعمة إلهية، بعد أن أسكتَ المشككين إلى الأبد. فمع انتشار أخباري وكثرة الأحاديث المتداولة عني، كان من الطبيعي أن يبدأ البعض في التفكير في لجوئي إلى الخداع. كانوا يعتقدون أن العالم مركبٌ بطريقة معينة، ولم يكن فيه مكان لشخص يتمتع بمواهبي تلك. فما أقوم به يخالف جميع القوانين. فهو يتناقض مع العلم، ويقلب مفاهيمَ المنطق والحسّ السليم، ويهدم مئات النظريات، وعوضاً عن تعديل القوانين لتتماشى مع العرض الذي أقدمه قرر أولئك العباقرة والأساتذة الكبار أنني ألجأ إلى الغش. كانت الصحف مليئة بتلك الأقاويل في كل مكان

نذهب إليه: حوارات ونقاشات، تهمٌ وتهم مضادة، وجميع الآراء المتناقضة التي يمكن أن تخطر على بالك. لكن المعلم لم يشارك في تلك النقاشات. اكتفى بالوقوف جانباً، سعيداً بالأموال المتدفقة من شبابيك التذاكر، وعندما كان المراسلون الصحافيون يلحّون عليه للتعليق على الموضوع، كان يقدم إجابة واحدة: "تعالوا على المسرح واحكموا بأنفسكم".

بعد أسبوعين أو ثلاثة من الجدل المحتدم، وصلت الأمور إلى ذروتها في نيو هيڤن. لم أنسَ أن هذه المدينة تحتوي على جامعة ييل، وأنه لولا تلك الجريمة النكراء التي وقعت في كانساس قبل سنتين لكانت المدينة التي يعيش فيها أخي إيسوب أيضاً. شعرت بالحزن لوجودي هناك، وطوال اليوم الذي سبق العرض جلستُ في غرفة الفندق مُثقلَ القلب، أتذكر الأوقات الجنونية التي قضيناها معاً وأفكر في المستقبل الباهر الذي كان في انتظاره. وعندما ذهبنا إلى المسرح أخيراً في الساعة السادسة، كنت محطماً؛ وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلتها كان العرض الذي قدّمته الأسوأ في حياتي المهنية كلها. كان توقيتي سيئاً، وكنت أتمايل أثناء الدوران، وكان ارتقائي شنيعاً. وعندما جاءت اللحظة التي سأطير فيها فوق رؤوس المشاهدين انفجرت القنبلة المشؤومة أخيراً. فقد تمكنتُ، بنوع من الإرادة الصرفة، من الارتفاع إلى سبعة أقدام ونصف فقط، وبدأت تأدية الحركة الختامية بتوجّس كبير لإدراكي أنه بمقدور شخص طويل نسبياً أن يمسك بقدمي دون أن يكلف نفسه عناء القفز. وبعد ذلك سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ. فعندما كنت أطوف فوق

مقاعد الأوركسترا، استجمعت قواي كلها محاولاً الارتفاع قليلاً. لم أكن آمل في المعجزات؛ مجرد فسحة تنفّس صغيرة لا تزيد على ستة أو ثمانية إنشات. توقفت قليلاً لأستجمع قواي، أحوم في مكاني وأغمض عينيّ وأركز على محاولتي تلك، ولكن ما إن تحركت قليلاً حتى اكتشفت عجزي عن الارتفاع أكثر. ليس ذلك فقط، ولكن بعد بضع ثوانٍ أدركت أنني أهبط إلى السفل. حدث ذلك ببطء، ببطء شديد، إنشاً أو اثنين مع كل ياردة أقطعها، ولم أجد طريقة لإيقاف هبوطي ذاك؛ وكأن الهواء ينفذ من المنطاد. وعند وصولي إلى المقاعد الخلفية، كنت قد هبطت إلى ستة أقدام وصرت أشبه ببطةٍ جاثية يمكن لشخص قزم أن يمسك بها. ثم بدأ الهرج. قام رجل أحمق يرتدي سترة حمراء من مقعده وضربني على كعب قدمي اليسرى. أفقدتني الضربة توازني وبدأت أتأرجح كمنصة استعراضٍ مائلة، وقبل أن أتمكن من استعادة توازني جاءتني ضربة على قدمي الأخرى. كانت الضربة الثانية قاضية. هويتُ إلى الأرض كسنونو ميت ووقعت على جبهتي فوق مسند كرسي معدني. كان الارتطام مفاجئاً وعنيفاً إلى درجة غبت فيها عن الوعي.

لم أشهد الهرج الذي تلا ذلك، لكنه كان عظيماً بالتأكيد: تسعمئة شخص يصرخون ويقفزون في جميع الاتجاهات، وهستيريا جماعية انتشرت في الصالة كالنار في الهشيم. ومع أنني فقدت الوعي، فإنّ سقطتي تلك أثبتت شيئاً واحداً لا يداخله الشك؛ أن العرض حقيقي. لم تكن هناك أسلاك غير مرئية مربوطة بأعضائي، ولا فقاعات هيليوم مخبأة تحت ملابسي، ولا محركات صامتة مثبتة حول خصري. كان

المشاهدون يمرون بالقرب من جسمي الهامد، واحداً إثر الآخر، ويلمسونني ويقرصونني بأصابعهم الفضولية وكأنني عينة طبية من نوع ما. خلعوا عني الزي الذي أرتديه، ونظروا في داخل فمي، وفتحوا فردتَي مؤخرتي وتفحصوا فتحة شرجي، دون أن يعثر أحد منهم على أي شيء لعين لم يضعه الله هناك. في تلك الأثناء، كان المعلّم قد هرع من مكانه في مؤخرة خشبة المسرح وأخذ يشق طريقه صوبي. وبعد أن قفز فوق تسعة عشر صفّاً من الزبائن وخلّصني من بين أيديهم، كان الحكمُ قد جاء بالإجماع. "الصبي المعجزة وولت" صادق وحقيقي. العرض حقيقي لا ريب فيه، وما تراه هو ما يحدث فعلاً، آمين.

جاءت آلام الرأس الأولى في تلك الليلة. فنتيجة السقطة على مسند الكرسي، لم يكن من المستغرب أن أشعر ببعض الوخز الناجم عن الرضوض التي عانيت منها بعد ذلك. لكن هذا الألم كان فظيعاً؛ أشبه بوقع المطرقة، أو البرَد الذي يضرب على الجدران الداخلية لجمجمتي، وقد أيقظني من نومي العميق في منتصف الليل. كنا أنا والمعلم نتشارك غرفتين يفصل بينهما حمّام، وحالما استجمعتُ قواي وشجاعتي نهضت من السرير نحو الحمام أملاً في العثور على بعض الأسبيرين في الصيدلية الصغيرة. كنت أشعر بالدوار والغثيان ولم أنتبه أن الضوء شاعل في الحمام. أو، في حال لاحظت فعلاً، لم أتوقف لأتساءل عن سبب ذلك في الساعة الثالثة صباحاً. وسرعان ما أدركت أنني لست الوحيد الذي غادر سريره في تلك الساعة المشؤومة. وعندما فتحت الباب ودخلت إلى الغرفة البيضاء المتوهجة، كدت أن

أتعثر بالمعلّم ياهودي. كان يرتدي بيجامته الحريرية الزرقاء ويتمسك بحوض الغسيل بكلتا يديه وقد انثنى جسمه من الألم وهو يشهق ويحاول التقيؤ وكأن أحشاءه تشتعل. استمرت الهجمة لعشرين أو ثلاثين ثانية أخرى، وكان المنظر مريعاً إلى درجة نسيت معها آلامي.

حالما شعر المعلّم بوجودي، فعل كلّ ما في وسعه للتغطية على ما حدث. فقد تحولت تشنجات وجهه إلى ابتسامات متكلفة؛ انتصب واقفاً ودفع كتفيه إلى الخلف، ثم مسّد شعره براحتي يديه. أردت أن أقول له إن عليه أن يتوقف عن التظاهر، وإنني أعرف سرَّه الآن، لكن ألمي كان فظيعاً إلى درجة لم أقوَ معها على استحضار الكلمات اللازمة. سألني عن سبب استيقاظي، وعندما علم بالألم الذي أعانيه في رأسي، أمسك بزمام الأمور وبدا منهمكاً وهو يلعب دور الطبيب؛ يهز الزجاجة ليُخرج بعض الأسبيرين، ويملأ كأساً بالماء، ويتفحص الورمَ الناتئ من جبهتي. كان يتكلم طوال ذلك الوقت، فلم أتمكن من التلفظ بكلمة واحدة.

"نحن ثنائي رائع، أليس كذلك؟" قال لي وهو يحملني إلى غرفتي ويضعني في سريري. "أنت تسقط على وجهك وتعطب جبهتك، ثم آتي أنا وأخرش معدتي بالبطلينوس الفاسد. يجب أن أبتعد عن تلك الأشياء. فكلّما أكلتها أعاني من هذه الآلام الحقيرة".

لم تكن قصة سيئة، خاصّةً أنه اضطر إلى ارتجالها على عجل، لكنها لم تنجح في خداعي. وبغض النظر عن رغبتي الجامحة في تصديقه، إلا أنني لم أصدق كلمةً واحدة ممّا قاله.

مع حلول المساء التالي، كان أسوأ ما في ألم الرأس قد تلاشى. بقي نبضٌ خفيف بالقرب من صدغي الأيسر، لكنه لم يكن كافياً ليمنعني من الحركة. وبما أن الورم كان في الجانب الأيمن من جبهتي، كان من المنطقي أن يتمركز الألم هناك، لكنني لم أكن خبيراً في تلك الأمور ولم أُعِر تلك المسألة اهتماماً كبيراً. فكلّ ما كان يهمّني أنّني شعرت بتحسّن ملحوظ، وأن الألم يتراجع بسرعة، وأنني سوف أكون مستعدّاً للعرض التالي.

كان قلقي الحقيقي يتمحور حول وضع المعلّم، أو ذلك الشيء الذي سبّب تلك الهجمة الفظيعة التي شهدتها في الحمام. لم يعُد بمقدوره أن يُخفي الحقيقة أكثر من ذلك. فقد انكشف سرُّه، وبما أنه بدا في حال أفضل بكثير في الصباح التالي لم أجرؤ على ذكر الموضوع. لم تسعفني أعصابي على التلفظ بأية كلمة. لست فخوراً بالطريقة التي تصرفت بها، لكن فكرة إصابة المعلم بمرض خطِر كانت مخيفة جداً بالنسبة إلي. فعوضاً عن القفز إلى استنتاجات مروعة، تظاهرت بتصديق تلك القصة التي رواها لي. البطلينوس! لقد أخفى عني حقيقة الأمر، وبما أنني رأيتُ ما لا يجب أن أراه فسوف يحرص على ألّا أراه مرّة ثانية. كنت واثقاً بقدرته على فعل تلك الأشياء. سوف يقاوم أية أعراض طارئة، وسوف يتظاهر بأنه على أفضل حال، وشيئاً فشيئاً سوف يتهيأ لي أنني لم أرَ شيئاً من

ذلك كله. ليس لأنني سأصدق كذبة كتلك، بل لأنني سأكون خائفاً من عدم تصديقها.

ذهبنا من نيو هيڤن إلى بروڤيدنس؛ ومن بروڤيدنس إلى بوسطن؛ ومن بوسطن إلى آلباني؛ ومن آلباني إلى سيراكيوز؛ ومن هناك إلى بافالو. أتذكر جميع تلك المدن والأماكن التي توقفنا فيها، وجميع المسارح والفنادق، وجميع العروض التي قدمتها؛ كل شيء عن كل شيء. كنا في أواخر الصيف وبداية الخريف. وشيئاً فشيئاً، كانت الشجار تشلح خضارَها. تحول العالمُ إلى الأصفر والبرتقالي والبني، وكانت حواف الطرق التي سلكناها مليئة بالألوان. كنا أنا والمعلّم في حركة مستمرة الآن، وبدا أن لا شيء يمكنه إيقافنا. أديت عروضاً في صالات مليئة في كل مدينة زرناها. لم يكن هناك إقبالٌ شديد على العروض فقط، بل كانت شبابيك التذاكر تغلق أمام المشاهدين الراغبين بمشاهدة العروض في كل ليلة. وقد حقق تجارُ البطاقات أرباحاً خيالية، إذ كانوا يبيعون البطاقات بأضعاف أثمانها الفعلية، وكلما توقفنا أمام فندق جديد كنا نجد في استقبالنا حشداً من المعجبين المجتمعين عند المدخل الذين كانوا يقفون لساعات وساعات تحت المطر وفي الصقيع ليلقوا نظرة واحدة عليّ.

كان المؤدون الآخرون الذين يشاركونني العروض يشعرون بشيء من الغيرة، على ما أظن، لكنهم حققوا مشاهدات وأرباحاً لم يحلموا بها من قبل. فعندما كانت الحشود تتدافع لمشاهدة عروضي، كانوا يشاهدون العروض الأخرى أيضاً، وكان ذلك يعني الربح الوفير لنا جميعاً. قدمت عروضي بعد عروض افتتاحية تشمل جميع أنواع

الاستعراضات الترفيهية. الكوميديون، وقاذفو الكرات، والمغنّون المزيفون، ومدربو الطيور، وفرق جاز صغيرة، وقرود راقصة؛ كلهم كانوا يؤدون عروضهم قبلي. كنت أتمتع بمشاهدة تلك الأشياء الغريبة، وأتودد إلى جميع الأشخاص اللطيفين الذين أقابلهم في خلفية المسرح، لكن المعلّم لم يكن متحمساً لفكرة اختلاطي بهم. كان يتعامل مع غالبيتهم برسمية ويحثني على الاقتداء به. "أنت النجم"، كان يهمس لي. "وعليك أن تتصرف كنجم. لست مضطراً لمجاملة أولئك المعاتيه". كانت نقطة خلاف بيننا، لكنني فكرت في أنّني سأعمل في برامج المنوعات هذه لسنوات طويلة ولا أرى سبباً لتلك العداوات المجانية. ومن دون علمي، كان المعلم يرسم خططه الخاصة لمستقبلنا الآتي، ومع نهاية شهر سبتمبر كان يتحدث عن جولة من العروض أكون فيها المؤدي الوحيد. هذه هي الطريقة التي كان يفكر بها المعلّم ياهودي؛ كلما حققنا نجاحاً أكبر، وضع أشياءَ أكبر نصب عينيه. لن تنهي الجولة الحالية حتى عيد الميلاد، لكنه كان يفكر في شيء أكبر للمرحلة التي تليها. وعندما حدثني عن ذلك للمرة الأولى، فاجأتني الجرأة التي ينطوي عليها اقتراحه ذاك. كانت الخطة تقتضي أن نبدأ شرقاً من سان فرنسيسكو إلى نيويورك، حيث نقدم عروضنا الخاصة في المدن العشر أو الاثنتي عشرة الكبيرة. سوف نحجز العروض في صالات مغلقة وملاعب رياضية مثل "ماديسون سكوير" و"سولدر فيلد"، حيث لا يقل أصغر حشدٍ عن خمسة عشر ألفَ مشاهد. "استعراض الفاتحين عبر أميركا"، هكذا وصف الجولة، وعندما انتهى من استعراض خطته كان قلبي يدق بسرعة

كبيرة. يا إلهي، كم هو متحدث بارع! كان فمُه واحدة من أعظم الآلات الترويجية في التاريخ، وحالما تبدأ بالدوران كانت الأحلام تتدفق منها كالدخان المتصاعد من المدخنة.

"يا إلهي يا معلم"، قلت له. "إن تمكنت من ترتيب جولة كهذه، سوف نجمع الملايين".

"سوف أرتبها"، قال لي. "فقط ثابر على أدائك الجيد، وأنا أضمن لك ذلك. هذا كل ما نحتاجه يا وولت. استمرّ بتقديم عروضك تلك، وسوف أضمن لك نجاحَ استعراض رولي الكبير".

في تلك الثناء، كنا نتهيأ لعرضي المسرحي الأول في نيويورك. لن نصل إلى هناك حتى عيد الشكر في نهاية الأسبوع، أي بعد فترة لا بأس بها، لكننا كنا ندرك أنها ستكون ذروة الموسم وذروة حياتي المهنية حتى ذلك الوقت. كان مجرد التفكير فيها يصيبني بالدوار. لم تكن عشرات العروض في مدن مثل بوسطن أو فيلادلفيا تساوي عرضاً واحداً من عروض نيويورك. أضف ستة وثمانين عرضاً في بوفالو إلى ثلاثة وتسعين عرضاً في ترينتون ولن يساوي الناتجُ دقيقة واحدة من العرض في "التفاحة الكبيرة". كانت نيويورك هي القمة، وهي نقطة الانطلاق على خارطة عالم الاستعراض، وبغض النظر عن جميع العروض التي قدمتها في المدن الأخرى فلن أحقق شيئاً ذا قيمة إلا إذا قدمت عرضي في "برودوي" وأريتهم ما يمكنني أن أفعله. لهذا السبب كان المعلّم قد ترك نيويورك لكي تكون المحطة الأخيرة في جولتنا تلك. كان يريدني أن أراكمَ خبرة كبيرة قبل وصولنا إلى هناك، أن أكون ذلك الجندي المتمرّس الذي يعرف طعم الرصاص ويجيد

التعامل مع جميع الظروف. وسرعان ما أصبحت ذلك الجندي العتيق. فمع حلول الثاني عشر من شهر أكتوبر، كنت قد قدمتُ أربعةً وعشرين عرضاً مسرحياً منوّعاً، وشعرت أنني جاهز ومتحفز للعرض الكبير قبل شهر كامل من الموعد المحدد. لم أتشوق لفعل شيء كذلك من قبل. كانت نيويورك تنهشني صباح مساء، وبعد فترة وجيزة لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من ذلك.

عرضنا في ريتشموند في الثالث عشر والرابع عشر، وفي بالتيمور في الخامس عشر والسادس عشر، ثم توجهنا إلى سكرانتون في بنسلفانيا. قدمت عرضاً جيداً هناك لم يكن أقل مستوىً من العروض السابقة. ولكن حالما ختمت العرض، وبعد أن انحنيت للجمهور وأسدلت الستارة، أغمي عليّ وسقطت على الأرض. كانت أموري ممتازة حتى تلك اللحظة، حيث أديت الشقلبات الهوائية بالسهولة المعتادة، ولكن حالما لامست قدماي خشبة المسرح للمرة الأخيرة، شعرت أنني أزن ألف رطل. حافظت على توازني إلى أن ابتسمت وانحنيت للجمهور وأسدلت الستارة، ثم ارتخت ركبتاي ووهن ظهري وهوى جسمي كلّه على الأرض. عندما فتحت عينيّ في غرفة الملابس بعد خمس دقائق، شعرت بدوخة خفيفة، ولكن بدا أن الأزمة قد مرّت. ثم وقفت، وفي تلك اللحظة تماماً عاودني وجع الرأس وسرى فيّ ألمٌ وحشي قاتل. حاولت التقدم قليلاً، لكن العالم كان يسبح ويهتز كراقصة شرقية في مرآة مشوهة ولم أعد أميز طريقي. وما إن تقدمت خطوة أخرى حتى فقدت توازني. لو لم يكن المعلم هناك ويمسك بي، لسقطت على وجهي مرة ثانية.

لم يكن أيٌّ منا مهيّأً لإبداء أيّ نوع من الذعر والهلع في تلك المرحلة. فربما كان ألم الرأس والدوخة ناتجَين عن مجموعة من الأسباب - الإرهاق، أو الزكام، أو التهاب في الأذن - ولكن من باب الاحتياط اتصل المعلم بمدينة ويلكس-بار وألغى عرضي المقرر في الليلة التالية. نمتُ بعمق في فندق سكرانتون، وشعرت بتحسن كبير في الصباح التالي بعد أن تلاشى الألم بشكل كامل. كان شفائي مناقضاً للمنطق، لكننا قبلناه كواحد من تلك الأشياء، كصدفة لا تستحق التأمل الطويل. انطلقنا إلى بيتسبرغ بمعنويات عالية، فرحين بيوم العطلة ذاك، وحالما وصلنا إلى هناك وحجزنا في الفندق، شاهدنا فيلماً معاً احتفاءً بشفائي وعودة قواي إليّ. لكن في الليلة التالية، عندما قدمت عرضي في "مسرح فوسبيرغ"، تكررت حادثة سكرانتون مرة ثانية. قدمت عرضاً رائعاً، وحالما نزلت الستارة وانتهى العرض، انهرتُ وسقطت على الأرض. عاد ألم الرأسِ حالما فتحت عينيّ، لكنه لم يختفِ بعد ليلة واحدة هذه المرة. فعندما استيقظت في الصباح التالي، كانت الخناجر لا تزال تحفر في جمجمتي ولم تتوقف حتى الخامسة مساءً؛ بعد بضع ساعات من إلغاء المعلّم العرضَ المقرّر في تلك الليلة.

كان كل شيء يشير إلى تلك الضربة التي تلقيتها في نيو هيڤن. كان ذلك السبب المرجح لمشكلتي، ولكن إن كنت أتحرك وأنا مصاب بارتجاج في الدماغ خلال الأسابيع القليلة الأخيرة، فلا بد أنه الارتجاج الأخف في التاريخ الطبي. إذ كيف يمكن تفسير الحقيقة الغريبة والمقلقة لتمتعي بصحة جيدة ما دامت قدماي تلامسان

الأرض؟ كان ألم الرأس والدوار يعودان بعد الانتهاء من العرض فقط، وإن كان الرابط بين الارتقاء وحالتي الجديدة مؤكداً كما بدا، فقد تساءل المعلم إن كان دماغي قد تعرض إلى ارتجاج يولّد ضغطاً على الشرايين القحفية في كل مرة أرتفع في الهواء، مما يؤدي بدوره إلى تلك الهجمات المؤلمة التي تبدأ حالما أعود إلى الأرض. كان يريد إدخالي إلى المشفى لأخذ صور شعاعية لجمجمتي. "لَم المجازفة؟" قال لي. "فقد وصلنا إلى نهاية الجولة، وربما تحتاج إلى أسبوع أو عشرة أيام من الراحة. سيجرون بعض الفحوصات، ويعاينون جهازك العصبي، وربما يتوصلون إلى اكتشاف أسباب هذه المشكلة اللعينة".

"مستحيل"، قلت له. "لن أدخل إلى المشفى".

"العلاج الوحيد للارتجاج الدماغي هو الراحة. فإن كان هذا هو الأمر، فليس أمامك أي خيار".

"انسَ الموضوع. أفضّل العمل الشاق مع مجموعة من السجناء على الدخول إلى واحد من تلك الأماكن".

"فكّر في الممرضات يا وولت. كل تلك الفتيات الصغيرات الجميلات في أزيائهنّ البيضاء. سوف تحصل على مجموعة منهنّ ليسهرن على راحتك طوال الليل والنهار. وإن تصرفتَ بذكاء، ربما تحصل على شيء من الإثارة".

"لا يمكنك أن تغويني. لن أسمح لأحدٍ بخداعي والنيل مني. اتفقنا على تقديم بعض العروض، وأنا مصمم على تقديمها، حتى لو قتلتني".

"ريدينغ وألتونا ليستا مهمتين يا بني. يمكننا إلغاء إلميرا وبنغامتون،

ولن يغير ذلك في الأمر شيئاً. أنا أفكر في نيويورك، وأعرف أنك تفكر فيها أيضاً. هذا هو العرض الذي يجب أن تستعدّ له".

"رأسي لا يؤلمني أثناء تأدية العرض. هذا كل ما يهم يا زعيم. ما دمت أستطيع الاستمرار، فسوف أستمر. ولا يهم إن تألمت قليلاً بعد ذلك. يمكنني العيش مع الألم. الحياة كلها ألم، وأجمل ما فيها يحدث عندما أؤدّي عرضي على المسرح".

"لكن المشكلة أن هذه العروض ترهقك كثيراً. أنت تعاني من آلام الرأس تلك باستمرار، ولن تبقى الصبي المعجزة وولت لوقت طويل. يجب أن أغيّر اسمك إلى مستر فيرتيغو".

"مستر من؟".

"مستر دائخ. مستر خائف من المرتفعات".

"لست خائفاً من شيء. أنت تعرف ذلك".

"أنت شجاع يا بنيّ، وأحبّ هذا فيك. ولكنْ هناك أوقاتٌ يواجهها من يمارسون مهنة الارتقاء، يصبح فيها الهواءُ محفوفاً بالمخاطر، وأعتقد أننا وصلنا إلى تلك المرحلة الآن".

استمررنا في مناقشة هذه الأشياء ساعة كاملة، وفي النهاية أقنعته بإعطائي فرصة أخيرة. كان ذلك هو الاتفاق. أقدم عرضي في ريدينغ في الليلة التالية، وسواء عادت آلام الرأس أم لم تعد، إن كنت في وضع يسمح لي بالعرض في ألتونا في الليلة التالية، فسوف أستمر في تقديم العروض المقررة. كانت مهمة جنونية، لكن تلك الهجمة الثانية أخافتني كثيراً، وكنت أخشى أنها مؤشّرٌ على فقداني لمهارتي. ماذا لو كانت آلام الرأس مجرد خطوة أولى؟ فكرتُ في أن أملي الوحيد

هو المضي إلى الأمام والاستمرار في تقديم العروض إلى أن أتحسن أو أعجز عن الاستمرار، ثم أرى ماذا سيحصل. كنت متحمساً جداً، ولم يكن يعنيني إن انفجر دماغي وتبعثر إلى ألف قطعة. فالموت أفضل من فقداني لقواي، قلت لنفسي. فإن لم أكن "الصبي المعجزة وولت"، لا أريد أن أكون أي شخص آخر.

كان العرض في ريدينغ سيئاً، بل أسوأ مما خشيت. لم يتوقف الأمر عند فشل العرض، بل جاءت النتائج أكثر كارثية من قبل. قدمت العرض ثم انهرت، كما توقعت تماماً، ولكن هذه المرة لم أستيقظ في غرفة الملابس. حملني عاملان في المسرح إلى الفندق، وعندما فتحت عينيّ بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة، لم يكن عليّ أن أقف لكي أشعر بالألم. ففي اللحظة التي رأت فيها عيناي الضوءَ بدأ العذاب. قفزت مئة عربةٍ عن السكة الحديدية وتجمعت في نقطة خلف صدغي الأيسر؛ تحطمت الطائرات هناك؛ تصادمت الشاحنات؛ ثم التقط شيطانان صغيران أخضران المطارق وأخذا يدقان الخوازيق في عينيّ. تقلبت من الألم في السرير، طالباً النجدة لتخليصي من تلك المحنة، وعندما طلب المعلّم من طبيب الفندق الصعود إلى الغرفة لإعطائي بعض الأدوية المهدئة، كنت عبارة عن كتلة من اللهب المتهاوي في وادي الموت.

استيقظت في مشفى فيلادلفيا بعد عشر ساعات، ولم أحرك ساكناً خلال الاثني عشرَ يوماً التالية. استمر وجع الرأس لثمانٍ وأربعين ساعة أخرى، وقد أعطوني جرعة مخدرة قوية فلم أتذكر شيئاً إلا في اليوم الثالث عندما استيقظت ثانية لأكتشف أن الألم قد زال. بعد ذلك،

أخضعوني لجميع أنواع الفحوصات والمعاينات. كان فضولهم فوق الوصف، فحين بدؤوا بعملهم لم يتركوني وشأني. في كل ساعة، كان طبيب مختلف يدخل إلى الغرفة ويعاينني. ضربوني على ركبتيّ بالمطارق، ومرروا معدات على جسدي؛ وسلطوا الأضواء الكاشفة على عينيّ؛ وأخذوا مني عينات بول ودم وبراز؛ واستمعوا إلى قلبي ونظروا في أذنيّ؛ وقاموا بتصويري بالأشعة من رأسي حتّى أخمص قدمي. لم يعد هناك شيء يستحق العيش سوى العلم، وقد قام أولئك الصبية في المراويل البيضاء بعملهم على أكمل وجه. بعد يوم أو يومين، حولوني إلى جرثومة عارية مرتعشة، إلى ميكروب عالق في متاهة من الإبر والسماعات وخافضات اللسان. لو كانت الممرضات جميلات بعض الشيء لبدا الأمر أخف وطأة، لكنهن متقدمات في السن وقبيحات بمؤخراتهنّ السمينة وذقونهنّ المشعرة. لم أرَ في حياتي طاقماً أكثر قبحاً، وكلما دخلت إحداهنّ لتقيس حرارتي أو تقرأ المخططات البيانية، كنت أغلق عينيّ وأتظاهر بالنوم.

لازمني المعلّم ياهودي طوال هذه المحنة. عرفت الصحافة بمكان وجودي، وخلال الأسبوع الأول كانت الصحف مليئة بالأخبار التي تتابع وضعي الصحي. كان المعلّم يقرأ لي هذه المقالات بصوت مرتفع يومياً. وكنت أشعر ببعض الارتياح وأنا أستمع إليها، ولكن في اللحظة التي يتوقف فيها عن القراءة كان السأم والنزق يعودان إليّ من جديد. ثم انهارت بورصة نيويورك ولم أعد أظهر في الصفحات الأولى. لم أعر الأمر الكثير من الاهتمام، لكنني اعتقدت أن الأزمة مؤقتة فقط، وحالما ينتهي ذلك الثلاثاء الأسود سأعود إلى العناوين

الرئيسية حيث كنت من قبل. بدت لي كل تلك القصص عن أشخاص يرمون أنفسهم من النوافذ ويطلقون النار على رؤوسهم نوعاً من الأفلام المثيرة الرخيصة ولم أكترث بها أو أعرها أي اهتمام يذكر. فالشيء الوحيد الذي كان يهمني هو العودة إلى العروض وإتمام الجولة. كان ألم الرأس قد زال وبدأت أشعر بتحسن رهيب كأنني عدت إلى حالتي الطبيعية بشكل كامل. وعندما أفتح عينيّ في الصباح وأرى المعلّم ياهودي جالساً بالقرب من سريري، كنت أبدأ يومي بطرح السؤال نفس الذي سألته إياه في اليوم السابق: متى أخرج من هنا؟ وفي كل يوم كان يعطيني الجواب نفسه: حالما تظهر نتائج الفحوصات.

وعندما ظهرَت، شعرْتُ بسعادة كبيرة. فبعد كل ذلك اللكز والنكز، وكل تلك الأنابيب وأكواب الشفط والقفازات المطاطية، لم يتمكن الأطباء من العثور على أي شيء. لا ارتجاج، ولا ورم دماغيّ، ولا مرض في الدم، ولا خلل في الأذن الداخلية، ولا كتل، ولا التهابات، ولا نتوءات. قرروا أنني بصحة ممتازة وأنني أتمتع بلياقة لا مثيل لها بين الفتيان في الرابعة عشرة. أما في ما يتعلق بآلام الرأس والنوبات الدوار، فلم يتمكنوا من تحديد السبب الدقيق. ربما كانت جرثومة دخلت جهازي المناعي وخرجت منه، أو ربما شيئاً ما أكلتُه. وبغض النظر عن ماهية ذلك الشيء، فإنه لم يعد موجوداً، وإن كان لا يزال موجوداً بالفعل فهو أصغر من أن يُكتشَف، حتى بواسطة أقوى منظار مكبر على وجه الأرض.

"يا هُمّالالي"، قلت عندما أخبرني المعلّم بالنبأ. "يا هُمّالالي يا معلّم".

كنا وحدنا في غرفتي في الطابق الرابع، نجلس بمحاذاة بعضنا بعضاً على حافة السرير. كان الوقت صباحاً، والضوء يتدفّق علينا عبر فتحات النافذة. لثلاث أو أربع ثوانٍ، شعرت أنني في قمة سعادتي. شعرت بسعادة غامرة جعلتني أرغب في الصراخ.

"ليس بهذه السرعة يا بنيّ"، قال المعلم. "لم أكمل كلامي بعد".

"سرعة؟ السرعة هي سر اللعبة يا معلّم. فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل. لقد فوّتنا سلفاً ثمانية عروض، وكلما أسرعنا في الخروج من هنا، وصلنا أبكرَ إلى وجهتنا التالية. ما المدينة التالية التي سنقدم فيها العرض؟ فإن لم تكن بعيدة، يمكننا أن نصل قبيل بداية العرض".

أمسك المعلم بإحدى يديّ وضغط عليها. "اهدأ يا وولت. خذ نفساً عميقاً، أغلق عينيك، ثم استمع لما سأقوله".

لم يبدُ الأمر نوعاً من الطرفة، ولذلك فعلت ما طلبه مني وحاولت المحافظة على هدوئي.

"جيد"، قال تلك الكلمة ثم توقف. مرت فترة صمت طويلة قبل أن يستأنف كلامه، وفي ذلك الفاصل من الظلام والصمت أدركت أن شيئاً مريعاً على وشك الحدوث. "لن تكون هناك أية عروض أخرى"، قال أخيراً. "لقد انتهينا يا بنيّ. الصبي المعجزة وولت لم يعد موجوداً".

"لا تستفزني أيها المعلم"، قلت له وأنا أفتح عينيّ وأنظر إلى وجهه المتجهّم الصارم. انتظرته لكي يغمز لي وينفجر ضاحكاً، لكنه اكتفى بالجلوس هناك والتحديق فيّ بعينيه الداكنتين، وقد أصبحَت تعابيرُ وجهه أكثر حزناً.

"لا يمكن أن أمازحك في مسألة كهذه"، قال لي. "لقد وصلنا إلى آخر الطريق، وليس هناك شيء يمكننا أن نفعله حيال ذلك".

"لكن الأطباء قالوا إنني بصحة ممتازة. فأنا قوي كحصان".

"هذه هي المشكلة. أنت لا تعاني من أي شيء، مما يعني أن لا شيء يستدعي العلاج. لا بالراحة، ولا بالأدوية، ولا بالتمارين. فأنت في أحسن حال، ولأنك في أحسن حال فإن مهنتك قد انتهت".

"هذا كلام جنوني أيها المعلّم. ليس هناك أي منطق فيه".

"لقد سمعت عن حالات أخرى شبيهة بحالتك من قبل. إنها نادرة. تتناول الكتب اثنتين منها فقط، وتفصل بينهما مئات السنين. فقد عانى مرتقٍ تشيكي في القرن التاسع عاشر مما تعاني منه أنت، وقبل ذلك كان هناك أنطوان دوبوا، وهو فرنسي، كان نشطاً في عهد لويس الرابع عشر. وبحسب علمي، هاتان هما الحالتان الوحيدتان اللتان نعرف عنهما. وأنت الحالة الثالثة يا وولت. ففي تاريخ الارتقاء كله، أنت ثالث شخص يواجه هذه المشكلة".

"لا زلت لا أفهم ما تتحدث عنه".

"البلوغ يا وولت؛ هذا ما أتحدث عنه. المراهقة. التغيرات الجسدية التي تجعل من الصبي رجلاً".

"تعني انتصاب قضيبي وتلك الأشياء؟ شعر العانة المجعد وتلك البحة في صوتي؟".

"نعم. كل تلك التحولات الطبيعية".

"ربما كنت أبالغ في ممارسة العادة السرية. ماذا لو توقفت عن ذلك الغباء؟ ماذا لو حافظت على البِندو لوقت أطول؟ هل تعتقد أن

هذا سيكون مفيداً؟".

"أشك في ذلك. هناك علاج واحد فقط لوضعك، ولكن لا يمكنني حتى التفكير فيه. فقد قسوت عليك سلفاً بما يكفي".

"لا يهمّني ذلك. فإن كانت هناك طريقة لإصلاح الأمر، فهذا ما يجب علينا أن نفعله".

"أنا أتكلم عن الإخصاء يا وولت. تقطع خصيتيك، ثم ربما تكون هناك فرصة أمامنا".

"هل قلت 'ربما'؟".

"لا شيء مضمون. الفرنسي فعل ذلك، واستمر في الارتقاء إلى أن بلغ الرابعة والستين. والتشيكي فعلها أيضاً، لكنها لم تفده في شيء. لم تأتِ العملية بأية فائدة، وبعد شهرين قفز عن تشارلز بريدج وقتل نفسه".

"لا أعرف ماذا أقول".

"طبعاً لا تعرف. فلو كنت مكانك، لن أعرف ما عليّ أن أقوله أيضاً. لهذا السبب أقترح عليك أن تنسى الموضوع. لا أتوقع منك أن تفعل شيئاً كهذا. لا يمكن لأي رجل أن يطلب ذلك من رجل آخر. ليس من الإنسانية أن يفعل ذلك".

"بما أن الأمر غير مضمون، ليس من الذكاء المجازفة فيه، أليس كذلك؟ أعني، إن تخليت عن كوني الصبي المعجزة، سوف أحتفظ بخصيتيّ لتسلّياني على الأقل. ولا أرغب أن أكون في وضع أخسر فيه الاثنين معاً".

"تماماً. ولهذا اعتبر الموضوع منتهياً. لا فائدة من التحدث فيه

أكثر من ذلك. فقد أدينا عروضاً رائعة، وقد انتهى ذلك الآن. على الأقل سوف تعتزل وأنت في القمة".

"ولكن ماذا لو اختفت آلام الرأس؟".

"لن تختفي. صدقني أنها لن تختفي".

"وكيف تعرف ذلك؟ ربما بقيت تراود ذينك الرجلين، ولكن ماذا لو كنت مختلفاً عنهما؟".

"لستَ مختلفاً عنهما. إنها حالة دائمة، ولا علاج لها. فباستثناء المجازفة التي سبق أن رفضناها، سوف تلازمك آلام الرأس لبقية حياتك. فمقابل كل دقيقة تقضيها في الهواء، سوف تعاني من آلام مبرحة لثلاث ساعات على الأرض. وكلما تقدمت في العمر، زاد الألم. إنه انتقام الجاذبية يا بنيّ. اعتقدنا أننا تمكنّا من مراوغتها، ولكن تبيّن أنها أقوى منا. هكذا تسير الأمور. ربحنا لفترة، وها نحن نخسر الآن. فليكن. إن كانت هذه مشيئة الله، فعلينا أن نخضع لإرادته".

بدا الوضع حزيناً ومحبطاً وعقيماً. فقد جاهدت طويلاً لأحقّق النجاح، والآن، عندما كنت على وشك أن أصبح واحداً من الشخصيات التي يخلّدها التاريخ، كان عليّ أن أتخلى عن ذلك كله. ابتلع المعلّم ياهودي هذا السمَّ دون أن يرفّ له جفن. تقبّل مصيرَنا كشخص رُواقيّ دون أن يثير ضجة حول الموضوع. كانت وقفة نبيلة، على ما أعتقد، ولكن لم يكن من طبيعتي أن أتقبّل الأخبار السيئة بذلك النوع من الاسترخاء والهدوء. فحالما نضبت منا الكلمات، وقفت وبدأت أركل الأثاث وأضرب الجدران وأنط

في الغرفة كالمجنون. قلبت كرسياً، وأطحت بالطاولة إلى الأرض، ولعنتُ حظي السيئ بصوت أشبه بالزعيق. لكن العجوز الحكيم، المعلّم ياهودي، لم يحاول إيقافي. حتى عندما هرعَت ممرضتان إلى الغرفة لمعرفة ما يجري، أخرجهما من الغرفة بهدوء شديد قائلاً إنه سيتكفل بدفع النفقات الناجمة عن الأضرار الحاصلة. كان يعرف طبيعتي، وأنني بحاجة إلى تفريغ غضبي. لست ذلك الشخص الذي يجيد كبت مشاعره؛ ولست ذلك الشخص الذي يدير خدّه الآخر. وإن كان العالم قد وجّه صفعة لي، فسوف أردّ له الصاعَ صاعين.

لا بأس إذاً. كان يتمتّع المعلّم ياهودي من الذكاء بحيث تركني أتصرف على سجيّتي، ولن ألومه على تصرفي الأحمق ذاك وجنوني المبالغ فيه. ففي وسط ثورتي وهيجاني، طلعتُ بأغبى فكرة يمكن أن تخطر لي. وقد بدت لي في غاية الذكاء حينها، لكن ذلك مردّه إلى عجزي عن تقبّل ما حصل؛ فحالما ترفض الحقائق الماثلة أمام عينيك، حتّى تبدأ في البحث عن المشاكل. لكنني كنت أحاول يائساً أن أثبت للمعلم بأنه على خطأ وأبرهن له أن نظرياته حول حالتي مجرد لغوٍ فارغ. وهكذا، وفي غرفة المشفى في فيلادلفيا، في اليوم الثالث من نوفمبر ١٩٢٩، غامرت في محاولة أخيرة لإنقاذ حياتي المهنية. توقفت عن ضرب الحائط، واستدرتُ مواجهاً المعلم، ثم فردتُ ذراعيّ وارتفعت عن الأرض.

"انظر!" صرخت عليه. "انظر جيداً وقل لي ما الذي تراه!".

تفحّصني المعلم بنظرة قاتمة وحزينة. "أرى الماضي"، قال لي.

"أرى الصبي المعجزة وولت للمرة الأخيرة. أرى شخصاً سيندم على ما فعله الآن".

"لا زلت كما كنت دوماً!" صرخت عليه. "الأفضل في العالم كله!".

نظر المعلم إلى ساعة يده وقال: "عشر دقائق. مقابل كل ثانية تقضيها هناك، سوف تتألم لثلاث دقائق. أؤكد لك ذلك".

فكرتُ في أنني أثبتُّ وجهة نظري، وعوضاً عن المجازفة بنوبة طويلة من الألم قررت الهبوط والعودة إلى الأرض. ثم بدأت النوبة، كما توقع المعلّم تماماً. فما إن لامست أصابعُ قدميّ الأرضَ حتى انشقّ رأسي ثانية وانفجر بعنفٍ أطفأ الضوءَ في عينيّ وجعلني أرى النجوم. انطلق القيء من حلقي وطرَشَ على بعد ستة أقدام على الحائط المقابل. ثم بدأت السكاكين تحفر في جمجمتي وصولاً إلى لبّ دماغي. بدأت أهتز وأصرخ، ثم سقطت على الأرض، لكنني لم أتمتع برفاهية الإغماء هذه المرة. هويتُ دفعة واحدة كسمكة علق الخطاف في عينها، وعندما استنجدت بالمعلّم كي يأتي بطبيب يعطيني حقنة مهدئة، هز رأسه وتركني وشأني. "سوف يتوقف الألم"، قال لي. "فبعد أقلّ من ساعة ستكون في أحسن حال، كما كنتَ من قبل". ثمّ، دون أن يواسيني بكلمة واحدة، نظّف الغرفة ورتّبها بهدوء شديد وبدأ يحزم حقيبتي.

كانت تلك المعاملة الوحيدة التي استحققتها. لم أصغِ لما قاله لي ولم أترك له خياراً سوى التراجع وترك أفعالي تتحدث عن نفسها. وقد تحدث الألمُ إليّ، وأصغيت له هذه المرة. أصغيت لسبع وأربعين

دقيقة، وعندما انتهى الدرس كنت قد تعلّمت كل ما أحتاج إلى معرفته. هكذا يعلّمك العالم. وهكذا يغزو قلبك الحزن. لقّنني الألمُ الدرسَ الذي أستحق، وعندما خرجت من ذلك المشفى في ذلك الصباح كان رأسي قد عاد إلى حالته الأولى من جديد. فهمتُ حقائقَ الحياة. فهمتُها في جنَبات روحي كلها وفي مسامات جلدي، وقررت ألا أنساها بعد ذلك. انتهت أيام العز. مات الصبي المعجزة وولت، ولم تبقَ أمامه أية فرصة للظهور ثانيةً.

عدنا إلى فندق المعلّم بصمت، نشقّ طريقنا في شوارع المدينة مثل شبحين. وصلنا إلى هناك بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وعندما بلغنا المدخلَ لم أستطع التفكير في شيء أفضل من رفع يدي والتلويح بالوداع.

"أعتقد أن هذه هي اللحظة التي نفترق فيها"، قلت له.

"أوه؟" قال المعلم. "لماذا؟".

"سوف تبحث عن صبي جديد الآن، ولا أريد البقاء وإفساد مشاريعك الجديدة".

"وما الذي يدفعني إلى البحث عن صبي جديد؟" بدا متفاجئاً من اقتراحي.

"لأنني لم أعد أنفع، لهذا السبب. لأن العروض انتهت، ولن أنفعك في شيء بعد الآن".

"هل تظن أنني سأرمي بك هكذا؟".

"لم لا؟ العدل هو العدل، فإن لم يعد بمقدوري أن أقدم شيئاً لك، من الطبيعي أن تبدأ في رسم خطط أخرى".

"لقد رسمتُ خططاً أخرى. رسمت المئات من الخطط، بل الآلاف من الخطط. لديّ خطط في أكمامي، وحتّى في جواربي. جسمي كلُّه مليء بالخطط، وقبل أن تنغلَ هذه الخطط في جسدي أريد أن أخرجها وأعرضها عليك".

"عليّ أنا؟".

"ومن غيرك، يا غبيّ؟ لكن لا يمكننا إجراء حديث جديّ عند المدخل، أليس كذلك؟ تعالَ نصعد إلى الغرفة. سوف نطلب بعض الطعام ثم نبحث في الموضوع".

"لا أفهم ما تعنيه".

"لا تفهم ماذا؟ ربما أصبحنا خارج موضوع الارتقاء، لكن هذا لا يعني أننا أغلقنا الدكان".

"تعني أننا لا زلنا شريكين؟".

"خمس سنوات فترة طويلة يا بنيّ. فبعد كل ما مررنا به معاً، يمكنك القول إنني تعلقت بك. فأنا لم أعد شاباً الآن. ومن غير المعقول أن أبحث عن شخص آخر. ليس الآن، ليس وأنا في هذه السنّ. أمضيت نصف حياتي لكي أجدك، ولن أتخلى عنك الآن لمجرد أننا واجهنا بعض المشاكل. وكما قلت لك، لدي بعض الخطط التي أحتاج لمناقشتها معك. فإن أعجبتك تلك الخطط، ستكون جزءاً منها. وإن لم تعجبك، نقسم المالَ الذي جنيناه ويذهب كلّ منا في طريقه".

"المال. يا إله العرش. لقد نسيت المال تماماً".

"كنتَ مشغولاً بأشياء أخرى".

"كنتُ محبطاً تماماً، ولم أكن أفكر في أي شيء. إذاً، كم لدينا من المال؟ ما المبلغ الإجمالي الذي جمعناه أيها المعلّم؟".

"سبعة وعشرون ألف دولار. وهي موجودة في خزنة الفندق، وكلّها لنا".

"كنت أفكر في أنّني مفلس تماماً. إنها تجعلنا ننظر إلى الوضع من زاوية مختلفة، أليس كذلك؟ أعني، سبعة وعشرون دولار مبلغٌ محترم".

"لا بأس به. كنا محظوظين".

"لم تغرق السفينة إذاً".

"لا، لم تغرق. فقد أبلينا بلاءً حسناً. وسوف نكون مرتاحين خلال الأيام الصعبة القادمة. سنكون آمنين في قاربنا هذا، وسوف نبحر في تلك الأزمات بسهولة أكبر من معظم الناس".

"أمرك، كابتن".

"هكذا يا صاحبي، على متن هذا القارب، وحالما تطلع الريح، سنرفع المرساة وننطلق!".

كنت مستعداً للسفر إلى آخر الأرض معه. في القارب، وعلى البسكليت، وزحفاً على البطن؛ غير مهتمّ بوسيلة النقل التي نستعملها. كنت أرغب في أن أكون حيث يكون وأذهب حيث يذهب. فقبل ذلك الحديث الذي جرى بيننا أمام الفندق، كنت أعتقد أنني خسرت كل شيء. ليس عملي فقط، وليس حياتي فقط، بل معلّمي أيضاً. ظننتُ أنه انتهى مني، وأنه سيتخلّى عني دون تردد، أمّا الآن فأدركت أنني كنت على خطأ. لم أكن مجرد دفتر شيكات بالنسبة إليه. لم أكن

مجرد آلة طائرة بمحرّكٍ صدئٍ وجناحين هزيلين. سوف نبقى معاً مهما كانت الظروف، وكان ذلك بالنسبة إليّ أهمَّ من جميع المسارح وملاعب الفوتبول معاً. لا أعني أن الأمور لم تكن قاتمة، لكنها لم تكن سوداوية تماماً. فالمعلّم ياهودي لا يزال معي، ولم يكن معي فقط بل كان يحمل كومة من أعواد الثقاب التي ستنير لنا الطريق.

صعدنا إلى الغرفة وتناولنا طعام الغداء. لا أعرف عن الآلاف المؤلفة من الخطط التي رسمها، ولكن كانت لديه ثلاث أو أربع خطط رسم كلاً منها بعناية فائقة. فذلك الرجل لن يستسلم بسهولة. تبخرت خمس سنين من العمل الشاق، وتلاشت عقودٌ من التخطيط والتحضير بين عشية وضحاها، وها هو ذا يفور بأفكار جديدة ويخطط لمشروعنا التالي وكأن الفرصة لا تزال متاحة أمامنا. لم يعد هناك رجال من هذا النوع. كان المعلّم ياهودي آخر تلك السلالة، ولم أقابل في حياتي اللاحقة شخصاً مثله؛ رجلاً يشعر بألفة تامة في وسط الغابة. ربما لم يكن الملك، لكنه كان يعرف قوانينها أكثر من أي شخص آخر. اضربه في معدته، ابصق في وجهه، حطم قلبه، وسوف يستعيد توازنه وشكيمته ويواجه أياً كان. "لا تستسلمْ أبداً". لم يهتدِ بذلك الشعار فحسب، بل هو من اخترعه.

كانت الخطة الأولى بسيطة. ننتقل إلى نيويورك ونعيش حياتنا كأناس عاديين. أذهب إلى المدرسة وأتلقّى تعليماً جيداً، أما هو فيؤسس عملاً ما يجني منه المال، ثم نعيش في تبات ونبات. لم أتفوه بكلمة عندما انتهى من الكلام، فانتقل إلى الخطة الثانية. نقوم بجولة، قال لي، ونلقي محاضرات في الجامعات والكنائس والأندية

النسائية حول فن الارتقاء. سوف نجد الكثير من المهتمين، على الأقل خلال الأشهر الستة القادمة، فلمَ لا نستمر في جني المال من "الصبي المعجزة وولت" إلى آخر قطرة من الشهرة التي أتمتع بها؟ لم تعجبني تلك الخطة أيضاً، فهز كتفيه وانتقل إلى الخطة التالية. نحزم أغراضنا كلها، قال لي، ونصعد إلى السيارة، ونمضي إلى هوليوود. أبدأ عملي ممثّلاً سينمائيّاً ويكون هو وكيلي ومدير أعمالي. فقد حظيت العروض التي سبق أن قدمتها بشهرة كبيرة، ولن يكون من الصعب الحصول على عمل مبدئي في هذا المجال. كنت مشهوراً سلفاً، ومع ولعي بالعروض الترفيهية يمكنني أن أقف على قدميّ بسرعة كبيرة.

"آه"، قلت له. "هذا يبدو جيداً".

"كنت أعرف أن هذه الخطة ستعجبك"، قال المعلم وهو يستند إلى الخلف في كرسيه ويشعل سيجاراً كوبيّاً غليظاً. "ولهذا السبب تركتها إلى الآخر".

بهذه البساطة انطلقنا إلى العمل مرّة ثانية.

غادرنا الفندق في الصباح التالي، ومع حلول الساعة الثامنة كنا في طريقنا غرباً إلى حياة جديدة في تلال هوليود المشمسة. كانت رحلة طويلة وشاقة في تلك الأيام. لم تكن هناك أوتوسترادات ولا فنادق "هاورد جونسون"، ولا طرق عريضة سريعة تمتد بين الشواطئ، وكان عليك أن تدخل في كل بلدة وقرية وتحاول إيجاد طريق مناسب للخروج منها. وإن كان حظك سيئاً، يمكن أن تعلق خلف مزارعٍ يقوم بتحميل كومة من التبن في جرّار عريض. وإن كانوا يحفرون الطريق في نقطة ما، فسوف تضطر للعودة والبحث عن طريق آخر وإضاعة ساعاتٍ لبلوغ الطريق الرئيسي مرة ثانية. هكذا كانت الأمور حينها، لكن ذلك لم يزعجني كثيراً. فقد كنت مجرد راكب، وكان بمقدوري أن أنام لبعض الوقت في المقعد الخلفي متى شئت. أحياناً كان المعلّم يسلّمني عجلة القيادة عندما نصل إلى منطقة مفتوحة ومعزولة، لكن المعلّم تولّى قيادة السيارة معظم الوقت. كانت تجربة تأملية بالنسبة إليه، وبعد خمسة أو ستة أيام دخل في حالة ذهنية من الكآبة والتفكير العميق ونحن نشق طريقنا في وسط البلاد. عدنا إلى أرض السماوات الضخمة والسهوب المقفرة، وبدا أن الهواء المحيط بنا من كل مكان قد بخّر بعضاً من حماسته. ربما كان يفكر في السيدة ويذرسبون، أو ربما عاده شخصٌ ما من ماضيه، ولكن من المرجح أنه كان يتفكر في مسائل تتعلق بالحياة والموت؛ بتلك الأسئلة المخيفة

التي تتسلل إلى ذهنك في غياب أي شيء من شأنه أن يشتت انتباهك. ما سر وجودي هنا؟ وإلى أين أمضي؟ وما الذي سيحدث لي بعد أن أموت؟ أعرف أن هذه مواضيع ثقيلة ومعقدة، ولكن بعد التفكير في سلوك المعلّم أثناء تلك الرحلة لأكثر من نصف قرن، أعتقد أنني أعرف عمَّ أتكلم. أتذكر حديثاً دار بيننا، وإن لم أكن مخطئاً في تأويلي لما قاله، فإنه يكشف عن طبيعة الأشياء التي بدأت تنهش روحَه. كنا في مكان ما من تكساس، بعد فورث وورث بمسافة قصيرة، على ما أظن، وكنت أثرثر بطريقتي المتبجحة المعهودة لمجرد الثرثرة فقط.

"كاليفورنيا"، قلت له. "لا تثلج هناك أبداً، ويمكنك أن تسبح في المحيط على مدار السنة. وتبعاً لما يقوله الناس، إنها ثاني أفضل مكان بعد الجنة. إنها تجعل فلوريدا تبدو مستنقعاً آسناً مقارنة بها".

"ليس هناك مكان مثالي يا بنيّ"، قال المعلم. "لا تنسَ الزلازل والانجرافات الطينية وفترات الجفاف. ربما ينحبس المطر لسنوات هناك، وعندما يحدث ذلك تتحول الولاية كلها إلى فرن مشتعل. ويمكن لمنزلك أن يحترق بلمح البصر".

"لا تشغل بالك بهذه الأشياء. فبعد ستة أشهر من الآن سوف نعيش في قلعة حجرية. وهذه الأماكن لا تحترق؛ ولكن من باب الحيطة والحذر، سيكون لدينا قسم إطفاء خاص بنا. صدقني يا معلّم، أنا والأفلام خلقنا لبعضنا. سوف أجمع ثروة مهولة تضطرنا إلى فتح مصرف خاص بنا. 'مصرف رولي للتوفير والقروض'، وسوف يكون مقرّه الرئيسي في سانسيت بوليفارد. انتظر وسترى. فخلال وقت قصير جداً، سأصبح نجماً".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"إن سارت الأمور جيّداً، سوف تتمكن من تأمين لقمة عيشك. هذا هو المهم في الأمر. لن أبقى بجانبك إلى الأبد، وأريد أن أتأكد من أنك قادر على إعالة نفسك. لا يهمني كيف تفعل ذلك. ممثل، أو مصوّر، أو ساعي بريد؛ كلها وظائف جيدة. أريد أن أتأكد أن هناك مستقبلاً آمناً ينتظرك بعد رحيلي".

"هذا كلام عجائز أيها المعلّم. فأنت لم تبلغ الخمسين بعد".

"بل ستّة وأربعين. في بلدي الأصلي، تُعدّ هذه سنّاً متقدمة".

"دعك من هذا الآن. سوف تتكفل شمس كاليفورنيا بإضافة عشر سنوات على حياتك في اليوم الأول فقط".

"ربما. ولكن حتى لو كان هذا صحيحاً، لا تزال ورائي سنواتٌ أكثر من تلك التي تنتظرني. إنها مسألة حساب بسيطة يا وولت، ولا ضير في الاستعداد لما هو آتٍ".

انتقلنا إلى موضوع آخر بعد ذلك، أو ربما توقفنا عن الحديث تماماً، لكن تعليقاته القاتمة تلك بدأت تلقي بوطأتها عليّ يوماً بعد يوم. فبالنسبة إلى رجلٍ عمل جاهداً على إخفاء مشاعره، كانت كلمات المعلّم أقرب إلى الاعتراف. لم أسمعه يتكلم بتلك الصراحة من قبل، ومع أنه غلّف معانيه بلغة الاحتمالات والتوقعات لم أكن غبياً إلى درجة تجاهل المعاني الدفينة التي انطوَت عليها كلماته تلك. عدتُ في ذاكرتي إلى مشهد إمساكه بمعدته في الفندق الذي كنا ننزل فيه في نيو هيڤن. ولو أنني لم أعانِ من مشاكلي الخاصة منذ ذلك الوقت، لكنت أكثر يقظة وتنبهاً. والآن، وبما أن الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو التحديق عبر نافذة السيارة وعدّ اليام التي تفصلنا عن

كاليفورنيا، قرّرت أن أراقب حركاته من كثب. لن أتصرّف بجبنٍ هذه المرة. فإن أمسكت به وهو يتألم أو يمسك بمعدته مرة ثانية، سوف أفاتحه بالموضوع وأحمله إلى أقرب طبيب يمكنني العثور عليه.

لا بدّ أنه لاحظ قلقي، فبعد ذلك الحديث بوقت قصير أقفل على تلك المواضيع الكئيبة وبدأ العزف على لحنٍ آخر. وبعد أن غادرنا تكساس ودخلنا في نيو مكسيكو بدا في مزاج عالٍ، ومع أنني كنت متيقظاً لأي علامة تَشي بالضيق أو الألم، فإنني لم ألحظ شيئاً واحداً يدل على ذلك. لقد تمكّن، شيئاً فشيئاً، من حجب عينيّ ثانية، ولولا ما حدث بعد أن قطعنا نحو سبعمئة أو ثمانيمئة ميل من رحلتنا، لربما مرت أشهرٌ - أو سنوات - قبل أن أعرف الحقيقة. كانت شكيمة المعلم قوية إلى هذه الدرجة. لم يكن بمقدور أحد مجاراته في الدهاء والحيلة، وكلما حاولت ذلك كنت أنتهي إلى الإحساس بأنني في غاية الغباء. كان أسرع مني بكثير وأكثر براعةً وخبرة؛ إذ كان بمقدوره أن يأخذني إلى البحر ويردّني عطشانَ. لم يكن هناك أي نوع من المنافسة. كان المعلّم ياهودي يفوز دائماً، وبقي الأمر على هذه الشاكلة حتى النهاية المريرة.

بدأ الجزء الأسوأ من الرحلة. قضينا أياماً في عبور نيو مكسيكو وأريزونا، وبعد فترة شعرنا أننا الوحيدين المتبقين في هذا العالم. لكن المعلم كان مولعاً بالصحراء، وحالما دخلنا في تلك الأرض المقفرة المليئة بالصخور والصبّار كان يشير باستمرار إلى تشكيلات جيولوجية غريبة ويقدم محاضرات قصيرة حول عمر الأرض الموغل في القدم. ولكي أكون صريحاً، أشعرني ذلك بشيء من البرود. لم

أشأ أن أفسد متعة المعلّم، فالتزمت الصمت وتظاهرت بالاستماع لما يقوله، ولكن بعد أربع آلاف هضبة وستمئة وادٍ كنت قد تلقيت معلومات سياحية تكفيني مدى الحياة.

"إن كانت هذه بلاد الله"، قلت له أخيراً، "فليأخذها الله إذاً".

"لا تدعها تصيبك باليأس"، قال المعلّم. "فهي تمتد إلى ما لا نهاية هنا، وعدّ الأميال لن يقصّر من الرحلة. إذا أردت الوصول إلى كاليفورنيا، فهذه هي الطريق التي تأخذك إلى هناك".

"أعرف ذلك. لكن تحمّلي لها لا يعني أن عليّ أن أحبّها".

"يمكنك أن تحاول. فالوقت يمضي أسرع بتلك الطريقة".

"لا أحب أن أفسد عليك متعتك يا سيدي، لكن مسألة الجمال هذه مجرد كلام فارغ. أعني، من يهتم إن كان المكان يبدو قذراً أم لا؟ فما دام هناك أناس فيه لا بد أن يكون مسلياً. أَخرِج الناس من المعادلة، فما الذي يتبقى؟ الخواء، هذا ما يتبقى. والخواء لا يفيدني في شيء سوى أنه يرفع ضغطي ويُشعرني بالنعاس".

"أغلق عينيك إذاً ونم قليلاً، وسوف أتواصل مع الطبيعة لوحدي. لا تتذمر أيها الرجل الصغير. لن يطول الأمر كثيراً. فقبل أن تدرك ذلك، ستكون محاطاً بالناس الذين تبحث عنهم".

حلّ أسوأ يوم في حياتي في غرب أريزونا في السادس عشر من شهر نوفمبر. كان صباحاً جافاً كجميع الصباحات الأخرى، وفي الساعة العاشرة كنا نعبر حدود كاليفورنيا ونقطه موهاڤي متوجّهَين نحو الساحل. عبّرتُ عن ابتهاجي عندما قطعنا ذلك المَعلَم ثم بقيت هادئاً ونحن على وشك الانتهاء من تلك الرحلة الطويلة. كان المعلّم

يقود بسرعة، وتوقعنا أن نصل إلى لوس أنجلس على وقت العشاء. أذكر أنني اقترحت أن نتناول العشاء في مطعم راقٍ في ليلتنا الأولى في المدينة. ربما نلتقي بَصتر كيتن أو هارولد لويد، قلت للمعلّم؛ ألن يكون ذلك شيئاً مثيراً، ها؟ تخيل أننا نصافح هذين الرجلين ونحن نتناول كعكة ألاسكا في أحد الأندية الراقية. وإن كانا في مزاج جيد، ربما نتعارك على الكعكة ونمزّقها إرباً إرباً. كان المعلم قد بدأ يضحك على توصيفي لهذا المشهد السخيف عندما لمحتُ شيئاً في الطريق الممتد أمامنا. "ما هذا؟" قلت له. "ما هو هذا؟" قال المعلّم. وبعد بضع دقائق كنا نحاول النجاة بحياتنا.

كان "هذا" عصابة من أربعة رجال منتشرين في المنعطف الضيق. كانوا يقفون في صف – على بُعد مئتي أو ثلاثمئة ياردة أمامنا – وفي البداية كان من الصعب تمييزهم. فمع وهج الشمس والحرارة الطالعة من الأرض، بدوا كأنهم أشباح من كوكب آخر مصنوعة من الضوء والأثير. وبعد خمسين ياردة رأيت أيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم، وكأنهم يطلبون منا التوقف. في البدء اعتقدتُ أنهم مجموعة من عمال الطرق، وحتى عندما اقتربنا أكثر ورأيتهم يغطون وجوههم بالمناديل لم أشكّ في الأمر لحظة واحدة. إنه مكان مليء بالغبار، قلت لنفسي، وعندما تهب الريح فإن المرء يحتاج إلى نوع من الحماية. ثم أصبحنا على بُعد ستين أو سبعين ياردة منهم، وفجأة رأيت الأربعة يحملون أشياء معدنية لماعة في أيديهم المرفوعة. وحالما أدركت أنها أسلحة، ضغط المعلم بقوة على المكابح إلى أن توقفت السيارة ثم عاد بها إلى الخلف. لم يقل أيٌّ منا كلمة واحدة. انطلق المعلم بأقصى

سرعة إلى الوراء. ثم انطلق الرجال الأربعة نحونا وفوهات بنادقهم تلمع تحت الشمس. كان المعلّم ياهودي قد أدار وجهه إلى الخلف ليتمكن من رؤية الطريق عبر النافذة الخلفية، ولم يرَ ما رأيتُه، ولكن عندما رأيت الرجالَ يقتربون منا أكثر لاحظت أن أحدهم يعرج. كان كتلة من العظام، وعلى الرغم من إعاقته كان يجري بسرعة أكبر من البقية. وسرعان ما تقدّمَ البقية وانزلق المنديل عن وجهه وتمكنت من رؤيته بوضوح للمرة الأولى. كان الغبار يتطاير في جميع الاتجاهات، لكنني كنت سأميز ذلك الغبي في أي مكان. إدوارد ج. سباركس يعود مرة أخرى، وفي اللحظة التي وقعت عيني فيها على خالي سليم عرفت مصيري المحتوم.

كانت المهمة صعبة للغاية. لم نتمكن من الرجوع بسرعة كافية للهرب، كما أن الالتفاف بالسيارة سيأخذ منا وقتاً أطول. ولكن كان علينا أن نجازف؛ فإن لم نزد من سرعتنا خلال أربع ثوان، فلن نتمكن من الفرار.

التف المعلّم ياهودي بسرعة جنونية إلى اليمين ثم حول ناقل الحركة إلى السرعة الأولى. أصدر الناقلُ صوتاً طاحناً وارتفعت العجلتان الخلفيتان عن جانب الطريق ثم اصطدمتا ببعض الصخور المتناثرة وأخذت تدور في مكانها. بعد ثانية أو اثنتين توازنت العجلات على الأرض، وعندما انطلقنا وقد صارت مقدمة السيارة في الاتجاه الصحيح بدأ الرصاص يلعلع خلفنا. أصابت طلقة الإطارَ الخلفي، وحالما تطاير المطاط انحرفت السيارة بعنف إلى اليسار. استمر المعلم في الضغط على دواسة البنزين. كان يحاول جاهداً

المحافظة على مسار السيارة، ومع انتقاله إلى السرعة التالية اخترقت رصاصة أخرى الزجاج الخلفي. أطلق صرخة ثم أفلت يديه عن مقود السيارة. انحرفت السيارة عن الطريق ثم أخذت تضرب بقوة على الطريق الصحراوي الصخري، وبعد لحظة بدأ الدم يتدفق من كتفه اليمنى. لا أعرف كيف استجمع قواه وأمسك بالمقود ثانية محاولاً التقدم بالسيارة. لكن المحاولة لم تنجح لأن السيارة كانت قد خرجت عن السيطرة، وقبل أن يتمكن من إعادتها إلى الطريق اصطدم الإطار الأمامي بصخرة بارزة ضخمة وانقلبت السيارة.

لا أعرف شيئاً مما حدث في الساعة التالية. فقد قذفتني الصدمة من مقعدي وكان آخر شيء أتذكره أنني كنت أطير في الهواء باتجاه المعلّم. وبين الإقلاع والهبوط، يبدو أن رأسي اصطدم بلوحة السيارة الأمامية أو بالمقود، فعندما توقفت السيارة كنت قد غبت عن الوعي. عشرات الأشياء حصلت بعد ذلك، لكنني لم أشهد أياً منها. لم أرَ سليم ورجاله وهم ينقضون على السيارة ويسرقون الخزنة من صندوق السيارة. ولم أرهم وهم يثقبون الإطارات الثلاثة الأخرى. ولم أرهم وهم يفتحون حقائبنا ويبعثرون ثيابنا على الأرض. وقد بقيت حقيقة أنهم لم يطلقوا النار علينا بعد ذلك سراً غامضاً بالنسبة إلي. لا بد أنهم تباحثوا فكرة قتلنا أو تركنا أحياءً، لكنني لم أسمع شيئاً مما قالوه ولا يمكنني التفكير في السبب الذي دفعهم إلى الإحجام عن قتلنا. ربما بدونا ميتين لهم، أو ربما لم يكن ذلك يعنيهم بشيء. أخذوا الخزنة بما فيها من المال، وحتى لو كنا لا زلنا نتنفس عند مغادرتهم ربما اعتقدوا أننا سنموت من الإصابات التي لحقت بنا في

جميع الأحوال. إن كان هناك أي عزاءٍ لتعرّض كلّ ما نملكه للسرقة فمردّه إلى ضآلة المبلغ الذي سرقوه. لا بد أن سليم اعتقد أننا نملك الملايين وكان يراهن على صيد ثمين، لكن كلّ ما حصل عليه هو سبعة وعشرون ألف دولار فقط. قسّم ذلك على أربعة، فتكون حصة كل منهم زهيدة في واقع الأمر؛ وقد سرّني التفكير في خيبته الكبيرة تلك. فعلى مدى سنوات طوال، كنت أستمد سعادة هائلة من التفكير في تلك الصفعة التي تلقّاها.

أعتقد أنني غبت عن الوعي لساعة كاملة؛ أو ربما أكثر أو أقل. ولكن عندما أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي مستلقياً فوق المعلم. كان لا يزال غائباً عن الوعي، وكنا نحن الاثنان مكوّمين على باب السيارة من جهة السائق وأطرافنا متشابكة وثيابنا مبللة بالدماء. كان أول ما رأيته عندما فتحت عينيّ نملة تتقدم على حجرة صغيرة. كان فمي ممتلئاً بالتراب ووجهي ملتصقاً بالأرض، وذلك لأن النافذة كانت مفتوحة لحظة الاصطدام، وأعتقد أن ذلك كان ضرباً من الحظ، إن كان من الممكن استخدام هذه الكلمة في توصيف مثل هذه المصادفات. على الأقل لم يصطدم رأسي بالزجاج، ويجب أن أكون ممتناً لذلك، على ما أعتقد. وعلى الأقل، أيضاً، لم يتعرض وجهي لأية جروح خطِرة.

كانت جبهتي تؤلمني كثيراً، والرضوض تملأ جسدي كله، لكن عظامي كانت سليمة كلها. اكتشفت ذلك عندما نهضت وحاولت فتح الباب فوقي. فلو أن أذىً حقيقياً قد لحق بي لما تمكنت من الحركة. ومع ذلك لم يكن من السهل فتح ذلك الباب العالق.

كان يزن نصف طن، وبسبب انقلاب السيارة والتحكم في حركتي وجدت صعوبة كبيرة في فتح الباب والخروج. لفح الهواء الساخن وجهي، لكنه بدا بارداً بعد خروجي من جحيم تلك السيارة. جلست على السيارة لمدة ثانيتين وأنا أبصق التراب وأتنشق النسيم الفاتر، ثم انزلقت يداي، وفي اللحظة التي لامستُ سطح السيارة الساخن كان عليّ أن أقفز عنها. سقطت على الأرض، ثم نهضتُ وأخذتُ أترنح حول السيارة متوجهاً نحو الجانب الآخر. رأيت الصندوق مفتوحاً ولاحظت أن خزنة المال مفقودة، ولكن بما أنني كنت أتوقع ذلك سلفاً لم أعر الأمر أي اهتمام. كان جانب السيارة الأيسر قد استقر على نتوء صخري، وكان هناك فراغ صغير بين الأرض والباب؛ نحو ستة أو ثمانية إنشات. لم يكن واسعاً بما يكفي لأدخل رأسي فيه، ولكن عندما استلقيت على الأرض تمكنت من رؤية رأس المعلم المتدلي من النافذة. لا يمكنني تفسير الطريقة التي حصل بها ذلك، ولكن في اللحظة التي رأيته فيها عبر ذلك الشق الضيق، فتح عينيه. رآني أنظر إليه، وبعد لحظة التوى وجهه بشيء أقرب إلى الابتسامة. "أخرِجني من هنا يا وولت"، قال لي. "ذراعي تؤلمني جداً وليس بوسعي أن أتحرك من تلقاء نفسي".

هرعت إلى الجانب الآخر من السيارة ثانية، ثم خلعت قميصي ولففته على يديّ لحمايتهما من الحديد الملتهب. ثم تسلقت إلى الأعلى وتشبثت بحافة الباب المفتوح وحاولت إخراج المعلّم من السيارة. ولسوء الحظ كانت كتفه اليمنى هي المصابة ولم يكن بمقدوره أن يمد ذراعه تلك. حاول الاستدارة بجسمه كله

لإعطائي ذراعه الأخرى، لكن ذلك كان يتطلب جهداً كبيراً، وكان بمقدوري أن أرى مقدار الألم الناجم عن تلك المحاولة. طلبت منه أن يبقى هادئاً، وسحبتُ الحزام من سروالي، ثم حاولت ثانية بتدلية الحزام إلى داخل السيارة. بدت خطة ناجحة. أمسك به المعلّم ياهودي بيده اليسرى، ثم بدأت أسحبه إلى الأعلى. لا أريد أن أتذكر عدد المرات التي ارتطم فيها بالسيارة، أو عدد المرات التي انزلق فيها، لكننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد، وبعد عشرين أو ثلاثين ثانيةً تمكنّا من إخراجه من السيارة.

وجدنا نفسَنا هناك، عالقَين في صحراء موهاڤي. كانت السيارة محطمة، ولم يكن لدينا ماء، وكانت أقرب مدينة تبعد عنا نحو أربعين ميلاً. كان ذلك سيئاً بما فيه الكفاية، لكن الجزء الأسوأ من محنتنا تلك كان جرح المعلّم. لقد فقد كمية كبيرة من الدم خلال الساعتين الماضيتين. كانت عظامه مكسرة، وعضلاته ممزقة، كما أنه استنفذ آخر قواه في عملية الخروج من السيارة. أجلستُه في ظل السيارة ثم بدأت أجمع بعض الثياب المبعثرة على الأرض. جمعتُ قمصانه البيضاء الأنيقة وربطات العنق الحريرية المصنّعة خصوصاً له، وعندما لم أعد أستطع حمل المزيد منها عدت إليه لأضمّد جرحه بها. كانت أفضل فكرة خطرت لي، لكنها لم تكن ذا فائدة كبيرة. وصلتُ ربطات العنق معاً ومزقت القمصان إلى قطع طويلة وأحكمت بها رباط جرحه، لكن الدم استمر في التدفق حتى قبل أن أنتهي من تضميده.

"سوف نرتاح هنا قليلاً"، قلت له. "وحالما تبدأ الشمس

بالغروب، سنرى إن كان بمقدورنا إيقافك على قدميك ومغادرة هذا المكان".

"لن يكون ذلك مفيداً يا وولت"، قال لي. "لن أتمكن من النجاة أبداً".

"بل ستنجو بالتأكيد. سنبدأ السير في الطريق، ولن يمر وقت طويل قبل أن تمر سيارة وتقلّنا".

"لم تمر سيارة على هذا الطريق طوال اليوم".

"لا يهمّ. لا بد أن يمر أحدٌ ما. إنه قانون المعدلات الوسطية".

"وإن لم يمرّ أحد؟".

"عندها سأحملك على ظهري. وبطريقة أو بأخرى، سنوصلك إلى طبيب يخيط جرحك".

أغلق المعلّم ياهودي عينيه وهمس متألماً. "أخذوا المال، أليس كذلك؟".

"نعم، أخذوه. ذهب كله، حتى آخر قرش".

"لا بأس"، قال وهو يحاول الابتسام. "ما جاء بغير عناء ضاع هباءً، أليس كذلك يا وولت؟".

"كذلك تماماً".

أخذ المعلّم ياهودي يضحك، لكن الألم أوقفه عن الضحك. توقف لكي يتمالك نفسه ثم، ومن دون سابق إنذار، نظر في عينيّ وقال: "كان من المفروض أن نصل إلى نيويورك بعد ثلاثة أيام من الآن".

"صار هذا من الماضي أيها المعلم. بعد يوم من الآن سنكون في هوليود".

نظر المعلم إليّ لوقت طويل دون أن يقول شيئاً. ثم، وبشكل غير متوقع، مدّ يده اليسرى وأمسكني من ذراعي. "بغض النظر عما صرت إليه"، قال لي أخيراً، "فالفضل في ذلك يعود لي. أليس كذلك يا وولت؟".

"بالطبع. فقد كنت مشرداً بائساً قبل أن تعثر عليّ".

"أريدك أن تعرف أن العكس صحيح أيضاً. فبغض النظر عما صرت أنا عليه، فالفضل في ذلك يعود لك أنت".

لم أعرف كيف أرد على ذلك التصريح، ولذلك لم أحاول. كان هناك شيء غريب في الجو، وفجأة لم أعد أميز الطريق. لا أعتقد أنني كنت خائفاً – ليس بعد، على الأقل – لكن معدتي بدأت تتقلص وتهتاج، وكان ذلك دوماً مؤشراً على التقلب المناخي. فكلما حدثت تلك الأشياء في داخلي، كنت أعرف أن المناخ على وشك أن يتغير.

"لا تقلق يا وولت"، تابع المعلم قائلاً. "سوف يكون كل شيء على ما يرام".

"آملُ ذلك. لكن الطريقة التي تنظر بها إليّ الآن كفيلة بجعل أوصالي ترتعد".

"أنا أفكر؛ هذا كل ما في الأمر. أفكر في الأشياء بعناية فائقة. يجب ألا تدع ذلك يزعجك".

"لست مزعوجاً. ما دمتَ لا تأتي بواحدة من أفكارك الجهنمية تلك، فلن أنزعج على الإطلاق".

"أنت تثق بي، أليس كذلك يا وولت؟".

"أكيد أثق بك".

"وسوف تفعل أي شيء من أجلي، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد، وأنت تعرف ذلك".

"إذاً، ما أريد منك أن تفعله لي الآن هو أن تصعد إلى السيارة وتأتيني بالمسدس من التابلو".

"المسدس؟ ولماذا تريده الآن؟ ليس هناك أي لصوص تطلق عليهم النار الآن. لا أحد هنا غيرنا، نحن والريح؛ وهي ليست ريحاً قوية على كل حال".

"بلا أية أسئلة. افعل ما أقوله لك واجلب لي المسدس".

هل كان لديّ أي خيار؟ نعم، ربما. كان بمقدوري أن أرفض، وكان من شأن ذلك أن يُنهي المسألة على الفور. لكن المعلّم أعطاني أمراً، ولم أكن لأجادله في ذلك؛ ليس حينها، ليس في مثل ذلك الوقت. كان يريد المسدس، ومن وجهتي نظري كان من واجبي أن أحضره له. ولذلك، ومن دون أية كلمة، صعدت إلى السيارة وأحضرت المسدس.

"شكراً يا وولت"، قال لي عندما ناولته إياه بعد دقيقة. "أنت صبي عزيز على قلبي".

"كن حذراً"، قلت له. "السلاح محشو، ولا ينقصنا حادث آخر".

"اقترب يا بنيّ"، قال لي وهو يربت على الأرض بجانبه. "اجلس بجانبي واستمع إلى ما سأقوله".

كان الندم قد بدأ يأكلني. خانته النبرة اللطيفة في صوته، وعندما

جلست كانت معدتي تقلب وتقفز إلى المريء. كانت سحنة المعلم بيضاء. علقت قطرات صغيرة من العرق في شاربه، وكانت أطرافه ترتعد من الحمّى. لكن نظرته بقيت ثابتة. كان كل ما تبقى من قوته مركزاً داخل عينيه، وكانت عيناه مثبّتتين عليّ طوال الوقت الذي كان يتكلم فيه.

"إليك الوضع الذي نحن فيه الآن يا وولت. نحن في بقعة خطرة، وعلينا أن نخرج منها. وإن لم نفعل ذلك في الحال، فسوف نهلك معاً".

"ربما. ولكن من الأفضل ألا نتحرك قبل أن يبرد الجو قليلاً".

"لا تقاطعني. اسمعني أولاً، ثم قل ما عندك". توقف لحظة ليرطّب شفتيه بلسانه، لكن فمه كان جافاً. "علينا أن نقف ونغادر هذا المكان. هذا مؤكد، وكلما طال انتظارنا ساء الوضع أكثر. المشكلة أنني عاجز عن الوقوف وعاجز عن المشي أيضاً. ولا شيء سيغير ذلك. ومع غروب الشمس، سأكون أضعف مما أنا عليه الآن".

"ربما، وربما لا".

"الأمر لا يحتمل ربما، يا صاحبي. فعوضاً عن الجلوس هنا وإضاعة الوقت، سأعرض عليك اقتراحاً".

"حقاً، وما هو هذا الاقتراح؟".

"أبقى أنا هنا، وتمضي أنت لوحدك".

"مستحيل. لن أتزحزح من جنبك يا معلّم. لقد قطعت ذلك الوعد على نفسي منذ زمن بعيد، وأنا عازمٌ على التمسك به".

"هذه مشاعر نبيلة يا بني، لكنها ستسبب لك المشاكل. عليك أن تخرج من هنا، ولا يمكنك أن تفعل ذلك وأنت تجرّني معك. واجه الحقائق. هذا هو يومنا الأخير معاً. أنت تعرف ذلك، وأنا أعرفه أيضاً، وكلما أسرعنا في الاعتراف بهذه الحقيقة كان ذلك أفضل".

"مستحيل. ولن تتمكن من إقناعي بما تقوله".

"أنت لا تريد أن تتركني. لست مقتنعاً ببقائك هنا، ولكن يؤلمك أن تتركني مستلقياً هنا في هذه الحالة. أنت لا تريدني أن أتألم، وأنا ممتنٌّ لك على ذلك. هذا يدل على أنك تعلمت دروسك جيداً. لكنني أعرض عليك منفذاً للنجاة، وحالما تفكر فيه قليلاً سوف تدرك أنه الحل الأفضل لكلينا".

"وما منفذ النجاة؟".

"إنه بسيط للغاية. تمسك بهذا المسدس وتطلق النار على رأسي".

"بالله عليك يا معلّم. هذا ليس وقت المزاح".

"هذه ليست مزحة يا وولت. أولاً تقتلني، ثم تقضي في طريقك".

"لقد نالت الشمسُ منك وجعلتك تهذي. أصبتَ برصاصة في كتفك، وهذا كل ما في الأمر. هناك ألمٌ بالتأكيد، لكنه لن يقتلك. سوف يعالجك الأطباء ويخيطون الجرح".

"أنا لا أتكلم عن الرصاصة. أنا أتكلم عن السرطان الذي يأكل أحشائي. ليس علينا أن نستمر في مخادعة بعضنا. أحشائي تالفة

تماماً، ولم يتبقَّ لي من الحياة أكثر من ستة أشهر. فحتى لو تمكنتُ من الخروج من هنا، سوف أموت في جميع الأحوال. فلم لا تأخذ الأمور في يدك؟ ستة أشهر من الألم والمعاناة؛ هذا ما سيكون بانتظاري. كنت آملُ أن أؤسس لك شيئاً جديداً قبل أن أرحل، لكن قدّر الله وما شاء فعل. للأسف. إني آسف على أشياء كثيرة، لكنك ستقدم لي معروفاً كبيراً إن ضغطتَ على الزناد الآن يا وولت. أنا أتكل عليك، وأعرف أنك لن تخذلني".

"توقف. توقف عن هذا الكلام يا معلّم. فأنت لا تدرك ما تقوله".

"الموت ليس بهذه الفظاعة يا وولت. فعندما يصل الرجل إلى نهاية الرحلة، فهو الشيء الوحيد الذي يرغب فيه".

"لن أفعل ذلك. ولا في ألف سنة. يمكنك أن تطلب مني ذلك حتى يوم القيامة، لكنني لن أرفع يدي في وجهك".

"إن لم تفعل ذلك، سيكون عليّ أن أفعله بنفسي. وهذا أصعب، وكنت آمل أن توفر عليّ هذه المشقة".

"يا إله العرش. اترك المسدس يا معلّم".

"آسف يا وولت. فإن لم ترغب في رؤية ذلك، ودّعني واذهبِ الآن".

"لن أودّعك. لن تسمع كلمة واحدة مني حتى تترك هذا المسدس".

لكنه لم يعد يستمع. رفع المسدس إلى رأسه، وهو لا يزال ينظر في عينيّ، ثم صَلى الزّناد. بدا كأنه يتحداني أن أوقفه، يتحداني

أن أمسك بالمسدس، لكنني كنت عاجزاً عن الحركة. اكتفيت بالجلوس هناك ومراقبته دون أن آتي بأية حركة.

كانت يده ترتعش والعرق يتصبب من جبينه، لكنّ عينيه بقيتا ثابتتين وصافيتين. "تذكر الأوقات الجميلة"، قال لي. "تذكر الأشياء التي علّمتك إياها". بلع ريقه مرة، ثم أغلقَ عينيه وضغط على الزناد.

الجزء الثالث

قضيت ثلاث سنوات في البحث عن خالي سليم. لأكثر من ألف يوم، جلتُ البلاد بحثاً عن ذلك الوغد في كل مدينة من سان فرنسيسكو إلى نيويورك. عشتُ على ما كنت أحصل عليه من يوم لآخر عن طريق الاستجداء أو الحيلة حتى تحوّلت، شيئاً فشيئاً، إلى ذلك المتسول الذي كنتُه في ما مضى. تنقلت بواسطة السيارات العابرة، وعلى الأقدام، وفي القطارات. نمتُ في مداخل الأبنية، وفي مآوي المتسكعين والمتشردين، وفي الفنادق الرخيصة، وفي المراعي المفتوحة. في بعض المدن، وضعت قبعتي على الرصيف أدّيت الألعاب البهلوانية للمارين. وفي مدن أخرى، عملت في التنظيف وإفراغ علب القمامة. وفي مدن أخرى أيضاً، سرقت. سرقت الطعام من مطابخ المطاعم، والمالَ من صناديق المحاسبة، والجواربَ والألبسة الداخلية من متاجر "وولوورثس"؛ أي شيء يقع تحت يدي. وقفتُ في صفوف الخبز وشخرتُ أثناء المواعظ في مقرات "جيش الإنقاذ". رقصت على زوايا الشوارع. غنّيتُ لأحصل على طعام العشاء. ومرة، في إحدى دور السينما في سياتل، جنيتُ عشرة دولارات من رجل أراد أن يمصّ قضيبي. وفي مرة أخرى، في شارع هينيبين في مينابولس، وجدت مئة دولار مرمية في أحد المجاري. خلال تلك السنوات الثلاث، سألني العشرات من الأشخاص في أماكن مختلفة إن كنتُ "الصبي المعجزة وولت". فاجأني أول شخص سألني هذا السؤال،

ولكن بعد ذلك كان جوابي حاضراً. "آسف يا صديقي"، كنت أقول. "لم أسمع به قطّ. لا بد أنك تُشبّهني بشخص آخر". وقبل أن يتمكنوا من الإلحاح في السؤال، كنت أحييهم وأختفي بين الحشود.

كنت أقارب الثامنة عشرة من العمر عندما عثرت عليه. كان طولي نحو خمسة أقدام وخمسة إنشات ونصف، وكان حفلُ تنصيب روزفلت على بُعد شهرين. كان بائعو المشروبات الكحولية غير الشرعيين لا يزالون يمارسون أعمالهم، ولكن مع صدور قانون "الحظر" كانوا يبيعون ما تبقى لديهم ويبحثون عن أنواع أخرى من الاستثمارات الملتوية. هكذا عثرت على خالي. فحالما أدركت أنهم سيتخلصون من هوفر، بدأت أبحث عن جميع مهرّبي الكحول. كان سليم من النوع الذي يلجأ إلى مثل هذه العمليات التجارية، وفي حال كان قد توسّل إلى أحد ما للحصول على عمل فإن ذلك سيكون قريباً من المدينة التي يعيش فيها. ولذلك استبعدتُ الساحلين الشرقي والغربي بعد أن أضعت الكثير من الوقت في تلك الأمكنة، وبدأت أركز على الأماكن القديمة التي كان يتردد عليها. وعندما لم يحدث شيء في سينت لويس وكانساس سيتي أو أوماها، توسّعتُ شيئاً فشيئاً في مناطق الوسط الغربي. ميلووكي، سنسيناتي، مينابوليس، شيكاغو، ديترويت. ومن ديترويت عدتُ إلى شيكاغو، وبما أنني لم أبحث جيداً خلال زياراتي الثلاث السابقة، إلا أن الزيارة الرابعة غيّرت حظي. دعك من رقم الحظ ثلاثة. ثلاث ضربات ومن ثمّ تخرج، لكنك تمشي بعد أربع كرات، وعندما عدت إلى شيكاغو في يناير ١٩٣٣، وصلت أخيراً إلى القاعدة الأولى. قادني الطريق

إلى روكفورد في إلينوي – على بعد ثمانية أميال فقط – حيث وجدته هناك جالساً في مستودع عند الساعة الثالثة صباحاً، يحرس مئتي صندوق مهرّب من الويسكي الكندي.

كان من السهل عليّ أن أطلق النار عليه حينها. كنت أحمل مسدساً محشواً في جيبي، وبما أنه المسدس نفسه الذي قتل المعلم به نفسَه قبل ذلك بثلاث سنوات فقد كان من العدل أن أقتل سليم بذلك السلاح. ولكن كانت لديّ خطط أخرى رسمتُها بروية وإمعان خلال فترة طويلة، ولم أكن لأسمح لنفسي بالانجراف وراء رغبتي في الانتقام. لم يكن قتل سليم كافياً. كان عليه أن يعرف هوية قاتله، وقبل أن أسمح له بالموت كنت أريده أن يعيش موته لوقت لا بأس به. العدل هو العدل في نهاية المطاف، وإن لم يكن الانتقام طيبَ المذاق فما الفائدة منه؟ وبما أنني دخلتُ إلى مخزن الحلويات الآن، قررتُ أن آكل حتى الشبع.

كانت الخطة معقدة بالتأكيد. فقد كانت ممزوجة بذكريات الماضي، وما كان لي أن أفكر فيها لولا الكتب التي قرأها لي إيسوب في المزرعة حيث أقمنا في سيبولا. كان أحد تلك الكتب، وهو مجلّد كبير بغلاف أزرق مهترئ، حول الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة. وباستثناء السير وولتر الذي يحمل اسمي، كان أولئك الصبية الذين يرتدون بزّات معدنية بمثابة أبطالي الكبار، وكنت أطلب الاستماع إلى قصصهم أكثر من أي شيء آخر. فكلما كنت أشعر بالحاجة إلى الرفقة (عندما أداوي جراحي، مثلاً، أو أشعر بالإحباط نتيجة نزاعاتي مع المعلم)، كان إيسوب يترك دراسته ويصعد إلى

غرفتي ليسليني، ولم أنسَ قطّ المتعة التي كنت أستمدها من الاستماع إلى تلك القصص التي تدور حول السحر والمغامرات. وبعد أن أصبحت وحيداً في هذا العالم الآن، كانت تراودني في الغالب. فقد كنت في رحلة بحث خاصة بي في نهاية المطاف. كنت أبحث عن كأسي المقدسة، وبعد نحو سنة من البحث حدث شيء غريب: بدأت الكأسُ التي تتحدث عنها القصة تتحول إلى كأس حقيقية. اشرب من الكأس ولسوف تمنحك الحياة. لكن الحياة التي كنت أبحث عنها لا يمكن أن تبدأ إلا بموت خالي. كانت تلك كأسي المقدسة، وما كان لي أن أعيش حياة حقيقية قبل أن أعثر عليها. اشرب من الكأس ولسوف تقود إلى حتفك. وشيئاً فشيئاً، تحولت الكأسُ إلى كأسٍ أخرى، وبينما كنت أتنقل من مكان إلى آخر تبدّت لي الطريقة التي سأقتله بها. كنت في لنكولن، في نبراسكا، عندما توضحت معالمُ الخطة النهائية – وأنا أتناول بعض الحساء في مقرّ "إرسالية سينت أولاف اللوثرية" – ومن ثم تبددت جميع الشكوك. سوف أملأ كأساً بعقار الإستركنين السام وأرغم الوغد على شربها. تلك كانت الصورة التي رأيتها، ولم تفارقني منذ ذلك اليوم. سوف أوجه المسدس إلى رأسه وسوف أرغمه أن يشرب موته.

تسللتُ خلفه في ذلك المستودع القديم الفارغ في روكفورد، إيلينوي. كنت قد أمضيت الساعات الثلاث الأخيرة مختبئاً خلف كومة من الصناديق الخشبية، أنتظر سليم حتى يستسلم للنعاس، ثم زفّت اللحظة التي كنت أنتظرها. تملّكني شعورٌ غريب بالهدوء والسكينة على الرغم من تلك السنوات التي قضيتها في التفكير والتخطيط.

"كيفك يا خال؟"، همستُ في أذنه. "لم نرك منذ زمن طويل".

كانت فوهة المسدس في مؤخرة رأسه، ولكي أتأكد من استيعابه لما يحدث صليتُ زند المسدس بإبهامي. كان مصباحٌ عارٍ يتدلى فوق الطاولة التي يجلس إليها سليم، وكانت جميع أدوات الحراسة الليلية متناثرة أمامه: ترمس قهوة، وزجاجة ويسكي، وكأس صغيرة، والقصص الهزلية المصورة، ومسدس عيار ٣٨.

"وولت؟ هل هذا أنت يا وولت؟".

"بلحمي ودمي يا صاحبي. ابن أختك المحبوب".

"لم ألاحظ أية حركة. كيف تسللت إلى هنا بهذه الطريقة؟".

"ضع يديك على الطاولة ولا تلتفت. وإن حاولت التقاط المسدس ستموت. مفهوم؟".

أطلق ضحكة عصبية صغيرة. "مفهوم".

"كالأيام الخوالي، ها؟ أحدنا جالس في كرسي، والآخر يشهر عليه مسدساً. فكرت في أنك ستقدّر التزامي بتقاليد العائلة".

"ليس هناك أي مبرر لما تفعله يا وولت".

"اخرس. إن بدأت التوسل لي، فسوف أقتلك على الفور".

"يا إلهي. أعطني فرصة على الأقل".

تنشقتُ الهواءَ خلف رأسه. "ما هذه الرائحة يا خال؟ لا تقل لي إنك خريت في ثيابك. اعتقدت أنك صلب. كنت أجول كل تلك السنوات وأتذكر كم كنت صلباً".

"أنت مجنون. لم أفعل أي شيء".

"تبدو لي أنها رائحة خراء. أم هل هو الخوف فقط؟ هل هذه هي

رائحة خوفك يا إدي؟".

كان المسدس في يدي اليسرى، وفي يدي اليمنى كنت أحمل حقيبة صغيرة. وقبل أن يتمكن من الاسترسال في كلامه - الذي كان يضرب سلفاً على أعصابي - رميت بالحقيبة أمامه على الطاولة. "افتحها"، قلت له. وبينما كان يفتح سحّابَ الحقيبة، انتقلت إلى جانب الطاولة ووضعت مسدسه في جيبي، ثم أبعدتُ مسدسي عن رأسه ببطء وتابعت التقدم حتى صرت أمامه مباشرة. أبقيت المسدس موجهاً إلى وجهه وهو يُخرج محتويات الحقيبة: أولاً، مرطبان مغلق يحتوي على الحليب المسموم، ثم الكأس الفضية. كنت قد سرقت تلك الكأس من مكتب مراهنات في كليڤلند قبل سنتين وكنت أحملها معي منذ ذلك الوقت. لم يكن المعدن نقياً - كان مطلياً بالفضة - لكنه مزخرف برسوم تصور أشخاصاً يمتطون الأحصنة، وقد قمت بتلميعه في ذلك المساء إلى أن صار متوهجاً. وحالما استقرت الكأس على الطاولة بالقرب من المرطبان، تراجعت قليلاً لكي أتمكن من رؤية المشهد جيداً. كان العرض على وشك أن يبدأ، ولم أرد أن يفوتني أي شيء منه.

بدا لي سليم عجوزاً كالتلال. فقد كبرَ نحو عشرين عاماً منذ أن رأيته آخر مرة، وكانت عيناه تنمّان عن مزيج من الألم والحيرة كفيلٍ بإثارة الشّفقة في قلب رجل ضعيف. لكنني لم أشعر بشيء. كنت راغباً في قتله. حتى وأنا أنظر إلى وجهه بحثاً عن أدنى علامة على الإنسانية أو الطيبة، كنت منتشياً بفكرة قتله.

"ما هذا؟".

"ساعة كوكتيل. سوف تصب لنفسك كأساً لذيذاً يا صاحبي، ومن ثم ستشربه في صحتي".

"يبدو كالحليب".

"مئة بالمئة – وأكثر من ذلك. مباشرة من البقرة بيسي".

"الحليب للأطفال. لا أطيق طعم ذلك الخراء".

"إنه مفيد لك. فهو يقوّي العظام ويفيد البشرة. وبما أنك تبدو عجوزاً الآن يا خال، من المفيد أن ترشف من ينبوع الشباب. صدقني أنه يصنع العجائب. بضع رشفات من هذا السائل ولن تبدو أبداً أكبر بيوم واحد مما تبدو عليه الآن".

"تريدني أن أصبّ الحليب في الكأس؟ هل هذا ما تعنيه؟".

"صبّ الحليب في الكأس، ثم ارفعها في الهواء وقل: 'نخب حياتك المديدة يا وولت'، ثم اشرب. اشرب الكأس كلّها. اشربها حتى آخر نقطة".

"ثم ماذا؟".

"ثم لا شيء. ستقدم خدمة كبيرة للعالم يا سليم، وسوف يجزيك الله".

"هناك سمّ في هذا الحليب، أليس كذلك؟".

"ربما، وربما لا. هناك طريقة وحيدة لكي تكتشف ذلك".

"اللعنة. ستكون مجنوناً إن كنت تعتقد أنني سأشرب ذلك الشيء".

"إن لم تشربه، سوف تخترق رصاصة رأسك. وإن شربته، ربما تكون أمامك فرصة".

"أكيد. كحلم إبليس بالجنة".

"ربما. ربما أفعل هذا كله لإخافتك. ربما أريد أن أشرب نخباً معك قبل أن نتكلم في العمل".

"عمل؟ أي نوع من العمل؟".

"العمل الماضي، العمل الحاضر، أو ربما العمل المستقبلي. أنا مفلس يا سليم، وأحتاج إلى عمل ما. ربما جئتُ لأطلب مساعدتك".

"بالتأكيد، سأساعدك في الحصول على عمل. لكن ليس عليّ أن أشرب هذا الحليب لأفعل ذلك. فإن أردت، سأتكلم مع بينغو في الصباح".

"جيد. سأعتبر هذا وعداً منك. ولكن أولاً سنشرب الفيتامين د". تقدمتُ إلى حافة الطاولة ثم دفعت المسدس تحت ذقنه بقوة أعادت رأسه إلى الوراء. "وسوف تشربه الآن".

كانت يدا سليم ترتعشان، لكنه تمكن من فتح غطاء المرطبان. "لا تُرِق الحليب"، قلت له وهو يصب الحليب في الكأس. "فإن أرقتَ نقطة واحدة منه سأضغط على الزناد". تدفق السائل الأبيض من المرطبان إلى الكأس دون أن تنزل قطرة واحدة على الطاولة. "جيد"، قلت له. "جيد جداً. والآن ارفع الكأس وقل النخب".

"نخب حياتك المديدة يا وولت".

كان الوغدُ يتصبب رصاصات. تنشقتُ رائحته الكريهة وهو يقرّب الكأس إلى شفتيه، وكنت سعيداً، سعيداً لأنه يعرف ما ينتظره. رأيتُ الرعبَ يتكثف في عينيه، وفجأة رأيتُني أرتجف معه. ليس من الخجل أو الندم، بل من البهجة.

"اشربه كله، أيها العجوز اللعين"، قلت له. "افتح فمك على مداه ودعه يتدفق وينزل إلى أحشائك".

أغلق عينيه، وأمسك بأنفه كطفل يوشك على تناول الدواء، ثم بدأ يشرب. كان مصيره مقضياً إن شرب ومقضياً إن لم يشرب، لكنني على الأقل لوّحتُ له ببارقة أمل صغيرة. فهذا أفضل من المسدس. المسدسات تقتلك لا محالة، ولكن ربما يعتقد أنني أمازحه بشأن الحليب. وحتى لو أنني لم أكن أخادعه في ذلك، فربما يحالفه الحظ وينجو من السم. عندما يكون أمام الرجل فرصة واحدة، عليه أن يأخذها، حتى لو كانت شبه يائسة. ولذلك، أغلق أنفه وشرب. وعلى الرغم من مشاعري نحوه، فعليّ الاعتراف بأنه تناول دواءه كصبيٍّ مطيع. ابتلع موته كجرعة من زيت الخروع، ومع أنه ذرف بعض الدموع أثناء ذلك –كان يشهق ويئنّ بعد كل جرعة – فقد استمر في شرب الحليب إلى آخر نقطة.

انتظرتُ حتّى يأخذ السمُّ مفعوله، وبقيت واقفاً هناك كالأبله أراقب وجه سليم بحثاً عن أية علامات تشي بالألم. مرّت الثواني، لكن الوغد لم يترنّح. كنت أتوقع نتائج فورية – الموت بعد جرعة أو جرعتين – ولكن ربما خفف الحليبُ من تأثير السم، وعندما وضع خالي الكأس الفارغة على الطاولة كنت أتساءل عن الخطأ الذي حصل.

"لعنك الله"، قال لي. "لعنة الله عليك، يا بنَ الكلبة المخادع".

من المؤكد أنه رأى الدهشة ترتسم على وجهي. كان قد شرب ما يكفي من السم لقتل فيلٍ، لكنه وقف وقلب كرسيَّه على الأرض وأخذ

يبتسم كجنيٍّ ربح لتوّه الروليت الروسي. "ابقَ حيث أنت"، قلت له وأنا أوجه المسدس نحوه. "ستندم إن لم تفعل ذلك".

لكن سليم انفجر ضاحكاً. "لا تمتلك الجرأة الكافية أيها التافه".

وكان على صواب. استدار وبدأ يبتعد عني، ولم أتمكن من إطلاق النار. كان يعطيني ظهره هدفاً، لكنني وقفت هناك أراقبه دون أن أتمكن من إطلاق النار عليه. تقدم خطوة، ثم أخرى، ثم بدأ يختفي في ظلال المستودع. استمعت لضحكاته الهستيرية الساخرة وهي تصطدم بالجدران، وعندما فرغ صبري تماماً، وعندما اعتقدتُ أنه ألحق بي هزيمة ساحقة، تمكن منه السم. كان قد تقدم عشرين أو ثلاثين خطوة عندها، لكنه توقف في مكانه، مما يعني أنني أنا من سيضحك أخيراً. سمعت الحشرجة المفاجئة في حلقه، وسمعت صوت ارتطام جسده بالأرض، وعندما تقدمت متعثراً في الظلام ووصلت إليه كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

لم أرغب في المغامرة. سحبتُه من ياقته على الأرضية الإسمنتية نحو الضوء لكي أتمعن فيه جيداً وأتأكد من موته. توقفت قبل بلوغ الطاولة ببضعة أقدام، وعندما كنت على وشك الانحناء فوقه وإطلاق رصاصة في رأسه، قاطعني صوتٌ من الخلف.

"حسناً أيها الشاب"، قال الصوت. "ارمِ المسدس على الأرض وارفع يديك في الهواء".

أفلتُ المسدس، ورفعت يدي، ثم استدرت ببطء شديد لأواجه الغريب. لم يبدُ عليه أي شيء مميز؛ كان رجلاً عادياً في أواخر الثلاثينيات أو مطلع الأربعينات. كان يرتدي بزة زرقاء مخططة وحذاءً

أسود فاخراً، ويضع منديلاً بلون الدراق في جيبه الأمامي. في البداية ظننته أكبر سناً، لكن كان ذلك مردّه إلى ابيضاض شعره. فحالما تنظر إلى وجهه تدرك أنه شاب في مقتبل العمر.

"لقد قتلت أحد رجالي"، قال لي. "وهذا ممنوع أيها الصبي. لا يهمني إن كنت صغيراً أم لا. تفعل شيئاً كهذا فتدفع ثمن فعلتك".

"نعم، هذا صحيح"، قلت له، "لقد قتلتُ ذلك الوغد. كان يستحق ذلك، وقد قتلته. هكذا تتعامل مع الحشرات يا سيدي. فإن زحفت إلى بيتك، تتخلص منها. يمكنك أن تقتلني إن شئت، لا يهمني. لقد فعلت ما جئت من أجله، وهذا كل ما يهمني الآن. فإن متُّ الآن، على الأقل سأموت سعيداً".

ارتفع حاجبا الرجل وارتسمت على وجهه معالم الدهشة. كان كلامي قد نال منه ولم يعد يعرف ماذا يفعل. وبعد شيء من التفكير، بدا كأنه عزم على التسلية. "تريد أن تموت الآن إذاً"، قال لي. "هل هذا ما تريده؟".

"أنا لم أقل ذلك. فأنت من يحمل المسدس، وليس أنا. فإن أردت أن تضغط على الزناد، لن يكون بمقدوري أن أمنعك".

"وماذا لو أنني قررت ألا أطلق النار؟ فما الذي أفعله بك بعد ذلك؟".

"بما أنك فقدت أحد رجالك للتو، يمكنك التفكير في توظيف رجل آخر مكانه. لا أعرف منذ متى يعمل سليم لديك، لكن يبدو أنك تعرفه جيداً وتعرف كم كان تافهاً وقذراً. فلو لم تعرف ذلك، لما كنتُ واقفاً هنا الآن. أليس كذلك؟ لكنتُ مكوّماً على الأرض

برصاصة في قلبي".

"كان لسليم سلبياته. لن أجادلك في ذلك".

"لم تخسر شيئاً ذا قيمة يا سيدي. فإن فكرت في الإيجابيات والسلبيات، ستكتشف أنك أفضل حالاً من دونه. لماذا تتظاهر بالأسف على شخص تافه مثل سليم؟ فمهما كان يقدم لك، سأقدم لك أفضل منه. هذا وعدٌ مني".

"لديك لسان لا بأس به، أيها القصير".

"بعد كل ما عانيتُه خلال السنوات الثلاث السابقة، هذا كل ما تبقى لي تقريباً".

"وماذا عن الاسم؟ لا يزال لديك اسم، أليس كذلك؟".

"وولت".

"وولت ماذا؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"وولت رولي، يا سيدي".

"هل تعرف من أنا يا وولت؟".

"لا يا سيدي. ليست لدي أية فكرة".

"اسمي بينغو وولش. هل سمعت بي من قبل؟".

"طبعاً سمعت بك. أنت مستر شيكاغو. اليد اليمنى للزعيم أومالي. أنت ملك الحلقة، بينغو، الرجل الذي يدير العجلة".

ابتسم لتوصيفي ذاك. قل للشخص الثاني إنه الشخص الأول وسوف يقدّر المجاملة التي تقدمها له. وبما أنه لم يُنزل المسدس بعد، لم أكن في مزاج يدفعني إلى التشهير به. وما دام ذلك سيبقيني على قيد الحياة، فأنا مستعد لأحك له ظهره إلى أن تعود الأبقار إلى الحظيرة.

"حسناً يا وولت"، قال لي. "سأعطيك فرصةً، شهرَين، أو ثلاثة، ثم نرى كيف تسير الأمور، كنوع من الاختبار لنتعرف عليك أكثر. ولكن إن فشلت، سأتخلص منك. سأرسلك في رحلة طويلة جداً".

"إلى حيث ذهب سليم لتوّه، على ما أظن".

"هذه هي الصفقة التي أقدمها لك. خذها أو اتركها يا بنيّ".

"تبدو لي صفقة منصفة. فإن لم أنجح في عملي، يمكنك أن تقطع رأسي بفأس. نعم، أقبل بذلك. ولم لا؟ ما قيمة حياتي إن لم أتمكّن من مجاراتك، يا بينغو؟".

هكذا بدأ عملي الجديد. هيّأني بينغو وعلمني أصول العمل، وشيئاً فشيئاً صرتُ صبيَّه. كانت فترة الاختبار التي دامت شهرين صعبة عليّ، لكن رأسي كان لا يزال على كتفيّ عندما انتهت، وبعد ذلك بدأت أتكيف مع العمل. كان أومالي يملك أضخم الأعمال في كوك كاونتي، وكان بينغو مسؤولاً عن إدارة هذه الأعمال. صالات المقامرة، ومكاتب المراهنات، والمخازن، وفرق الحماية، وماكينات القمار؛ كان يدير جميع هذه الأعمال بصرامة كبيرة ولم يكن مسؤولاً أمام أحد سوى الزعيم نفسه. التقيت به في لحظة مضطربة، في فترة انتقالية فتحت فرصاً جديدة، ومع انتهاء السنة كان قد عزز موقعه كواحدٍ من أذكى الأشخاص في الغرب الأوسط. كنت محظوظاً للعمل تحت يديه. فقد أخذني بينغو تحت جناحيه، وكنت يقظاً أستمع لكل ما يقوله لي، وتغيرت حياتي كلها. فبعد ثلاث سنوات من اليأس والجوع، استطعت تأمين طعامي وملبسي وبعض المال. بدأت حياة جديدة، ولأنني كنت صبيَّ بينغو كانت جميع الأبواب تُفتح أمامي.

بدأت العمل كمرسال، أقضي بعض الحاجيات وأقوم ببعض الأعمال الصغيرة. أشعلت له سجائره وأخذت بزاته إلى المصبغة؛ اشتريت الأزهار لصديقاته ولمّعتُ إطارات عجلات سيارته؛ وكنت أهرع لتنفيذ أوامره مثل جروٍ متحمس. يبدو الأمر مهيناً، ولكن في

حقيقة الأمر لم أرَ ضيراً في كوني تابعاً. كنت أعرف أن فرصتي ستأتي، وفي الوقت الحاضر كنت ممتناً لاهتمامه بي. فقد كنا نعيش فترة الكساد، وأنّى لشخص مثلي أن يحصل على فرصة أفضل من تلك؟ لم أتلقَّ أي تعليمٍ أو تدريب على أي شيء، ولم أكن أملك أية مهارات مميزة باستثناء مهنةٍ آلت إلى الانتهاء، ولذلك تنازلت عن كبريائي والتزمت بتنفيذ التعليمات التي أتلقّاها. لو كان عليّ أن ألعق الأحذية لأكسب عيشي فليكن، ولسوف أتحول إلى أفضل لاعق أحذية في المدينة. لم تكن لدي مشكلة في الاستماع إلى قصص بينغو والضحك على النكات التي يلقيها. فالرجل لم يكن راوياً سيئاً، ويمكن أن يكون شخصاً مضحكاً عندما يريد ذلك.

حالما أثبتُّ له ولائي، لم يحاول الوقوف في طريقي. فمع حلول أوائل الربيع كنت أتسلق السلّمَ، ومنذ ذلك الوقت كانت المسألة تتعلق بالسرعة التي سأصل بها إلى الدرجة التالية. أدخلني بينغو في شراكة مع ملاكم سابق اسمه ستَترز غرونان، وبدأنا أنا وستَترز جولاتنا على البارات والمطاعم ومخازن الحلويات لجمع إتاوات أومالي الأسبوعية التي يتقاضاها لقاء توفير الحماية. لم يكن ستَترز ماهراً في استخدام الكلمات، لكنني كنت أجيد التلاعب بالكلمات، وكلما صادفنا مماطلاً أو متهرّباً من دفع الإتاوة المستحقة، كنت أرسم له صوراً حية عما حدث للزبائن الذين تخلفوا عن دفع إتاواتهم بحيث لم يكن شريكي يضطر إلى استخدام قبضتيه. كان أداة مفيدة، وكان وجوده نافعاً في حالات توضيح الخيارين المتاحين أمام الزبائن - إما، وإمّا - لكنني كنت أنجح في تسوية النزاعات دون اللجوء إلى

خدماته. وصلت المعلومات إلى بينغو حول أدائي الجيد فقام بترقيتي إلى عمل في مكاتب المراهنات في ساوث سايد. كنا أنا وستَترز فريقاً جيداً، لكنني كنت أفضل العمل بمفردي، وخلال الأشهر الستة التالية قمت بجولة على مجموعة من أحياء الملوّنين وتبادلت الأحاديث مع الزبائن وهم يضعون الرهانات أملاً في جني بعض الأموال. كان لكلٍّ نظامه الخاص، من الصبي الذي يبيع الصحف على زاوية الشارع إلى القندلفت في الكنيسة، وكنت أتمتّع بالاستماع إليهم وهم يخبرونني بالطرق التي اختاروا بها المجموعات الرقمية. جاءت الأرقام من كل مكان؛ من أعياد الميلاد والأحلام، من نتائج مباريات البيسبول وأسعار البطاطا، من التشققات الموجودة في الأرصفة، وأرقام لوحات السيارات، ولوائح غسيل الثياب، وأعداد الحضور في صلاة الأحد السابقة. كانت فرص الربح أقرب إلى الصفر، لذلك لم يكونوا يلومونني لخساراتهم، أما في تلك المناسبات النادرة التي يربح فيها أحدهم فكانوا يحولونني إلى رسول خيرٍ ومحبة. كنتُ "كونت الأموال المحظوظة"، و"دوق الهبات" السخيّ، وكنت أحب مراقبة أوجه الأشخاص المشرقة وأنا أعدّ لهم الأموال. وبشكل عام لم يكن عملاً مزعجاً، فعندما قام بينغو بترقيتي ثانية انتابني شيءٌ من الحزن.

تم نقلي من المراهنات إلى القمار، ومع حلول سنة ١٩٣٦ كنت المدير التشغيلي لصالة قمار في لوكَست ستريت، وهو مكان مريح وحميم ومعبق بالدخان يحتل الغرفة الخلفية من مكان تجاري لتنظيف الثياب وكيّها. كان الزبائن يأتون بقمصانهم وسراويلهم

المتغضّنة ويودعونها على الطاولة الأمامية ثم يشقون طريقهم عبر الثياب المعلقة إلى الغرفة الخلفية السرية. كان معظم الذين يذهبون إلى ذلك المكان يلقون النكات حول الذهاب إلى المنظفين. كانت نكتة مألوفة للعاملين تحت إمرتي، وبعد فترة وجيزة بدأنا بالمراهنات على عدد الأشخاص الذين يلقون هذه النكتة في يوم معين. وكما قال محاسبي والدو مَكنير مرة: "هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يقومون فيه بإفراغ جيوبك وكيّ سراويلك في الوقت نفسه. يمكنك أن تبدّد كل أموالك في الرهانات دون أن تخسر قميصك".

كنت ناجحاً في إدارة ذلك العمل الصغير في تلك الغرفة الواقعة خلف مصبغة "بينيز كلينرز". كان المكان مزدحماً دائماً، لكنني وظفتُ صبياً لتنظيفه والعناية به، وكنت أتأكد دوماً من رمي أعقاب السجائر في المنافض وليس على الأرض. كان لديّ أحدث آلات التلغراف الموصولة بأغلب ميادين سباق الخيل في البلاد، كما تخلصت من إزعاجات الشرطة من خلال التبرعات التي كنت أقدمها لصناديق التقاعد الخاصة لبعض رجال الشرطة. كنت في الحادية والعشرين، وكانت أموري جيدة من جميع النواحي. كنت أعيش في غرفة أنيقة في فندق فيذرستون، وأملك خزانة مليئة بالبزّات الأنيقة التي فصّلها لي خياطٌ مشهور بنصف السعر، وكان بمقدوري الذهاب إلى ريغلي ومشاهدة أية مباراة أريدها. كان ذلك جيداً، ولكن فوق ذلك أيضاً كانت هناك النساء، الكثير من النساء، ولم أقصّر في هذا المجال. فبعد مواجهة ذلك القرار الفظيع في فيلادلفيا قبل سبع سنوات، صارت خصيتاي غاليتين جداً عليّ. لقد تخليتُ

عن عملي وشهرتي من أجلهما، وبما أن "الصبي المعجزة وولت" لم يعد موجوداً، رأيتُ أن الطريقة الأفضل لتبرير خياري ذاك هي استخدامهما بقدر ما أستطيع. كنت قد فقدت عذريتي عند وصولي إلى شيكاغو، لكن مغامراتي الجنسية الحقيقية لم تبدأ إلا بعد عملي مع بينغو وامتلاكي المال اللازم للوصول إلى النساء اللواتي أرغب فيهنّ. سبق أن فقدت عذريتي مع فتاة ريفية اسمها ڤيلما تشايلد في غرب بنسلفانيا، لكن تلك التجربة الأولى كانت بدائية جداً؛ عبثنا ونحن نرتدي ثيابنا في حظيرة باردة، وتعانقنا وحاولنا إيجاد الوضعية المناسبة، ولم نعرف ماذا دخل في ماذا. وبعد بضعة أشهر، عندما عثرت على المئة دولار في مينابولس، خضتُ تجربتين أو ثلاث تجارب مع العاهرات، ومع ذلك فقد كنت مبتدئاً عند نزولي إلى شوارع هوغتاون. فحالما استقرت حياتي الجديدة، فعلت ما بوسعي للتعويض عن الزمن الضائع.

هكذا جرت الأمور. انتميت إلى هذه المنظمة، ولم أشعر قطّ بالندم للانضمام إلى الأوغاد. فقد رأيت نفسي واحداً منهم، وتمثّلتُ قيمَهم، ولم أبُح بكلمة لأيٍّ كان عن ماضيّ؛ لا لبينغو، ولا للفتيات اللواتي نمت معهنّ، ولا لأي أحد. فما دمْتُ لا أفكر في الأيام الخوالي، يمكنني أن أخدع نفسي بوجود مستقبل أمامي. كان التفكير في الماضي مؤلماً جداً، ولذلك أبقيتُ عينيّ مثبتتين أمامي، وكلما كنت أتقدم خطوة أخرى كنت أبتعد أكثر عن ذلك الشخص الذي كنتُه برفقة المعلّم ياهودي. كان أفضلُ ما فيّ يرقد تحت الأرض معه في صحراء كاليفورنيا. دفنتُه هناك مع فيلسوفه المفضل سبينوزا، ودفتره

الذي يضم قصاصات حول "الطفل المعجزة وولت"، والقلادة التي تحمل إصبعي المقطوعة، ومع أنني كنت أعود إلى هناك كل ليلة في أحلامي فقد كان التفكير في ذلك يدفعني إلى الجنون أثناء النهار. كنت قد اعتقدت أن قتلي لسليم سوف يضع الأمور في نصابها لكنه لم يجلب لي أي نوع من الراحة. لم أكن آسفاً على ما فعلته، لكن المعلّم ياهودي لا يزال ميتاً، ولم يكن بمقدور بينغو أو أمثاله في هذا العالم أن يعوّضوني عنه. كنت أتجول في شيكاغو وكأن مستقبلاً زاهراً بانتظاري، وكأنني شخص مهم، ولكن في جوهر الأمر كنت مجرد نكرة. فمن دون المعلّم لم تكن لي أية أهمية، ولم يكن أي شيء بانتظاري.

سنحت لي فرصة واحدة للانسحاب، فرصة وحيدة لإنقاذ نفسي والهرب، لكنني كنت أعمى تماماً عندما هبط عليّ ذلك العرض. حدث ذلك في شهر أكتوبر من سنة ١٩٣٦، وكنت مزهواً بنفسي عندها إلى درجة اعتقدت معها أن تلك الفقاعة ستدوم إلى الأبد. كنت قد غادرت المصبغة بعد ظهر أحد الأيام لإنجاز بعض الأعمال الشخصية مثل قص شعري وحلاقة ذقني عند المزيّن براور، وتناول الغداء في مطعم ليميل في شارع واباش، ومن ثم إلى فندق رويال بارك لقضاء بعض الوقت مع راقصة اسمها ديكسي سنكلير. كان الموعد في الساعة الثانية والنصف في الجناح ٤٠٩ وكنت متشوقاً جداً لذلك اللقاء. ولكن قبل ست أو سبع ياردات من وصولي إلى باب المطعم، بعد أن لففت زاوية الشارع وكنت على وشك الدخول لتناول الغداء، رأيتُ آخر شخص في العالم كنت أتوقع رؤيته. جمدتُ من هول

المفاجأة. كانت السيدة ويذرسبون تحمل الكثير من الأغراض وتبدو جميلة وأنيقة كسابق عهدها وتهرع صوب سيارة أجرة بسرعة مئة وعشرة أميال في الساعة. وقفت هناك وقد جف حلقي، وقبل أن أتمكن من قول أي شيء، رفعت رأسها ثم ثبتت عينيها في اتجاهي وجمدت في مكانها. ابتسمت. ابتسمتُ ابتسامة عريضة امتدت من أذني اليمنى إلى أذني اليسرى، ثم تلت ذلك لحظة من التردد والإدراك لم أرَ لها مثيلاً في حياتي. فغر فمُها وسقطت من يديها الأغراض التي كانت تحملها وتبعثرت على الرصيف، وبعد ثانية واحدة كانت ترمي بذراعيها حولي وتزرع أحمر الشفاه على كافة أرجاء وجهي.

"ها أنت ذا، أيها الوغد"، قالت لي وهي تعصرني بكل ما أوتيت من قوة. "والآن وجدتك أيها الزئبقيّ الوغد. أين كنت كل هذا الوقت أيها الصبي؟".

"هنا وهناك"، قلت لها. "في هذا المكان وذاك. فوق وتحت، تحت وفوق، الحكاية المعتادة. تبدين رائعة، سيدة ويذرسبون. في أبهى حلة، حقاً. أم هل أناديك بالسيدة كوكس؟ فهذا هو اسمك الآن، أليس كذلك؟ السيدة أورفيل كوكس".

رجعت إلى الخلف قليلاً لتعاينني جيداً وهي لا تزال تمسك بي وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها. "لا أزال ويذرسبون يا عزيزي. ذهبتُ إلى المذبح، ولكن عندما حان الوقت لأقول 'نعم أقبل'، علقت الكلمات في حلقي. تحول القبول إلى الرفض، وها أنا هنا بعد سبع سنوات، لا أزال عازبة وفخورة بذلك".

"مبروك. طالما عرفتُ أن ذلك الكوكس كان غلطة".

"لولا تلك الهدية، لمضيت ربّما في مسألة الزواج تلك. فعندما جلب بيلي بيغيلو ذلك الطرد من كيب كود، دفعني فضولي إلى إلقاء نظرة سريعة عليه. تقضي التقاليد ألا تفتح العروس هداياها قبل العرس، لكن تلك الهدية كانت مميزة، وحالما فتحتها أدركت أن الزواج لن يتم".

"ماذا كان في الصندوق؟".

"ظننتُ أنك كنت تعرف".

"لم أسأله عن ذلك قطّ".

"أرسل لي كرة. الكرة الأرضية".

"كرة؟ وما المميز في ذلك؟".

"لم تكن الهدية بحد ذاتها يا وولت. بل الملاحظة التي أرفقها بها".

"لم أرَ تلك أيضاً".

"جملة واحدة، جملة واحدة فقط. 'أينما كنتِ، سأكون معك'. قرأت تلك الكلمات فانهار عالمي كله. كان هناك رجل واحد لي فقط، يا كعكتي اللذيذة. فإن كان بمقدوري الحصول عليه، فلن أتلهى بالبدائل والنسخ الرخيصة".

وقفت هناك تتذكر الملاحظة وسط الحشود المائجة حولَنا. لهَت الريحُ بحافة قبعتها الخضراء، ثم ما لبثت عيناها أن طافتا بالدموع. وقبل أن تستسلم لنوبة الحزن تلك، انحنيتُ وجمعتُ أغراضها. "تفضلي، سيدة ويذرسبون"، قلت لها. "سأعزمك على الغداء، ثم

نطلب زجاجة نبيذ ونرتاح قليلاً".

أعطيت رئيس النُّدل عشرة دولارات عند الباب وقلت له إننا نريد بعض الخصوصية. هز كتفيه وقال إن جميع الطاولات الخاصة محجوزة فأعطيته عشرة دولارات أخرى. كان ذلك كافياً لإلغاء حجز طارئ، فسرعان ما اصطحبنا أحد الندل إلى خلفية المطعم وأجلسنا في زاوية حميمة مضاءة بالشموع ومسورة بستائر مخملية حمراء تفصلنا عن بقية الزبائن. كنت مستعداً لفعل أي شيء لإرضاء السيدة ويذرسبون في ذلك اليوم، ولا أعتقد أن أملها قد خاب. رأيتُ تلك اللمعة في عينيها ونحن نجلس إلى طاولتنا، وعندما أخرجتُ ولاعتي الذهبية الخاصة لأشعل لها سيجارتها، بدا أنها أدركت فجأة أن وولت الصغير لم يعد صغيراً.

"يبدو أن أمورك تسير على ما يرام، أليس كذلك؟".

"لا بأس"، قلت لها. "واجهت ظروفاً صعبة للغاية منذ لقائنا الأخير".

تحدثنا في أشياء متفرقة ونحن ندور حول بعضنا بعضاً خلال الدقائق الأولى، ولكن سرعان ما ساد بيننا جوٌّ من الألفة والحميمية، وعندما جاء النادل بلائحة الطعام كنا نتبادل الحديث عن الأيام الخوالي. وقد تبيّن أن السيدة ويذرسبون كانت تعرف أكثر مما اعتقدتُ عن تلك الأشهر الأخيرة التي قضيتها مع المعلّم. فقبل أسبوع من موته، كان قد بعث لها رسالة طويلة باح لها فيها بكل شيء: آلام الرأس، ونهاية "الصبي المعجزة وولت"، وخطة الذهاب إلى هوليود وتحويلي إلى نجم سينمائي.

"لا أفهم"، قلت لها. "إن كانت علاقتكما قد انتهت، فما الذي يدفعه ليكتب لك رسالة؟".

"لم تنتهِ علاقتنا. استبعدنا فكرة الزواج فقط، هذا كل ما في الأمر".

"لكنني لا أفهم".

"كان يموت يا وولت. وأنت تعرف ذلك. من المؤكد أنك اكتشفت ذلك حينها. عرف أنه مريض بالسرطان قبل اختطافك بفترة قصيرة. مشكلة، أليس كذلك؟ فقد كنا ندور ويتشوتا لجمع المال اللازم لتحريرك، ثم يأتي ذلك المرض القاتل اللعين. هكذا بدأ الحديث عن الزواج. كنت أريد الزواج به. لم يكن يهمني كم من الوقت سيعيش؛ أردت أن أصبح زوجته فقط. لكنه لم يقبل. 'زواجك مني يعني أنك ستتزوجين جثة'، قال لي، 'فكري في المستقبل يا ماريون' - قال لي تلك الكلمات آلاف المرات - 'فكري في المستقبل يا ماريون. هذا الشاب كوكس ليس سيئاً أبداً. سوف يعطيك المال لإطلاق سراح وولت، ثم ستنعمين بحياة مريحة. إنها صفقة رائعة يا أختي، ومن الغباء ألا تنتهزي هذه الفرصة'".

"يا إله العرش. كان يحبك حقاً، أليس كذلك؟ أعني، كان يحبك بكل معنى الكلمة".

"كان يحبنا كلينا يا وولت. فبعد ما حصل لإيسوب وماما سيو، أصبحنا أنا وأنت عالمه كلَّه".

لم أنوِ إخبارها كيف مات. أردت أن أوفر عليها التفاصيل المؤلمة، وتمكنت من تفادي الموضوع طوال وقت الشراب؛ لكنها كانت

تلح على سماع ما جرى في الجزء الأخير من الرحلة، وما جرى لنا بعد وصولنا إلى كاليفورنيا. لماذا لم أمتهن التمثيل؟ كم من الوقت عاش؟ لماذا أنظر إليها بتلك الطريقة؟ بدأت أحكي لها كيف غط في النوم بعمق في إحدى الليالي، لكنها كانت تعرفني جيداً ولن تصدق كلمة مما قلته. تمكنت من قراءة أعماقي خلال ثوانٍ قليلة، وحالما عرفت أنني أخفي عنها شيئاً ما لم أعد قادراً على المراوغة. أخبرتها بكل شيء. حكيت لها القصة البشعة كلها، وشيئاً فشيئاً بدأت أعيش ذلك الرعب من جديد. لم أترك أي تفصيل صغير. كان للسيدة ويذرسبون الحق في أن تعرف كل شيء، وحالما بدأتُ بسرد كل تلك التفاصيل لم يعد بمقدوري التوقف. كنت أتكلم وأرى دموعها تسيل على خديها وتلطخ مكياج وجهها كله.

عندما وصلت إلى نهاية القصة، فتحت سترتي وأخرجت المسدس من الجعبة المربوطة على كتفي. رفعته في الهواء لوهلة ثم وضعته على الطاولة بيننا. "ها هو ذا"، قلت لها. "مسدس المعلّم. لكي تعرفي شكله فقط".

"يا عزيزي المسكين وولت".

"المسكين النكرة. هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي من أغراضه".

حدّقت السيدة ويذرسبون في المسدس الصغير لبضع ثوانٍ. ثم مدت يدها ووضعتها فوقه. ظننتُ أنها ستمسك به، لكنها لم تفعل ذلك، بل اكتفت بمراقبة أصابعها وهي تحتضن المسدس، وكأن لمسها لما سبق للمعلم أن لمسه كان أشبه بلمسه ثانية.

"فعلت كل ما بوسعك أن تفعله"، قالت لي أخيراً.

"لقد خذلته، هذا ما فعلته. توسل إليّ لكي أضغط على الزناد، ولم أقوَ على ذلك. أمنيته الأخيرة؛ لكنني أدرت له ظهري وتركته يفعل ذلك بنفسه".

"تذكر الأوقات الجيدة، هذا ما قاله لك".

"لا أستطيع. فقبل أن أصل إلى الأوقات الجيدة، أتذكر حاله عندما طلب مني أن أتذكرها. لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم الأخير. لا يمكنني أن أعود إلى أبعد من ذلك لكي أتذكر الأشياء التي حدثت قبله".

"انسَ المسدس يا وولت. تخلّص من هذا الشيء اللعين وانسَ الماضي".

"لا أستطيع. فإن فعلت ذلك، سوف يختفي إلى الأبد".

عندها قامت عن كرسيّها وتركت الطاولة. لم تقل إلى أين هي ذاهبة، ولم أسألها عن ذلك. صار الحديث ثقيلاً وموجعاً لكلينا ولم يعد بمقدورنا أن نمضي فيه إلى أبعد من ذلك. أعدتُ المسدس إلى الجعبة ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة الواحدة. كان لدي الكثير من الوقت قبل موعدي مع ديكسي. ربما تعود السيدة ويذرسبون، وربما لا تعود. وفي كلتا الحالتين، كنت سأبقى جالساً هناك لأتناول غدائي، ومن ثم سأتوجه إلى فندق رويال بارك وأقضي ساعة ساخنة مع لهَبي الجديد، نهزّ على السرير وملاءته الحريرية ملفوفة حول خصري.

لكن السيدة ويذرسبون لم تغادر المطعم. ذهبت إلى الحمام

لتجفف دموعها وتسوي مظهرها، وعندما عادت بعد عشر دقائق كانت قد وضعت أحمر شفاه جديداً وكحّلت رموشها من جديد. كانت عيناها لا تزالان حمراوين لكنها ابتسمت لي وهي تجلس إلى الطاولة، وأدركت أنها مصممة على فتح حديث آخر.

"إذاً، يا صديقي"، قالت وهي تأكل قطعة من كوكتيل الروبيان، "كيف أحوال الطيران هذه الأيام؟".

"انتهت تلك الأشياء"، قلت لها. "فقد حططتُ الرحال وبعتُ الأجنحة مقابل ثمن زهيد".

"ولا تشعر بالرغبة في التحليق ثانية؟".

"ولا بأي شكل من الأشكال".

"كانت آلام الرأس سيئة، ها؟".

"أنت لا تعرفين ما معنى سيئة يا عزيزتي. فنحن نتكلم هنا عن فولتاج عالٍ من الألم يسبب حروقاً مميتة".

"شيء مضحك. أسمع بعض الأحاديث أحياناً. في القطار وفي الشارع، أحاديث مقتضبة عابرة. الناس تتذكرك يا وولت. الصبي المعجزة خلق ضجة كبيرة، والكثير من الناس لا يزالون يفكرون فيك".

"أعرف ذلك. أنا أسطورة لعينة. لكن المشكلة أنه لم يعد أحد يؤمن بها. فقدوا إيمانهم مع توقف العروض، ولم يبقَ أحد. أعرف تلك الأحاديث التي تتكلمين عنها. كنت أسمعها أيضاً. كانت تنتهي دوماً بالخلاف والنزاع. يقول أحدهم إنها مزيفة، ويقول الآخر ربما لم تكن كذلك، وسرعان ما يتناوشان ويقفلان النقاش. ولكن

مضى وقت لا بأس به على ذلك. لا تسمعين الكثيرين يأتون على ذكر الموضوع الآن. وكأن كل ذلك لم يحدث من الأصل".

"منذ نحو سنتين، نشروا مقالة عنك في صحيفة لم أعد أذكر اسمها. الصبي المعجزة وولت، الولد الصغير الذي ألهب خيال الملايين. ماذا حصل له، وأين هو الآن؟ هذا النوع من المقالات".

"سقط عن سطح الأرض، هذا ما حدث له. حملته الملائكة إلى المكان الذي أتى منه، ولن يراه أحد بعد الآن".

"إلا أنا".

"إلا أنت. لكن هذا سيبقى سرنا الصغير، أليس كذلك؟".

"سأقول إنني أمك يا وولت. من تظنني على أية حال؟".

شعرت بشيء من الارتياح بعد ذلك. جاء النادل وأخذ صحون المقبلات، وعندما عاد حاملاً الأطباق الرئيسية كنا جاهزين لطلب زجاجة أخرى.

"أرى أنك لا تزالين تتمتعين بالمشروب"، قلت لها.

"المشروبات، المال، الجنس. هذه هي الحقائق الأزلية".

"في ذلك الترتيب؟".

"في أي ترتيب تريده. فمن دونها يتحول العالم إلى مكانٍ حزين وبائس".

"بالحديث عن الأماكن الحزينة، هل من جديد في ويتشوتا؟".

"ويتشوتا؟"، وضعت كأسها على الطاولة ونضح وجهها بابتسامة ساحرة تنمّ عن أكل الخراء. "أين؟".

"لا أعرف. أنتِ قولي لي".

"لا أتذكر. حزمت حقائبي قبل خمس سنوات ولم تطأ قدماي تلك المدينة بعد ذلك".

"من اشترى المنزل؟".

"لم أبعه. يعيش بيلي بيغيلو هناك مع زوجته الثرثارة وابنتيه الصغيرتين. فكرت في أن الإيجار سيمدّني ببعض المال، لكن المسكين فقد عمله في المصرف بعد شهر من انتقالهم إلى المنزل، وتركته يعيش فيه مقابل دولار واحد في السنة".

"لا بد أن أحوالك جيدة إذاً".

"انسحبت من السوق في الصيف الذي سبق الانهيار. أشياء تتعلق برسائل الفدية، وتسليم المال نقداً، ومناطق التسليم؛ يبدو كل شيء غائماً الآن. وقد تبيّن أنه أفضل ما حصل لي على الإطلاق. مغامرتك الفاشلة تلك أنقذت حياتي يا وولت. فمهما كنت أساوي حينها، أنا الآن أفضل بعشر مرات".

"ما الذي يُبقيكِ في ويتشوتا مع كل ذلك المال، صحيح؟ منذ متى انتقلت إلى شيكاغو؟".

"أنا هنا من أجل العمل فقط. سأعود إلى نيويورك غداً صباحاً".

"الجادة الخامسة بالتأكيد".

"تخمينك صحيح، يا مستر رولي".

"عرفت ذلك في اللحظة التي رأيتك فيها. تبدين ثرية جداً الآن. إنها تمنحك رائحة خاصة، وأنا أحب الجلوس هنا واستنشاق عبق هذه الرائحة".

"معظمها يأتي من النفط. لتلك المادة رائحة مقززة في الأرض،

ولكن ما إن تقوم بتحويلها إلى أموال نقدية حتى يفوح منها عطرٌ جميل، أليس كذلك؟".

لم تزل السيدة ويذرسبون التي عرفتها من قبل. لا تزال تحب الشراب، والحديث عن المال، وحالما تفتح زجاجة وتستدرجها إلى موضوعها المفضل يمكنها أن تضاهي أي رأسماليّ لعين في هذه المدينة. أسهبت في إخباري عن صفقاتها واستثماراتها، وعندما انتهينا من الغداء وجاء النادل بلائحة الحلويات، اشتعل في رأسها ضوءٌ متوهج. كانت الساعة الثانية إلا ربعاً. وقد صممتُ على الخروج من المكان بعد نصف ساعة بأي طريقة ممكنة.

"إن كنت ترغب في الانضمام إليّ يا وولت"، قالت لي، "يسعدني أن أؤمن لك مكاناً".

"مكان؟ مكان من أي نوع؟".

"تكساس. لديّ حفارات جديدة هناك، وأنا بحاجة على من يشرف على عمليات الحفر تلك".

"لكنني لا أعرف شيئاً عن النفط".

"أنت شخص ذكي. سوف تتعلم بسرعة. انظر إلى التقدم الذي أحرزته سلفاً. ثياب أنيقة، ومطاعم فاخرة، وبعض المال. أحرزت تقدماً جيداً يا صديقي. ولا تظنّ أنني لم ألاحظ الطريقة التي شذبتَ بها لغتك. لم تتفوه بكلمة سوقية واحدة طوال لقائنا هذا".

"صحيح، بذلت جهداً كبيراً على هذا الجانب. لم أشأ أن أبدو كشخص جاهل وسوقي، فقرأت بعض الكتب وجدّدتُ مفرداتي. خلتُ أن الوقت قد حان للخروج من المجرور".

"هذا ما أعنيه. يمكنك أن تفعل أي شيء تصمّم على فعله. فما دمتَ تصمّم على شيء ما، لا حدود لما يمكن أن تصل إليه. سوف ترى يا وولت. تعال معي، وبعد سنتين أو ثلاث من الآن سنكون شريكَين".

كان عرضاً سخياً ورائعاً، ولكن حالما نال مني مديحها استنفرتُ فحولتي وهززت رأسي. "أحب ما أفعله الآن. ما الذي يدفعني للذهاب إلى تكساس عندما يكون لدي كل ما أحتاجه في شيكاغو؟".

"لأنك تعمل في المجال الخطأ. لهذا السبب. لا مستقبل لك في عالم الشرطة واللصوص هذا. فإن تابعت فيه، إما أن تموت وإما أن تذهب إلى السجن قبل أن تبلغ عيد ميلادك الخامس والعشرين".

"أي عالم شرطة، وأي عالم لصوص؟ أنا نظيف كأظفار طبيب جرّاح".

"أكيد. والبابا شخص متنكر في هيئة حاوي أفاعٍ هندوسي!".

جاؤوا بالحلويات بعد ذلك، وأخذنا نقضم الإكلير بصمت. كانت طريقة سيئة لإنهاء الوجبة، لكن كنا نحن الاثنان في غاية العناد. ثم تحدثنا قليلاً عن الجو، وتبادلنا بعض التعليقات السريعة عن الانتخابات القادمة، لكن الإثارة كانت قد تلاشت ولم تكن هناك طريقة لإحيائها من جديد. لم تكن السيدة ويذرسبون مزعوجة بسبب رفضي لعرضها فقط. فقد شاءت المصادفة أن تجمعنا ثانية، ولا يمكن إلا لغبي معتوه أن يتجاهل دعوة القدر تلك بذلك النوع من الطيش والاستهتار كما فعلت أنا. لم تكن مخطئة في موقفها مني، ولكن كان عليّ أن أسير في طريقي الخاص، ومن شدة غروري لم أفهم أن طريقي

هو طريقها نفسه. فلو لم أكن متشوقاً إلى تلك الدرجة لأن أذهب وأزرع قضيبي في ديكسي سنكلير، لربما استمعت إليها بشيء من الهدوء والرويّة، لكنني كنت مستعجلاً، ولم أكن مهتماً بأي نوع من التنقيب الروحي في ذلك اليوم. هكذا تجري الأمور. حالما تشتعل النار بين جنبيك، فإنك تفقد القدرة على التفكير.

لم نطلب القهوة، وعندما جاء النادل بالفاتورة عند الساعة الثانية وعشر دقائق، أخذتها من بين أصابعه قبل أن تتمكن السية ويذرسبون من التقاطها.

"على حسابي"، قلت لها.

"طيب يا باشا. إن كان هذا يجعلك سعيداً. ولكن إن بدلت رأيك يوماً ما، تذكر أين تجدني. ربما تعود إلى رشدك قبل فوات الأوان". ثم مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها بطاقتها ووضعتها بلطف في راحة يدي. "لا تفكر في التكاليف"، أضافت قائلة. "فإن كنت ملقياً على ظهرك عندما تتذكرني، اطلب من عامل الهاتف أن يسجل كلفة المكالمة عليّ".

لكنني لم أتصل بها قطّ. وضعت البطاقة في جيبي بنيّة الاحتفاظ بها، وعندما بحثت عنها ليلاً قبل أن آوي إلى النوم لم أجدها في أي مكان. فنتيجة تلك المعارك التي خاضها سروالي بعد الغداء مباشرة، لم يكن من الصعب عليّ معرفة ما حدث. كانت البطاقة قد سقطت مني، وإن لم تكن قد انتهت في كيس القمامة سلفاً فسوف تكون ملقاة على الأرض في الجناح ٤٠٩ في فندق رويال بارك.

كنت كالسيل الجارف في تلك الأيام، قادماً جديداً يهزم الجميع، أركب القطار السريع إلى المجد. قبل مضي أقل من سنة على لقائي بالسيدة ويذرسبون، ضربتُ ضربتي الكبيرة التالية عندما ذهبت إلى آرلنغتون في أحد مساءات أغسطس الحارة والرطبة وراهنت بألف دولار على فوز حصانٍ مغمور بالسباق الثالث. وإن أضفتُ قائلاً إن الحصان كان يحمل اسم "الصبي المعجزة"، ثم أضفتُ أيضاً أنني كنت لا أزال أسيرَ معتقداتي الخرافية القديمة، فلن يتطلب الأمرُ قارئاً ذهنياً ليفهمَ السبب وراء هذا الرهان اليائس. كنت أتصرّف بطريقة جنونية في تلك الأيام، وعندما تقدّم المُهر نصف طولٍ عند نهاية خط السباق أدركت أن هناك إلهاً في السماء وأنه يبتسم لي على جنوني ذلك.

مكّنتني تلك الأرباح من فعل ما كنت أرغب في فعله، وسرعان ما شرعت في تحويل حلمي إلى حقيقة. طلبت لقاءً خاصاً مع بينغو في شقته العلوية المطلة على بحيرة ميشيغان، وحالما انتهيت من عرض خطتي التي صدمته أعطاني الضوء الأخضر بشيء من التردد؛ ليس لأنه رأى في العرض مشروعاً تافهاً، بل أعتقد أن أمله خاب من طموحي المتواضع. كان يجهزني لاحتلال مكان في الدائرة الداخلية، وها أنا ذا أخبره أنني سأنفصل عنهم وأفتح ملهىً ليلياً وأكرس له طاقاتي كلها. كان بمقدوري أن أفهم احتمال تأويله لهذه الحركة كنوع من الخيانة،

وكان عليّ التعامل مع تلك المصيدة بخفة ومهارة. ولحسن الحظ، جاءت كلماتي في محلها في ذلك المساء، ومن خلال توضيحي له بأن الميزات التي سأتمتع بها ستعود عليه بالربح والمتعة فقد نجحت في انتزاع موافقته على الخطة.

"يمكنني تغطية المشروع كله بالأربعين ألف دولار التي في حوزتي"، قلت له. "يمكن لشخص آخر في مكان أن يدير ظهره ويمشي، لكنني لا أدير الأعمال التجارية بهذه الطريقة. أنت صديقي يا بينغو، وأريدك أن تستفيد من هذا المشروع أيضاً. لست بحاجة إلى دفع المال، أو العمل، أو تحمل المسؤوليات، ولكن مقابل كل دولار أكسبه سأعطيك خمسة وعشرين سنتاً. العدل هو العدل، صحيح؟ لقد منحتني فرصتي، وأنا الآن في موقع يمكّنني من ردّ الجميل لك. فالولاء مهم في هذا العالم، ولن أنسى من أين جاء حظي هذا في المقام الأول. لن يكون مكاناً صغيراً وشعبياً، بل مكاناً راقياً يضم مطعماً كبيراً يشرف عليه طاهٍ ماهر، ويقدم استعراضات جميلة، وتتجول فيه فتيات جميلات ومثيرات. سوف تشعر بالإثارة حالما تدخل إليه يا بينغو. سوف تحظى بأفضل طاولة في الملهى، وسوف تبقى طاولتك محجوزة لك حتى في الليالي التي لا تأتي فيها إلى الملهى، وبغض النظر عن الزبائن الذين ينتظرون في الخارج".

أصرّ على نسبة خمسين في المئة، لكنني كنت أتوقع بعض الأخذ والعطاء ولم أجادله في ذلك كثيراً. كان يهمني أن أنال موافقته، وقد حصلت عليها من خلال مجاملته وإسقاط دفاعاته بأسلوبي الوديّ، وفي النهاية – ولكي يعبر لي عن رقيّه – عرض عليّ أن يساهم بعشرة

آلاف دولار لدعم المشروع وإنجاحه. لم آبه لذلك. فكل ما كنت أريده هو هذا الملهى، ملهايَ الخاص، وعلى الرغم من نسبة الخمسين في المئة التي أصر عليها من الدخل إلا أنني كنت سأحقق ربحاً لا بأس به. كانت شراكته ستعود عليّ بمنافع كثيرة، ولم يكن بمقدوري المضي في ذلك المشروع من دونه. فمن شأن ذلك النصف الذي سيؤول إليه أن يؤمن لي الحماية من أومالي (الذي سيصبح الشريك الثالث بطبيعة الحال) ويُبعد عني رجال الشرطة. وإذا أضفت إلى ذلك علاقاته مع مجلس تجارة الكحول في مدينة شيكاغو، وشركات الصباغة التجارية، والوكلاء الفنيين المحليين، فإن خسارة الخمسين في المئة تلك تبدو شيئاً تافهاً في نهاية المطاف.

أسميتُ المكان "مستر فيرتيغوز". كان موقعه في قلب المدينة عند تقاطع "ويست ديفيجن" و"نورث لاسال"، وكانت آرمة النيون تتحول من اللون الزهري إلى الأزرق ثم إلى الزهري وتُظهر بشكل متعاقب فتاة راقصة ثم خلاط كوكتيل على خلفية السماء الليلية. كان إيقاع الرّومبا الذي تولده تلك الأضواء يسرّع دقات قلبك ويدفئ الدم في عروقك، وحالما يلتقط نبضك ذلك الإيقاع السحري فإنك لا ترغب في الخروج من دائرة الموسيقا تلك. وفي الداخل، كان الديكور عبارة عن مزيج من الفخامة والبساطة تشي بالرقي والراحة في الوقت نفسه. بذلت جهداً كبيراً في تهيئة ذلك الجو ودراسة كل تفصيل من تفاصيله: من أحمر شفاه فتاة الاستقبال إلى ألوان أطباق العشاء، ومن تصميم لوائح الطعام إلى جوارب الساقي. كان المكان يتسع لخمسين طاولة، ومرقصٍ فسيح، ومسرح مرتفع، وبار خشبي

طويل يمتد على طول حائط جانبي. أنفقتُ الخمسين ألف دولار كلها على تجهيز المكان بالطريقة التي أريدها، ولكن عندما افتُتح في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧، كان مثالاً على الجمال والكمال. أطلقت الملهى في واحدة من أعظم حفلات رأس السنة الجديدة في تاريخ شيكاغو، وفي الصباح التالي كان "مستر فيرتيغو" أحد معالم المدينة الترفيهية. وخلال الثلاث سنوات والنصف التالية كنت حاضراً هناك كل ليلة، أتجول بين الزبائن بسترتي البيضاء وحذائي الجلدي الفاخر وأنشر الفرح بابتساماتي المزهوة ومجاملاتي المعسولة. كان مكاناً مثالياً بالنسبة إليّ، وقد تمتعت بكل دقيقة قضيتها في ذلك الملهى المليء بالضجة والحيوية. ولو أنني لم أرتكب الحماقات وأدمّر حياتي، لكنت ربّما لا أزال هناك اليوم. لكن القدر شاء ألا تطول الأمور أكثر من ذلك. كنت مسؤولاً مئة بالمئة عن سقوطي ذاك، مع أنّ الإقرار لا يخفف من الألم الذي يصاحب الذكريات. كنت في القمة عندما تعثرت ووقعت، وانتهى بي الأمر إلى السقوط المريع والغرق في غياهب النسيان.

لكنني لست نادماً على شيء. فقد قضيت وقتاً ممتعاً مقابل الأموال التي أنفقتها. صار المكان المعلمَ الترفيهي الأول في شيكاغو، وكنت بطريقتي الصغيرة الخاصة شخصاً مشهوراً على غرار أولئك الأثرياء الذين يرتادون الملهى. كنت أجالس القضاة وأعضاء مجلس المدينة، ولاعبي الكرة، بالإضافة إلى فتيات الاستعراض اللواتي يتقدمن لتجارب الأداء للمشاركة في الاستعراضات المثيرة التي كنت أقدّمها في الحادية عشرة والواحدة من كل ليلة، عداك عن الليالي الحمراء

والمتع الحسية الكثيرة. كانت علاقتي بديكسي لا تزال قائمة عند افتتاح "مستر فيرتيغو"، لكن مغامراتي الكثيرة أودت بصبرها مما دفعها للانتقال إلى مكان آخر بعد ستة أشهر. ثم جاءت سالي، وبعدها جويل، ثم مجموعة كبيرة أخرى؛ سمراوات طويلات، وحمراوات مدخنات، وشقراوات بمؤخرات كبيرة. في إحدى الفترات كنت على علاقة مع فتاتين في الوقت نفسه؛ ممثّلتين عاطلتين عن العمل، كورا وبيلي، وأحببْتُ الاثنتين بالقدر نفسه. وبين الفينة والأخرى، كانت عاداتي تقود إلى مشاكل صحية متنوعة (مرض تناسلي، قمل عانة) لم تمنعني، مع ذلك، من العمل لوقت طويل. ربما كانت حياة فاسدة، لكنني كنت سعيداً بما آلت إليه الأمور، وكان طموحي الوحيد هو الاستمرار في ذلك النمط من العيش. ثم، في سبتمبر ١٩٣٩، بعد ثلاثة أيام فقط من اجتياح الجيش الألماني لبولندا، دخل ديزي دين إلى "مستر فيرتيغو"، ومن ثم بدأ كل شيء.

عليّ أن أعود إلى الوراء لأفسر ما حدث؛ إلى طفولتي الأولى في سينت لويس. هناك وقعت في غرام البيسبول، وقبل أن أبلغ الفطام كنت قد أصبحت أحد مشجعي فريق "كاردينالز"، أحد مشجعي "ريدبيردز" مدى الحياة. سبق أن تطرقت إلى سعادتي الغامرة عندما فازوا ببطولة العالم في البيسبول، لكن ذلك كان مثالاً واحداً على ولائي لهم، فبعد أن علّمني إيسوب القراءة والكتابة تمكنت من متابعة أخبار الفريق في الصحف اليومية الصباحية. فمن إبريل إلى أكتوبر لم تفُتني نتيجة واحدة، وكان بمقدوري استذكار متوسط الضربات لكل لاعب في الفريق، بدءاً باللاعبين البارزين من أمثال فرانكي

فريش وبيبر مارتن وانتهاءً باللاعبين الثانويين والاحتياط. كان هذا كله خلال الأيام الجميلة التي قضيتها مع المعلّم ياهودي، وقد استمر أثناء السنوات السيئة التي تلت. كنت أعيش كشبح، أجول البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عن خالي سليم، ولكن بغض النظر عن قسوة ظروفي وأوضاعي لم أتخلف عن متابعة أخبار فريقي. فقد فازوا بالبطولية في سنة ثلاثين وسنة واحد وثلاثين، وقد ساهم النصران في رفع معنوياتي وتمكيني من اجتياز تلك الأوقات العصيبة. وما دام الفريق يفوز في مبارياته، فالعالم بخير وليس هناك مكان لليأس في حياتي.

في هذا السياق يدخل ديزي دين إلى القصة. تراجع الفريق إلى المرتبة السابعة في عام اثنين وثلاثين، ولكن لم يكن لذلك أهمية كبيرة. فقد كان ديزي دين أهمَّ وألمع وأجرأ لاعب يشارك في المباريات النهائية، وقد حوّل نادياً بائساً إلى سيرك عظيم. وعلى الرغم من تبجّحه وروحه المرحة، فقد قدّم أجمل أداء شهدته ملاعب البيسبول. كانت ذراعه المطاطية سريعة كالبرق؛ وسيطرته مذهلة؛ وحركاته تنمّ عن تناغم هائل بين الذراعين والساقين والقوة وتولّد مشهداً في غاية الجمال. عندما انتقلت إلى شيكاغو وبدأت العمل مع بينغو، كان ديزي نجماً كبيراً واسماً لامعاً في المشهد الأميركي. أحبه الناسُ لعنجهيّته وموهبته، وتلاعبه باللغة الإنكليزية، وصخبه وحركاته الصبيانية الطائشة، وأحببته أنا أيضاً بقدر ما يمكن لأحد أن يحبه في هذا العالم. ومع تحسن أوضاعي المستمر، كنت أتابع مباريات الفريق في المدينة التي أعيش فيها. وفي سنة ثلاث وثلاثين، عندما حطم دين الرقمَ القياسي بسبع عشرة ضربة في مباراة واحدة،

صعد الفريق إلى الدرجة الأولى ثانيةً. كان لاعبون جدد قد انضموا إلى الفريق، وبوجود لاعبين شرسين من أمثال جو مادويك وليو دوروشر وريب كولينز أعطوا الفريق دفعة قوية كانت العصابة في أوج أدائها. ثم كانت سنة أربع وثلاثين، سنة المجد والتألق، ولا أظن أنني تمتعت بموسم رياضي في حياتي كلها كما تمتعت بذلك الموسم. ربح شقيق ديزي الأصغر بول تسع عشرة جولة، وربح ديزي ثلاثين جولة، وتمكن الفريق من التقدم على فريق "جاينتز"، بعد تأخره بعشر جولات، والفوز في البطولة. كانت تلك أول سنة ينقل فيها الراديو مباريات بطولة العالم، وقد استمعت إلى مجريات المباريات السبع في بيتي في شيكاغو. هزم ديزي فريق "تايغرز" في الجولة الأولى، وعندما قام فريش بإدخاله كلاعب بديل سريع في الجولة الرابعة تلقى ضربة قوية على رأسه أفقدته وعيه. وقد جاء في عناوين اليوم التالي: "الصور الشعاعية لرأس دين لا تكشف عن أية إصابات". عاد في اليوم التالي إلى اللعب وخسر، ولكن بعد يومين سحق فريق ديترويت ١١ – ٠ في الجولة النهائية، وكان يسخر من رماة فريق "تايغرز" بعد كل ضربة يفشلون في صدها. وقد طلعت الصحافة بمجموعة من الألقاب لتوصيف الفريق: العدّاؤون الأشرار، ومشاكسو مسيسيبي الهادرون، والكرادلة المشاغبون. كان أولئك الفتية يحبون السخرية من خصومهم، وعندما خرجت نتيجة الجولة النهائية عن السيطرة في الرميات الأخيرة بدأ مشجعو فريق "تايغرز" بضرب ميدويك بالخضار والفواكه في الجهة اليسرى من الملعب. وكانت الطريقة الوحيدة لإنهاء البطولة تقتضي تدخل القاضي لانديس، مفوّض كرة

القاعدة، وسحب ميدويك من الملعب قبل انتهاء الجولة.

بعد ستة أشهر، كنت أجلس في منصة مع بينغو والشباب عندما افتتح دين الموسم الجديد ضد فريق "كَبس" في شيكاغو. في الشوط الأول، أرسل رامي "كَبس"، المتخلف بنقطتين، ضربة لئيمة أصابت ديزي في ساقه وأسقطته على الأرض. توقف قلبي عن الخفقان عندما رأيت المسعفين يحملونه خارج الملعب، لكنه لم يُصب بأذىً دائم وعاد إلى اللعب بعد ذلك بخمسة أيام في بيتسبرغ وحقق فوزه الأول في ذلك الموسم. ثم استمرّ في تألقه سنة أخرى، لكن النهاية جاءت على يد فريق "كَبس" في سنة ١٩٣٥، فبعد تحقيق واحد وعشرين فوزاً مع انتهاء الموسم تمكّنوا من تجاوز "كاردينالز" وسرقة البطولة. عليّ الاعتراف بأنني لم آبه لذلك كثيراً. جنّ جنون المدينة لفوز فريقها، وكان أيّ مكسب لشيكاغو مكسباً للأعمال التجارية فيها، وأيّ مكسب للأعمال التجارية مكسباً لي أيضاً. اكتسبت خبرة كبيرة في المراهنات في تلك البطولة، ومع انتهاء تلك المعمعة كنت قد عززت موقعي إلى درجة دفعت بينغو إلى مكافأتي بعرين خاص بي.

من جهة أخرى، كانت تلك هي السنة التي بدأت تقلبات ديزي تؤثر فيّ بطريقة شخصية جداً. لم يكن هوَساً في ذلك الوقت، ولكن بعد هزيمته في الشوط الأول من الجولة الافتتاحية في ريغلي - بعد إصابة الرأس التي تلقاها في الدورة الرابعة والثلاثين - بدأت أشعر أن غيمةً تتلبّد حوله. ساءت الأمور أكثر عندما تيبّست ذراع شقيقه في سنة ست وثلاثين، لكن الأسوأ كان ما حصل في مباراة ضد فريق "جاينتس" في ذلك الصيف عندما أصابته كرة بيرجيس وايتهيد

السريعة فوق أذنه اليمنى. كانت الكرة سريعة وقوية جداً إلى درجة أنها ارتدت وطارت إلى الجانب الأيسر من الملعب. سقط دين ثانية، ومع أنه استعاد وعيه في غرفة تبديل الملابس بعد سبع أو ثماني دقائق أظهر التشخيصُ الأولي كسراً في الجمجمة. ثم تبيّن لاحقاً أن الكرة سببت ارتجاجاً دماغياً سيئاً تركه مشوشاً نحو أسبوعين متتاليين، ولو أن الكرة قد مالت قليلاً لنبتَ الرّبيع على دِمنته بدلاً من فوزه بأربع وعشرين جولة خلال ذلك الموسم.

في الربيع التالي، استمرّ بطلي هذا في إطلاق الشتائم والمشاكسة والعراك كما تقتضي طبيعته. فقد تسبب في مشادّات عنيفة بسبب رمياته المسنّنة، وتم تنبيهه لمحاولاته الخادعة في جولتين متتاليتين وقرر الاحتجاج في الملعب والإضراب عن اللعب، وعندما وقف أثناء إحدى الولائم ووصف رئيس الاتحاد الجديد بأنه محتال وأفّاق أثار ضجة كبيرة، وخاصة عندما رفض ديز التوقيع على وثيقة رسمية يعلن فيها تراجعه عن اتهامه ذاك. "لن أوقّع على أي شيء"، هذا ما قاله، ولم يترك أي خيار لفورد فريك سوى التراجع عن إيقاف دين عن اللعب. أحببته بسبب سلوكه الطائش ذاك، ولكن كان من شأن إيقافه أن يمنعه من اللعب في "دوري النجوم"، ولو أنه لم يرمِ الكرة في ذلك الاستعراض التافه لكان قد أجّلَ ساعة النهاية قليلاً.

لعبوا في واشنطن العاصمة في تلك السنة، واستهلّ ديزي مباريات الدوري. قدم أداءً سلساً في أول شوطين، وفي الشوط الثالث أعطى ضربة لديماجيو ودورة كاملة لغيريغ. وكان التالي إيرل آڤريل، وعندما أعاد مدافع كليڤلاند كرة دين إلى تلة الرامي، أسدلت فجأة الستارة

على أعظم رامٍ عرفه القرن. لم يبد الأمر سيئاً آنذاك. أصابته الكرة في قدمه اليسرى، ثم ارتدت إلى بيلي هيرمان الذي أعادها بنجاح. وعندما خرج ديزي من الملعب وهو يعرج، لم يُلقِ أحدٌ بالاً لذلك، حتى ديزي نفسه.

كانت تلك إصبع القدم المكسورة الشهيرة. فلو لم يتسرع بالعودة إلى اللعب، لتعافى ربّما بعد فترة وجيزة. لكن فريق "كاردينالز" كان في تراجع مستمر وكانوا بحاجة إليه في تلة الرامي، وقد أكد لهم ذلك الغبي أنه على ما يرام. كان يعرج مستعيناً بعكاز، وكانت إصبع قدمه متورمة ولم يتمكن من ارتداء حذائه، لكنه لبس زيّه وعاد إلى رمي الكرات. وعلى غرار الرجال العمالقة، كان ديزي دين يعتقد أنه خارق، وعلى الرغم من الألم الشديد الذي كان يعاني منه فقد استمر في رمي الكرات على مدى الأشواط التسعة. أرغمه الألم على تعديل رميته مما تسبب بضغط كبير على ذراعه. عانى من ألم في ذراعه بعد الجولة الأولى، ولكي يزيد الطين بلة استمر في رمي الكرات لشهرٍ آخر. وبعد ست أو سبع جولات تم إخراجه بعد ثلاث رميات فقط. كان ديز في حالة سيئة حينها، ولم يبقَ أمامه خيار سوى الجلوس على دكّة الاحتياط لبقية الموسم.

على الرغم من ذلك كله، لم يخطر ببال أحد من المشجعين في البلاد كلها أنه قد انتهى. اعتقد الجميع أن استراحة الشتاء الطويلة ستخلصه من الإصابة والألم، ومع حلول شهر أبريل سوف يعود كما كان من قبل. لكنه واجه صعوبات كبيرة في تدريبات الربيع ثم، وفي واحدة من أكبر المفاجآت في تاريخ الرياضة، تخلت عنه

سينت لويس لفريق "كَبس" مقابل ١٨٥ ألف دولار مع اثنين أو ثلاثة من اللاعبين الآخرين. كنت أعرف أن العلاقة بين دين ومدير الفريق برانتش ريكي لا تزال جيدة، لكنني عرفت أيضاً أن ريكي ما كان ليتخلى عنه إلا لثقته التامة بأن ذراعه لن تعود إلى ما كانت عليه. كنت سعيداً لانتقال ديزي إلى شيكاغو، لكنني أدركت في الوقت نفسه أن انتقاله ذلك يعني أنه قد وصل إلى نهاية الطريق. لقد تحققت أسوأ مخاوفي، وفي السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين أفلَ نجمُ أعظم رامٍ عرفه التاريخ.

مع ذلك، قدم دين بعض العروض الرائعة في سنته الأولى مع فريق "كَبس". كان قد مضى على افتتاح "مستر فيرتيغو" أربعة أشهر فقط عندما بدأ الموسم، لكنني تمكنت من مشاهدة المعلم ديز ثلاث أو أربع مرات وهو يقذف الكرة بذراعه المتهالكة. كانت هناك مباراة مبكرة ضد فريق "كاردز" لا أزال أذكرها جيداً؛ مباراة انتقامية كلاسيكية تواجه فيها زملاء قدامى، وقد حقق فوزاً كبيراً بالاعتماد على أساليب متنوعة. وفي أواخر الموسم، ومع محاولات الفريق الجاهدة للانتقال إلى المباراة التالية، فاجأ مديرُ فريق شيكاغو، غابي هارتنيت، الجميعَ بالدفع بديزي إلى الجولة الأولى المصيرية ضد فريق "بايرتس". كانت الجولة في غاية الإثارة؛ مزيجاً من الفرحة واليأس مع كل رمية، وقد تمكن دين من تحقيق الفوز لفريقه الجديد. ثم كاد أن يكرر تلك المعجزة التي حققها في الجولة الثانية من بطولة العالم، لكنّ لاعبي "يانكس" تمكنوا منه أخيراً في الجولة الثامنة، وعندما استمر الضغط في الجولة التاسعة وقرر هارتنت إراحته قليلاً،

غادر ديزي تلة الرامي وسط تصفيق هادر لم أشهد مثيلاً له في حياتي. وقف الجميع على أقدامهم وهم يصفقون ويهتفون ويصفرون له، واستمرت الهتافات العالية لوقت طويل طافت خلاله أعين البعض بالدموع.

كان ذلك بمثابة إيذانٍ بالنهاية. ينحني المحارب الفارس للمرة الأخيرة ثم تأفل شمسه الغاربة. كنت سأتقبل ذلك وأثني عليه أيضاً، لكن دين كان أغبى من أن يفهم ذلك ولم يدرك أنها هتافات الوداع. كانت هذه مشكلته؛ لم يكن ابن العاهرة يعرف متى يتوقف. رمى بكرامته جانباً وعاد إلى اللعب ثانية، وإن كان موسمُ سنة ثمانٍ وثلاثين بائساً – مع بعض الإشراقات هنا وهناك – فقد كان موسم سنة تسع وثلاثين عبارة عن ظلام تام. كانت ذراعه تؤلمه إلى درجة لم يعد معها قادراً على رمي الكرة. كان يجلس في دكّة الاحتياط معظم الوقت، وكانت اللحظات القليلة التي يقضيها في اللعب مصدر إحراج كبير. كان أداؤه في غاية السوء، ولم يكن حتى نسخة سيئة من ذاته القديمة. شعرتُ بمعاناته، وحزنت عليه، لكنني رأيت فيه أغبى شخص على وجه الأرض.

هكذا كانت الأمور عندما دخل إلى "مستر فيرتيغو" في سبتمبر. كان الموسم يشارف على النهاية، ومع خروج فريق "كَبس" من المنافسة لم يهتمّ أحد لدى ظهور دين في ليلة الجمعة المزدحمة تلك برفقة زوجته ومجموعة من أصدقائه وزوجاتهم. لم تكن لحظة مناسبة للخوض في حديث صريح حول مستقبله، لكنني ذهبت إلى طاولته ورحّبت بقدومه إلى الملهى. "يسعدني مجيئك يا ديز"، قلت

له وأنا أمدّ يدي لمصافحته. "أنا من سينت لويس أيضاً، وأنا أتابعك منذ البداية. طالما كنت المشجع رقم واحد".

"يسعدني ذلك أيضاً يا صديقي"، قال لي وهو يمسك بيدي الصغيرة في يده الضخمة ويهزها بمودة. ارتسمت على وجهه واحدة من تلك الابتسامات العريضة، ثم تغيرت ملامح وجهه فجأة. قطّب لوهلة وكأنه يبحث في ذاكرته عن شيء ضائع، وعندما فشل في العثور عليه أخذ يحدق ملياً في عينيّ على أمل أن يعثر عليه هناك. "أنا أعرفك، أليس كذلك؟" قال لي. "أعني، هذه ليست المرة الأولى التي نلتقي فيها. لكنني لا أذكر أين التقينا من قبل. منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟".

"لا أظن ذلك يا ديز. ربما لمحتني مرة في إحدى المباريات التي حضرتها لك، لكننا لم نلتقِ من قبل".

"اللعنة. يمكنني أن أقسم أنك لست غريباً عليّ. إنه ألعن شعور في العالم. ولكن لا بأس"، قال وهو يهز كتفيه ويبتسم. "لا يهم، على ما أظن. لديك مكان رائع هنا يا صديقي".

"شكراً يا بطل. الجولة الأولى من المشروب على حسابي. أرجو أن تقضي مع أصحابك وقتاً طيباً".

"لهذا أتينا إلى هنا يا صاحبي".

"تمتعوا بالعرض. وإن احتجت إلى أي شيء أخبرني".

تعاملت مع الموقف بهدوء شديد، وتركتهم وأنا اشعر أنني تصرفت بذكاء وحكمة. لم أتملّقه، وفي الوقت نفسه لم أسئ معاملته لسقوطه المريع ذاك. فقد كنتُ مستر فيرتيغو، المتمدن الأنيق الذي يتمتع

بلسان معسول ولباقة كبيرة، ولم أكن لأدع دين يشعر بالأثر الذي خلّفته أزمتُه فيّ. خففت رؤيته وجهاً لوجه من سحر هالته قليلاً، وفي الحالة الطبيعية ربما كنت فكرت فيه كمجرد شخص لطيف آخر لم يحالفه الحظ. لماذا أهتم لأمره؟ كان ديزي ويزي في طريقه إلى الأفول، وبعد وقت قصير سوف أقلع عن التفكير فيه. لكن الأمور لم تحدث بهذه الطريقة. كان دين هو المسؤول عن إحياء تلك العلاقة، ومع أنني لن أتظاهر بأننا صرنا صديقين حميمين فقد بقي قريباً مني إلى درجة حالت دون نسياني له. ولو أنه مضى في طريقه كما ينبغي له لما آلت الأمور إلى كل ذلك السوء.

لم أره بعد ذلك حتى انطلاق الموسم التالي. كان ذلك في أبريل ١٩٤٠، وكانت الحرب في أوجها في أوروبا، وكان ديزي قد عاد؛ عاد من فشلٍ ذريع آخر في إحياء مجده القديم. وعندما أمسكت بالصحيفة وقرأت أنه وقع عقداً آخر مع فريق "كَبس"، علقت سندويشة السلامي في حلقي. على من يضحك؟ "لم يعد ذلك الهزيل ما كان عليه في السابق"، قال، لكنه مولع باللعبة إلى درجة تدفعه إلى المحاولة مرة أخرى. حسناً أيها المعتوه، قلت في نفسي، لنرَ إن كنت سأبدي أي اهتمام. فإن كنت تريد أن تذل نفسك أمام العالم كله، فهذا شأنك أنت، لكنني لن أتعاطف معك أو أحزن عليك.

ثم، ومن غامض علم الله، عاد إلى الملهى في إحدى الليالي وسلّم عليّ وكأنني صديق قديم. لم يكن دين ممن يتعاطون الكحول، ولذلك فإن ما فعله لم يكن تحت تأثير السكر، لكن وجهه أشرق عندما رآني، وخلال الدقائق الخمس التالية أغدق عليّ جرعة كبيرة

من المودة واللطف. ربما كان لا يزال يعتقد أننا على معرفة قديمة، أو ربما اعتقد أنني شخص مهم، لا أدري، لكن الواضح أنه كان في غاية السعادة لرؤيتي ثانية. كيف تقاوم شخصاً كهذا؟ فعلت كل ما في وسعي لأقسّي قلبي تجاهه، لكنه جاءني بفيض من المحبة والود ولم يسعني إلا أن أرحّب وأهتم به. كان لا يزال دين العظيم، في نهاية المطاف؛ توأم روحي، وقريني، وحالما فتح ذراعيه لي بتلك الطريقة، سرعان ما وقعتُ في فخّ ذلك السحر القديم.

لن أقول إنه أصبح زبوناً دائماً في الملهى، لكنه كان يتردد عليه خلال الأسابيع الستة التالية بشكل تجاوزت علاقتنا فيه ذلك النوع من المعرفة العابرة. جاء وحيداً بضع مرات ليتناول العشاء (كان يُغرق كل طبقٍ بصلصة اللحم الشهية)، وكنت أجلس وأحادثه وهو يتناول طعامه. تفادينا الحديث عن البيسبول وركزنا على سباقات الأحصنة، وبعد أن أعطيته بعض النصائح الممتازة حول المراهنات، بدأ يستمع لنصائحي التي أقدمها له. كان عليّ أن أبوح له عندها برأيي في عودته إلى الملاعب، ولكن حتى بعد تخبّطه في بدايات الموسم وإذلاله لنفسه في كل مرة كان يدخل فيها إلى الملعب لم أنبس بكلمة واحدة. كنت قد تعلقت به جداً حينها، وفي خضم محاولاته التعسة تلك لإثبات جدارته لم أتمكن من مصارحته بالحقيقة.

بعد نحو شهرين، أقنعَته زوجته بات بالانتقال إلى فريق الشباب للتدرب على أسلوب جديد في رمي الكرة. كانت الفكرة هي أنه سيحرز تقدماً أفضل بعيداً من الأضواء؛ لكنها كانت مجرد محاولة عبثية، فكلّ ما أثمرت عنه هو تعزيزها لوهم الأمل المتبقي له. وعند

ذلك استجمعت شجاعتي وأبديت رأيي في الموضوع، لكنني لم أجرؤ على قول رأيي بصراحة تامة.

"ربما حان الوقت يا ديز"، قلت له. "ربما حان الوقت لتنتهي من هذا وتعود إلى المزرعة".

"نعم"، قال لي بيأس وحزن كبيرين. "ربما أنت على حق. لكن المشكلة أنني لا أجيد أي شيء سوى رمي الكرات. لقد فشلت هذه المرة، وأنا في وضع مزرٍ الآن يا وولت. أعني، ماذا يمكن لفاشل بائس مثلي أن يفعل بنفسه؟".

الكثير من الأشياء، فكرت في نفسي، ثم غادر في ذلك الأسبوع إلى تولسا. لم يسبق لعظيم مثله أن سقط بتلك الطريقة وتلك السرعة. أمضى صيفاً طويلاً وبائساً في "دوري تكساس"، في تلك الدوائر الترابية التي سبق له أن أبادها بكراته السريعة قبل عشر سنوات. وفي هذه المرة لم يكن قادراً على إصابتها وتطايرت كراته في كافة أرجاء الملعب. فسواء لجأ إلى أسلوبه القديم أو الجديد في رمي الكرة، كانت النتيجة واضحة، لكن ديزي مضى في ما يفعله دون أي تراجع. وحالما يستحم ويرتدي ثيابه ويغادر الملعب، كان يعود إلى غرفته في الفندق برزمة من أوراق المراهنة ويبدأ الاتصال بوكلاء المراهنات. توليت عدداً من عمليات مراهناته في ذلك الصيف، وفي كل مرة كان يتصل فيها كنا نتبادل الأحاديث والأخبار. ما أذهلني حقاً هو تقبّله الهادئ للحالة المذلة التي آل إليها. لقد حول الرجل نفسه إلى محط للسخرية، لكنه حافظ على توازنه وحسّ دعابته المعتاد. ما الفائدة من الكلام والنقاش؟ اعتقدتُ أن الأمر الآن أصبح مسألة وقت فقط،

ولذلك جاريتُه في ما يفعله واحتفظت بأفكاري لنفسي. فعاجلاً أم آجلاً سوف يرى النور.

استدعاه فريق "كَبس" في سبتمبر. أرادوا أن يعرفوا إن كانت تجربته مع فريق الشباب قد أثمرت عن شيء، ومع أن أداءه لم يكن مشجعاً إلا أنه لم يكن بذلك السوء المتوقع. كان أداءً عادياً؛ فوزان صعبان، وهزيمتان ساحقتان، وهنا جاء الفصل الأخير من الحكاية. فاستناداً إلى منطق أعوج وغبي، قررت إدارة الفريق أن دين قد استعاد بعضاً من مهاراته القديمة بشكل يؤهله إلى المشاركة في موسم جديد وقرروا استدعاءه ثانية. لم أعرف بالعقد الجديد إلا بعد أن غادر المدينة للمشاركة في الموسم الشتوي، ولكن عندما علمت به ولعت النار في رأسي أخيراً. كتمتُ غيظي لشهر. غضبتُ وقلقتُ وحزنت، ومع حلول الربيع أدركتُ ما عليّ أن أفعله. ولم يكن أمامي أي خيار آخر. فقد اختارني القدر أداة له، وعلى الرغم من بشاعة المهمة الموكلة إليّ، فإنقاذ ديزي كان الهدف الوحيد. وإن كان عاجزاً عن إنقاذ نفسه، فعليّ أنا أن أتدخّل وأعمل على إنقاذه.

حتى الآن، أجد صعوبة كبيرة في تفسير نشوء فكرة شريرة كهذه في رأسي. اعتقدت أن من واجبي إقناع ديزي دين بأنه لم يعد يرغب في العيش. يبدو الأمر ضرباً من الجنون، ولكن هذه هي الطريقة التي طلعت بها لإنقاذه؛ من خلال إقناعه بقتل نفسه. يكشف هذا، من بين أشياء أخرى، عن مدى التشوه الروحي الذي لحق بي خلال السنين التي تلت موت المعلّم ياهودي. كنت قد تعلقت بديزي لأنه ذكّرني بنفسي، وما دام متألقاً في أدائه كان بمقدوري أن أعيش من

جديد مجديَ الغابر من خلاله. ربما ما كان لذلك أن يحدث لو أنه كان يلعب لمصلحة فريق غير سينت لويس. ربما ما كان لذلك أن يحصل لو أن لقبينا لم يكونا متشابهين. لا أعرف. لا أعرف أي شيء، ولكن في حقيقة الأمر جاءت لحظة لم أعد أستطيع فيها التمييز بيننا نحن الاثنين. كانت انتصاراته انتصاراتي، وعندما ساء حظه أخيراً وتهاوى أداؤه كله، كان عارُه عاريَ أيضاً. لم أقوَ على تحمّل ذلك مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً بدأت أفقد السيطرة على نفسي. كان على ديزي أن يموت لمصلحته هو، وكنت أنا الرجلَ الذي يحثه على اتخاذ القرار الصحيح. ليس لأجله هو فقط، بل لأجلي أنا أيضاً. كنت أمتلك السلاح، وكنت أمتلك الحجة القوية، وكنت أمتلك الجنون الكافي. سوف أدمر ديزي دين، ومن خلال ذلك سأدمر نفسي أخيراً.

استهلّ فريق "كَبس" المباراة الافتتاحية في شيكاغو في العاشر من أبريل. اتصلت بديز في ذلك المساء وطلبت منه زيارتي في مكتبي بحجة حدوث شيء طارئ. حاول الاستفسار عما حصل لكنني أخبرته أن الأمر مهم جداً ولا يمكننا مناقشته على الهاتف. فإن كنت مهتماً بعرضٍ من شأنه أن يقلب حياتك رأساً على عقب، قلت له، تعالَ إلى مكتبي. كان مرتبطاً حتى بعد وقت العشاء، فحددنا الموعد في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. دخل متأخراً خمس عشرة دقيقة فقط بمشيته المتأرجحة وفي فمه نكاشة أسنان يقلّبها بلسانه. كان يرتدي بزة صوفية زرقاء وقبعة كاوبوي صفراء، ومع أنه اكتسب بضعة أرطالٍ منذ أن رأيته آخر مرة إلا أنه بدا نشيطاً بعد ستة أسابيع تحت شمس "دوري كاكتس". وكالعادة، كان يبتسم وهو يدخل

إلى المكتب، وأمضى أول دقيقتين وهو يتحدث عن مظهر الملهى في النهار عندما يكون خالياً من الزبائن. "يذكرني بملعب بيسبول فارغ"، قال لي. "مخيف بعض الشيء. صامت كالقبر، لكنه أكبر بكثير".

طلبت منه الجلوس وقدمت له كأساً بارداً من البيرة من الثلاجة الصغيرة خلف مكتبي. "لن يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق"، قلت له، "ولا أريدُك أن تشعر بالعطش أثناء حديثنا هذا". شعرت بيدي ترتجفان، فسكبت لنفسي قدحاً من الويسكي وأخذت رشفتين منه. "كيف حال الجناح أيها العجوز؟" قلت له وأنا أجلس في الكرسي الجلدي وأحاول التظاهر بالهدوء.

"كما كان من قبل. أشعر كأن عظمة تخرج من كوعي".

"لقد تعرّضت لإصابات قوية أثناء تدريبات الربيع، كما سمعت".

"كانت مجرد تمارين، وهي ليست ذات أهمية".

"أكيد. بانتظار الجولات المهمة، صحيح؟".

التقط السخرية في صوتي وهز كتفيه بطريقة دفاعية، ثم أخرج علبة السجائر من جيب قميصه. "حسناً، أيها الرجل الصغير"، قال لي، "ما الأمر؟". سحب سيجارة من العلبة وأشعلها ثم نفث الدخان الكثيف نحوي. "من الطريقة التي تحدثت فيها على الهاتف، بدا الأمر كأنه مسألة حياة أو موت".

"وهو كذلك. هكذا هو الأمر بالضبط".

"كيف ذلك؟ هل حصلت على براءة اختراع طبي أو شيء من هذا القبيل؟ فإن طلعت بدواء جديد يشفي الأذرع المصابة يا وولت،

سوف أعطيك نصف مدخولي خلال السنوات العشر القادمة".

"لدي شيء أفضل من ذلك يا ديز. ولن يكلفك سنتاً واحداً".

"لكل شيء كلفته يا صاحبي. هذا هو قانون البلاد".

"أنا لا أريد مالَك. أريد أن أنقذك يا ديز. دعني أساعدك، وسوف يتلاشى كل ذلك العذاب الذي عشته خلال السنوات الأربع الأخيرة".

"حقاً؟" قال لي وهو يبتسم وكأنني حكيت له طرفة مسلية. "وكيف ستفعل ذلك؟".

"بالطريقة التي تريدها. الطريقة ليست مهمة. الشيء الوحيد المهم هو أن تتجاوب معها، وأن تفهم السبب الكامن وراءها".

"لا أفهمك يا بني. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه".

"قال لي رجلٌ عظيم مرة: 'عندما يصل الرجل إلى نهاية الطريق، فالشيء الوحيد الذي يرغب فيه هو الموت'. هل تفهم الآن؟ سمعت تلك الكلمات قبل زمن طويل، لكنني كنت على درجة من الغباء فلم أتمكن من فهمها. لكنني أعرف الآن، وسأقول لك شيئاً يا ديز؛ إنها صحيحة. إنها أصحّ كلمات قالها أيّ رجل".

انفجر دين ضاحكاً. "أنت ولد غريب يا وولت. لديك حس دعابة موروب لا يفارقك أبداً. وهذا ما يجعلني أحبّك بهذا القدر. لا أحد في هذه المدينة يطلع بالأشياء الجريئة التي تأتي بها".

تنهدتُ لغباء الرجل. كان التعاطي مع مهرج من ذلك النوع عملاً شاقاً، ولم أكن أريد لصبري أن ينفد. أخذت رشفة أخرى من كأسي، ثم مضمضتُ السائلَ في فمي قليلاً وبلعته.

"اسمع يا ديز"، قلت له. "كنت في وضعك هذا من قبل. فقبل

اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، كنت أتربع على عرش العالم. كنت الأفضلَ في ما أفعله، في مرتبة لا يطالها أحد. واسمح لي أن أقول لك إن ما أنجزتَه في ملاعب البسيبول لا شيء مقارنة بما كنت قادراً على فعله. فمقارنة بي، أنت لست سوى مسخ، أو حشرة، أو بقّةٍ لعينة في البساط. هل تسمع ما أقوله لك؟ ثم، وببساطة شديدة، حدث شيء ما منعني من الاستمرار. لكنني لم أتمسّك بعملي وأستجدِ تعاطف الآخرين؛ لم أجعل من نفسي محطاً للسخرية. أقلعت عن عملي، ثم صنعت لنفسي حياة أخرى. وهذا ما كنت آمل وأصلّي أن يحدث لك أيضاً. لكنك لا تفهم، أليس كذلك؟ فدماغك السميك المحشو بخبز الذرة ودبس القصب والشمندر عاجز عن فهم ذلك".

"انتظر ثانية"، قال ديزي وهو يلوح بإصبعه نحوي وقد ارتسمت على وجهه إشراقة مفاجئة وغير متوقعة. "انتظر ثانية فقط. الآن أعرف من أنت. اللعنة، كنت أعرف ذلك منذ البداية. أنت ذلك الصبي، أليس كذلك؟ أنت ذلك الصبي اللعين. وولت... الصبي المعجزة وولت. يا إلهي. أخذنا أبي أنا وبول وإلمر مرة إلى المهرجان في أركنسو، ورأيناك تقوم بحركاتك تلك. كانت شيئاً خارقاً. طالما تساءلت ماذا حلّ بك. وها أنت ذا تجلس قبالي. لا يمكنني أن أصدق ذلك".

"صدّق يا صديقي. فعندما قلت لك إنني كنت عظيماً، عنيتُ أنني كنت عظيماً بشكل استثنائي وفريد. كشهابٍ يعبر السماء".

"كنتَ عظيماً بالفعل، أعترف بذلك. أعظم شيء رأيته في حياتي".

"وأنت كذلك، أيها الرجل الكبير. الأعظم على الإطلاق. لكنك انتهيت الآن، ويحزنني أن أرى ما تفعله بنفسك. دعني أساعدك يا

ديز. الموت ليس بهذه الفظاعة. فالجميع يموتون في وقت ما، وحالما تعتاد على الفكرة، سوف تكتشف أن موتك الآن أفضل منه في وقت لاحق. فإن منحتني الفرصة، يمكنني أن أوفر عليك العار. يمكنني أن أعيد كرامتك إليك".

"أنت جاد في ما تقوله، أليس كذلك؟".

"أنا جاد بالتأكيد. أنا في غاية الجدية".

"أنت مجنون يا وولت. لقد فقدت عقلك تماماً".

"دعني أقتلك، وسوف تضيع السنوات الأربع الأخيرة في غياهب النسيان. ستعود عظيماً أيها البطل. ستبقى عظيماً إلى الأبد".

تسرّعتُ كثيراً. لقد هز كياني بكلامه عن الصبي المعجزة، وعوضاً عن المناورة وتعديل خطتي قررت الهجوم بسرعة جنونية. كنت أريد أن أضغط عليه ببطء وبشكل تدريجي، أن أهدّئه بالحجج والبراهين الدامغة على أمل أن يصحو من تلقاء نفسه. كان ذلك هو الهدف؛ ألا أرغمه على فعل ذلك، بل أن أجعله يرى بنفسه الحكمة التي تنطوي عليها الخطة. كنت أريده أن يريد ما أريده أنا، أن يقتنع بعرضي ويستجديني أن أنفّذ ما خططت له، لكن كل ما فعلته أنني تجاوزتُه وأخفتُه بتهديداتي وترّهاتي غير الناضجة تلك. لا غرابة في اعتقاده بأنني جننت. فقدتُ السيطرة على الموقف كله، والآن، في اللحظة التي كان يجب أن تشكل نقطة البداية فقط، كان قد وقف سلفاً وتوجّه نحو الباب.

لم يقلقني ذلك. كنت قد أقفلت البابَ من الداخل، ولا يمكن فتحه من دون المفتاح الذي كنت أحتفظ به في جيبي. ومع ذلك،

لم أرده أن يسحب المسكة ويهز إطار الباب. كان من المحتمل أن يبدأ بالصراخ عليّ لكي أفتح الباب وأسمح له بالخروج، ومع وجود مجموعة من الموظفين الذين يعملون في المطبخ في تلك الساعة كانت الضجة ستجعلهم يهرعون إلى المكتب لمعرفة ما يجري. ولذلك حصرتُ تفكيري في تلك النقطة الصغيرة وتجاهلتُ التداعيات الأكبر؛ فتحت درج مكتبي وأخرجتُ مسدس المعلم. كانت تلك هي الغلطة التي أودت بي. فعندما صوّبتُ المسدس نحو ديزي، تجاوزت الحد الفاصل بين الثرثرة والجرائم التي يعاقب عليها القانون، ولم يعد بالإمكان إيقاف ذلك الكابوس الذي صنعته بنفسي. لكن المسدس كان مهماً، أليس كذلك؟ كان محور العملية كلها، وكان عليه أن يخرج من ذلك الدرج في وقت أو آخر. اضغطْ على الزناد واقتلْ ديزي، ثم عُدْ إلى الصحراء وقمْ بما لم تقم به. اجعله يتوسل الموت بالطريقة التي توسّله المعلّم ياهودي، ثم صوّب الخطأ من خلال استجماع شجاعتك على الفعل.

لا شيء من ذلك يهم الآن. كنت قد اتخذت قراري عندما وقف ديزي، ولم يكن إخراج المسدس أكثر من محاولة يائسة لحفظ ماء الوجه. أقنعته بالعودة والجلوس في الكرسي، وخلال الخمس عشرة دقيقة التالية جعلته يتعرّق أكثر مما كنت قد خططت له. فعلى الرغم من زهوه وحجمه، كان دين جباناً عندما يتعلق الأمر بالعراك الجسدي؛ فكلما نشأ عراك ما، كان يسارع إلى الاختباء خلف أقرب قطعة أثاث يراها. كنت أعرف ذلك عنه مسبقاً، لكن المسدس بثّ فيه رعباً أكبر مما توقعت. فقد جعله يبكي، وبينما كان يجلس هناك

وينوح في كرسيه كدتُ أن أضغط على الزناد لإيقاف نواحه وعويله. كان يستجديني لأُبقي على حياته؛ ليس لكي أقتله، بل لكي أبقي على حياته، وكان الأمر معكوساً تماماً ومختلفاً تماماً عما تخيّلته إلى درجة لم أعد أعرف معها ما عليّ فعله. كان يمكن لذلك الموقف أن يدوم طوال اليوم، ولكن عندها، حوالي الظهر، قرع أحدٌ الباب. كنت قد أعطيت تعليماتي بألا يزعجني أحد، لكنّ أحداً كان يقرع الباب.

"ديز؟" قال صوت امرأة. "هل أنت في الداخل يا ديز؟".

كانت زوجته بات؛ امرأة مُتأمّرة وحازمة. جاءت لتصحب زوجها إلى موعد على الغداء في مطعم "ليملز"، وبالطبع كان ديزي قد أخبرها أين تجده، وهو تفصيل آخر نسيت التفكير فيه. اقتحمت ملهايَ بحثاً عن بعلها الدجاجة، وعندما حاصرت الشيف في المطبخ (والذي كان مشغولاً بتقطيع البطاطا والجزر)، أخذت تتمايَع وتتغالظ عليه إلى أن باح لها بمكاني. صعد بها على الدرج ثم نزلا إلى الصالة، وهكذا وصلت إلى باب مكتبي وأخذت تطرق عليه بعنف وغضب.

باستثناء زرع رصاصة في رأس ديزي، لم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً سوى إعادة المسدس إلى مكانه وفتح الباب. سوف ينفضح كل شيء بالتأكيد، إلا إذا قرر الرجل الكبير أن يغطي عليّ ويلعب دور الماما. لعشر ثوانٍ، كانت حياتي تتدلّى من ذلك الخيط الرفيع؛ فإن شعر بالإحراج وقرر ألّا يُفصح عن الخوف الذي اعتراه، فسوف يتكتّم على ما حصل. ابتسمت ابتسامة حارة ولطيفة عندما دخلت السيدة دين إلى الغرفة، لكن زوجها اللعين باح بكل شيء لحظة وقعت

عيناه عليها. "هذا الوغد الصغير كان سيقتلني!" قال لها بصوت حاد وعالٍ. "كان يصوّب مسدساً على رأسي، وكان الوغد الصغير سيطلق النار عليّ".

تلك كانت الكلمات التي أخرجتني من عمل الملاهي الليلية. فعوضاً عن الذهاب إلى مطعم "ليملز" لتناول الغداء، خرجت بات وديزي من مكتبي وتوجّها مباشرة إلى مخفر الشرطة لتقديم شكوى ضدي. قالت لي بات إنها ستفعل ذلك عندما صفعت الباب في وجهي، لكنني لم أحرك ساكناً. جلستُ خلف مكتبي وتعجّبتُ من غبائي وحاولت استجماع أفكاري قبل أن يأتي الثيران ويشحطوني. جاؤوا قبل مرور ساعة كاملة، وذهبت معهم بصمت وأخذت أبتسم وألقي النّكات وهم يضعون القيود حول معصميّ. لولا بينغو، كنت قد قضيت سنوات في السجن بسبب حركتي التافهة تلك التي لعبت فيها دور الله، ولكن كانت له علاقاته المهمة، وقد تم عقد صفقة قبل تحويل القضية إلى المحكمة. كانت صفقة عادلة. ليس بالنسبة إليّ فقط، بل بالنسبة إلى ديزي أيضاً. ما كانت المحاكمة لتفيده في شيء - بكل تلك الأقاويل والفضائح التي يمكن أن تسببها - وكان سعيداً بقبول التسوية التي تمت. أعطاني القاضي خياراً. الاعتراف باقتراف جنحة أخفّ والحبس لمدة تتراوح بين ستة وتسعة أشهر في سجن "جولييت"، أو مغادرة شيكاغو والانضمام إلى الجيش. وقد قررتُ الخروج من الباب الثاني. لم أكن أرغب في ارتداء الزي العسكري، لكنني قررت أن وجودي في شيكاغو لم يعد ذا معنى وأن الوقت قد حان للانتقال إلى مكان آخر.

كان بينغو قد توسّط لي عند أشخاص متنفذين ودفع الرّشى كيلا أدخل إلى السجن، لكن ذلك لا يعني أنه كان متفهّماً لفعلتي تلك. اعتقد أنني مجنون، مجنون بنسبة تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمئة. فقتْلُ شخص من أجل المال شيء، ولكن أي معتوهٍ ذاك الذي يهدد حياة كنز قومي مثل ديزي دين؟ يجب أن تكون مجنوناً تماماً لكي تخطط لشيء كهذا. ربما كنت مجنوناً تماماً، قلت له، ولم أحاول تفسير الحماقة التي ارتكبتها. فليعتقد ما يريد ولتنتهِ الأمور عند ذلك الحد. كان هناك ثمن عليّ أن أدفعه بالطبع، لكنني لم أكن في موقع يسمح لي بالمجادلة. فمقابل الخدمات التي قدّمها لي، وافقتُ على التنازل عن حصتي في الملهى له. كانت خسارة "مستر فيرتيغو" صعبة عليّ، ولكن ليس بصعوبة التخلي عن العروض التي كنت أقدمها في ما مضى، وليس بعُشر صعوبة خسارتي للمعلم ياهودي. لم أعد شخصاً مميزاً الآن. عدتُ إلى ذاتي القديمة ثانية: وولتر كليربورن رولي، جندي في السادسة والعشرين من العمر بشعر قصير وجيوب فارغة. أهلاً بك في العالم الحقيقي يا صاحبي. أعطيت بزّاتي لسائقي الباصات، وودعت صديقاتي، ثم صعدت إلى قطار الحليب متوجهاً إلى معسكر التدريب. وبالنظر إلى ما كنت سأخلفه ورائي، أعتقد أنني كنت محظوظاً.

لكن ديزي اختفى أيضاً. اقتصر موسمُه على مباراة واحدة، فبعد أن هُزم على أيدي لاعبي بيتسبرغ في ثلاث جولات من الشوط الأول، قرر أخيراً أن يترك اللعب. لا أدري إن كانت محاولتي المخيفة قد فتحت عينيه على الحقيقة، لكنني شعرت بالسعادة عندما قرأت عن

قراره ذاك. قدم له فريق "كَبس" عملاً كمدرب للقاعدة الأولى، ولكن بعد شهر فقط حصل على عرض أفضل من "شركة فولستاف لصناعة الكحول" في سينت لويس وعاد إلى مدينته القديمة ليعمل معلّقاً إذاعيّاً على مباريات "براونز" و"كاردينالز". "إن هذا العمل لن يغير فيّ شيئاً"، صرّح ديز قائلاً. "سوف أكون صريحاً وواضحاً كما كنت دائماً". لا يمكنك إلّا أن تقدر له ذلك. وقد أعجب الجمهورُ بذلك الهراء الذي كان يطلقه عبر الأثير، وحقّق نجاحاً كبيراً في عمله ذاك إلى درجة أنهم احتفظوا به على مدى خمس وعشرين سنة. لكن هذه قصة أخرى، ولا يمكنني القول إنني اهتممت بمتابعة أخباره بعد ذلك. فحالما غادرت شيكاغو، لم يعد ذلك كله يعنيني في شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الرابع

لم يمكّنني نظري الضعيف من الالتحاق بمدرسة الطيران، فأمضيت السنوات الأربع التالية وأنا أزحف في الوحل. ثم صرت خبيراً في سلوكيات الدود والمخلوقات الأخرى التي تزحف على الأرض وتقتات على الجلد البشري. قال القاضي إن الجيش سيصنع مني رجلاً، فإن كان أكل القذارة ورؤية أطراف الجنود وهي تتطاير عن أجسادهم إثباتاً على الرجولة، أعتقد أن الأستاذ المبجل تشارلز ب. مَكغافين كان محقاً في ما قاله. ومن ناحيتي أنا، من الأفضل ألا أسترسل كثيراً حول تلك السنوات. في البداية، فكرتُ جدياً في ترك الخدمة لأسباب صحية، لكنني لم أجد الشجاعة الكافية للإقدام على تلك الخطوة. كانت خطتي تقتضي الارتقاء في الهواء سرّاً بهدف تحريض هجمات عنيفة من الألم تدفعهم إلى إعادتي إلى موطني. لكن المشكلة أنني لم أعُد أمتلك موطناً أعود إليه، وحالما قلّبت الموضوع في رأسي قليلاً أدركتُ أن القتال أفضل من ذلك العذاب اللعين الذي تسبّبه آلام الرأس تلك.

لم أكن جنديّاً متميزاً، لكنني لم أجعل من نفسي محطاً للسخرية أيضاً. كنت أقوم بعملي، وأتفادى المشاكل، وأحمي نفسي من القتل. وعندما أعادونا أخيراً في نوفمبر ١٩٤٥، كنت منهكاً وعاجزاً عن التفكير في المستقبل أو رسم الخطط. تنقلت من مكان إلى آخر طوال ثلاث أو أربع سنوات، خاصّةً في شمال وجنوب الساحل

الشرقي. كانت أطول فترة أقضيها في بوسطن. عملت ساقياً في أحد البارات هناك، وقمت بتدعيم دخلي بالمراهنة على الأحصنة والمشاركة في لعبة بوكر أسبوعية في صالة سبيرو للبلياردو في نورث إند. كان اللعب عن مبالغ متوسطة، ولكن إن تمكنت من الفوز بشكل متواصل فيمكنك أن تجمع مبلغاً لا بأس به. وعندما كنت على وشك التوصل إلى صفقة لفتح مكان خاص بي، خانني حظي وتراكمت عليّ الديون، فتركت المدينة هرباً من حيتان القروض الذين كنت أدين لهم بالمال. من هناك، ذهبت إلى لونغ أيلاند وحصلت على وظيفة في أعمال البناء. كانت تلك السنوات تشهد توسع الأحياء السكنية حول المدن، فذهبت حيث يوجد المال وقمت بدوري في تغيير الطبيعة وتحويل العالم إلى ما يبدو عليه اليوم. كل تلك المنازل الريفية والحدائق الأنيقة والأشجار الرفيعة الملفوفة بالخيش؛ أنا من وضعها هناك. كان عملاً بائساً، لكنني واظبت عليه لثمانية أشهر متواصلة. وفي مرحلة ما، لأسباب لا يمكنني شرحها، أذعنت لفكرة الزواج. لم يدم أكثر من نصف سنة، وتبدو لي تلك التجربة غائمة الآن إلى درجة أنني عاجز عن تذكّر شكل زوجتي. فإن لم أفكر ملياً في الأمر، يصعب عليّ أن أتذكّر اسمَها.

لم أعرف ما هي مشكلتي. طالما كنت سريعاً، أستغل الفرص وأحولها إلى مصلحتي، لكنني كنت أشعر بالإنهاك والتراخي والعجز عن اللحاق بركب الأحداث. كان العالم يمرّ بي، وكان أغرب ما في الأمر تجاهلي لذلك كله. لم تكن لدي أية طموحات. لم أكن منكبّاً على تأسيس شيء ما، ولم أكن أبحث عن المغامرة. كنت أبحث

عن الهدوء والسكينة فقط وكسب سبل العيش والذهاب إلى حيث يأخذني العالم. سبق لي أن حلمتُ أحلامي الكبرى، لكنها لم توصلني إلى أي مكان. والآن أصبحْتُ منهكاً وعاجزاً عن اجتراح أحلام جديدة. فليحمل أحدٌ آخر الكرة كنوع من التغيير. لقد أسقطتها من يدي منذ زمن بعيد، ولم تكن تستحق الانحناء والتقاطها من جديد.

في سنة ١٩٥٠، قطعتُ النهرَ وعشت في شقة رخيصة في نيوارك، في نيو جيرسي، وبدأت عملي التاسع أو العاشر منذ نهاية الحرب. قامت "شركة ميرهوف للمعجنات" بتوظيف مئتي شخص، وخلال ثلاث نوبات، تمتد كل منها على مدى ثماني ساعات، كنا نُنتج جميع أنواع المعجنات التي يمكن للمرء أن يتخيّلها. كانت هناك سبعة أنواع من الخبز وحده: الخبز الأبيض، وخبز الشعير، وخبز القمح الكامل، وخبز الجاوَدار، وخبز الزبيب، وخبز الزبيب والقرفة، والخبز الباڤاري الأسود. أضف إلى هذا اثني عشر نوعاً من الكعك، وستة أنواع من الدونَت، زائد أصابع الخبز، والبقسماط، ولفائف العشاء، وعندها يمكنك أن تفهم لماذا كان المعمل يشتغل أربعاً وعشرين ساعة متواصلة. بدأت العمل في خط التجميع، أحضّر وأرتب أغلفة السلوفان التي تُلف بها قطع الخبز الكاملة. فكرت في العمل هناك لبضعة أشهر على الأكثر، ولكن ما إن اعتدت العملَ حتى رأيت فيه مكاناً معقولاً لكسب العيش. كانت الروائح في ذلك المعمل لذيذة، ومع رائحة الخبز الطازج والسكّر التي يعبق بها المكان كانت الساعات تمرّ بسرعة، على العكس من الوظائف الأخرى. كان ذلك أحد الأسباب، على كل حال، لكن الأهم من ذلك

هو تلك الفتاة الحمراء التي أخذت تختلس النظر إليّ بعد أسبوع من وصولي إلى هناك. لم تكن جميلة، على الأقل ليس مقارنة مع فتيات الاستعراض اللواتي كنت ألهو معهنّ في شيكاغو، ولكن كانت هناك لمعة خاصة في تينك العينين الخضراوين جذبتني إليها، ولم أضع الكثير من الوقت في التعرف عليها. اتخذت قرارين جيدين فقط في حياتي. الأول ركوب القطار مع المعلّم ياهودي عندما كنت في التاسعة من عمري، والثاني زواج بِموللي فيتسيمنز. لملَمَت موللي أشلائي المبعثرة، وبالنظر إلى حالتي عند وصولي إلى نيوارك، لم يكن ذلك بالعمل السهل.

كانت كنيتها الأصلية كوين، وكانت في نحو الثلاثين عندما التقينا. تزوجت زوجها الأول بعد المدرسة الثانوية مباشرة، وبعد خمس سنوات التحق بالجيش. كانت فيتسيمنز امرأة أيرلندية لطيفة ومجتهدة، لكن زوجها لم يكن محظوظاً مثلي في الحرب. فقد تلقّى رصاصة في ميسينا في سنة ثلاث وأربعين، ومنذ ذلك الوقت بقيت موللي أرملة وحيدة من دون أولاد، تعتني بنفسها بانتظار حدوث شيء ما. لا أعرف ما الذي رأته فيّ، لكنني أحببتها لأنها جعلتني أشعر بالارتياح، ولأنها أعادتني إلى ذاتي المرحة القديمة وكانت تميز النكت الجيدة عندما تسمعها. لم يكن فيها أي شيء يلفت الأنظار أو يميزها عن غيرها في حشد من النساء. فإن رأيتها في الشارع، لن ترى فيها سوى زوجة عاملٍ بسيط وعادي؛ واحدة من تلك النساء اللواتي يتمتعن بردفين عريضين وخلفية مكتنزة ولا يتبرّجن إلا إذا كنّ ذاهبات إلى المطعم. لكن موللي كانت تتمتع بروح

جميلة، وبطريقتها الهادئة واللمّاحة كانت من أذكى الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي. كانت طيبة؛ ولا تعرف الحقد أو الضغينة؛ وكانت تساندني دوماً ولم تحاول أن تجعل مني شخصاً آخر لا يشبهني. وإن كانت مدبرة منزل رديئة قليلاً وطاهية متواضعة، فإن ذلك لم يكن مهمّاً على الإطلاق. فهي لم تكن خادمتي، في نهاية المطاف، بل زوجتي. كما كانت صديقي الوفي الوحيد منذ أيامي في أركنسو مع إيسوب وماما سيو، أول امرأة أحبها في حياتي.

عشنا في شقة في الطابق الثاني في ضاحية آيرنباوند في نيوارك، وبما أن موللي لم تكن قادرة على الإنجاب فقد عشنا معاً نحن الاثنان فقط. جعلتها تترك عملها بعد حفلة الزفاف، لكنني بقيت في عملي، وخلال السنوات التالية حصلت على مجموعة من الترقيات في الشركة. كان بمقدور زوجَين أن يتدبرا أمرهما على مرتب واحد في تلك الأيام، وبعد أن رقوني إلى وظيفة كبير العمال خلال النوبة المسائية، لم تعد لدينا أية مشاكل مادية. كانت حياة متواضعة تبعاً للمعايير التي كنت قد وضعتها لنفسي في ما مضى، لكنني تغيّرتُ إلى درجة لم تعد تهمني معها تلك الأمور. كنا نذهب إلى السينما مرتين في الأسبوع، ونذهب إلى المطاعم في أمسيات الآحاد، ونقرأ الكتب ونشاهد التلفاز. في الصيف، نذهب بالسيارة إلى آسبوري بارك على الشاطئ، وفي كل يوم أحد تقريباً نلتقي بأحد أقرباء موللي. كانت عائلتها كبيرة، وكان جميع أشقائها وشقيقاتها متزوجين ولهم أولاد. كان لها أربعة أخوة وأربع أخوات وثلاثة عشر أبناء وبنات أخت وأخ. وبالنسبة إلى رجلٍ ليس له أولاد، كنت محاطاً بمجموعة كبيرة من

الصبية والبنات، ولم أعترض على دوري بصفتي العم وولت. كانت موللي الجنيّة العرابة الطيبة، وكنت أنا مهرّجَ البلاط؛ الرجل الصغير المربوع القادر على تسلية الجميع وإضحاكهم، والمهرج العاشق للبيسبول الذي يتدحرج على درج الشرفة الخلفية.

قضيت ثلاثاً وعشرين سنة مع موللي؛ وهي فترة طويلة، على ما أظن، لكنها ليست طويلة بما فيه الكفاية. كانت خطتي أن أشيخ معها وأموت بين ذراعيها، لكنها أصيبت بالسرطان ورحلت عني قبل أن أكون جاهزاً لمفارقتها. استأصلوا لها أوّل ثديٍ، ثم الثدي الثاني، ورحلت مع بلوغها الخامسة والخمسين. فعلت العائلة ما بوسعها لمساعدتي، لكنها كانت فترة عصيبة بالنسبة إليّ، وأمضيتُ الأشهر الستة أو السبعة التالية مخموراً. ثم تدهورت حالتي جداً إلى درجة أنني فقدت عملي في المعمل. ولا أعرف ما الذي كان سيحدث لي، لو لم ينقلني اثنان من أشقاء موللي إلى عيادة لمعالجة الإدمان على الكحول. بقيت ستين يوماً في "مشفى سينت بارناباس" في ليڤينغستون حيث بدأت الأحلام تراودني ثانية. لا أعني أحلام اليقظة أو التفكير في المستقبل، بل أحلام النوم الليلية؛ عروض سينمائية حية كل ليلة تقريباً على مدى شهر كامل. ربما كانت نتيجة الأدوية والمهدئات التي كنت أتناولها، لا أدري، ولكن بعد مضيّ أربع وأربعين سنة على عرضي الأخير بصفتي "الصبي المعجزة وولت"، عادت إليّ كل تلك المشاهد مرة ثانية. كنت قد عدتُ إلى صالة العرض برفقة المعلّم ياهودي، وكنت أنتقل من مدينة إلى أخرى في سيارة "بيرس آرو" وأقدّم عرضي في كل ليلة. شعرت بسعادة

غامرة، واستعدتُ متعاً كنت قد نسيت قدرتي على الشعور بها. كنت أمشي على الماء ثانية، وأؤدي حركاتي أمام حشود هائلة، وأتحرك في الهواء من دون أي ألم؛ أطوف وأدور وأقفز بكل ما كان لديّ من مهارة وثقة. كنت قد جاهدتُ طويلاً في دفن تلك الذكريات ومعانقة الأرض كأي شخص آخر، والآن عادت كلها ثانية في هيئة استعراض ليليّ مذهل. غيّرت تلك الأحلام حياتي تغيّراً كاملاً. فقد أعادت لي كبريائي، وبعد ذلك لم أعد أخجل من استرجاع الماضي. لا أعرف كيف أقول ذلك بطريقة أخرى. كان المعلم قد سامحني. شطب دينَه عليّ بسبب موللي، بسبب حبي لها وحزني عليها، والآن كان ينادي عليّ ويطلب مني أن أتذكّره. ليس هناك طريقة لإثبات أيٍّ من هذه الأشياء، لكن تأثيرها كان جلياً. كان شيء في داخلي قد زال، وخرجْتُ من حالة السكر تلك وأنا بكامل وعيي وتوازني، كما أنا الآن. كنت في الثامنة والخمسين، وكانت حياتي محطمة تماماً، ومع ذلك لم أشعر بذلك القدر من السوء. ففي نهاية المطاف، كان ينتابني شعورٌ جيد.

كانت نفقات علاج موللي قد أودت بكل ما تمكنا من توفيره سابقاً. كنت متخلفاً أربعة أشهر عن دفع الإيجار، والمالكُ يهدد بإخراجي من الشقة، وأنا لا أملك شيئاً سوى سيارتي؛ سيارة "فورد فيرلين" عمرها سبع سنوات وتعاني انبعاجاً في أحد الأبواب وعطلاً في الكاربوراتور. بعد ثلاثة أيام من مغادرتي المشفى، اتصل بي ابن أخ زوجتي المفضل من دنفر بخصوص عمل متوفر هناك. كان دان الشاب الذكي في العائلة - أول أستاذ جامعي في العائلة - وكان

يعيش هناك مع زوجته وابنه منذ بضع سنوات. وبعد أن أخبره والده عن حالتي الصعبة، لم أضطر إلى تلفيق القصص حول حسابي البنكي الضخم. العمل ليس مميزاً، قال لي، لكن تغيير الأجواء سيكون مفيداً. وما نوع هذا العمل؟ سألت دان. مهندس صيانة، قال وهو يحاول ألا يبدو ذلك مضحكاً. تقصد حارس مبنى؟ قلت له. تماماً، قال لي، عامل تنظيفات. حصل شاغر في البناء الذي يدرّس فيه، وإن كنت أرغب في الانتقال إلى دنفر، سوف يوصي بي ويتفق مع الجهة المسؤولة. بالتأكيد، قلت له، ولم لا، وبعد يومين وضّبتُ بعض الأغراض في السيارة وانطلقت نحو روكي ماونتنز.

لم أصل إلى دنفر قطّ. ليس لأن السيارة تعطلت، وليس لأنني أعدت التفكير في العمل بوّاباً، لكن أشياء حصلت في طريقي إلى هناك، وعوضاً عن الذهاب إلى مكان، ذهبت إلى مكان آخر. ليس من الصعب تفسير ذلك. فلأن الرحلة جاءت مباشرة بعد كل تلك الأحلام في المشفى، فقد أعادت فيضاً من الذكريات، وبعد أن قطعتُ حدود ولاية كانساس، لم أستطع مقاومة تلك المشاعر التي فاضت فيّ ودفعتني إلى الانعطاف والتوجه جنوباً. فالمكان ليس بعيداً جداً، قلت لنفسي، ولن ينزعج دان إن تأخرت قليلاً. كنت أرغب في قضاء بضع ساعات في ويتشوتا، وأعود إلى منزل السيدة ويذرسبون لأرى ما الذي حلّ بالمكان. حاولت مرة، بعد انتهاء الحرب بوقت قصير، البحث عنها في نيويورك، لكن اسمها لم يكن موجوداً في سجل أرقام الهواتف، وكنت قد نسيت اسم شركتها. اعتقدْتُ أنها ماتت مثل جميع الأشخاص الذين كنت أحبّهم.

كانت المدينة قد توسّعت جداً منذ العشرينيات، لكنها بقيت مكاناً مضجراً في نظري. ازداد عدد سكان المدينة، والأبنية، والشوارع، ولكن حالما ألفتُ التغييرات التي حصلت شعرت أنها المكان نفسه الذي كنت أعرفه. كانوا يسمونها "عاصمة العالم الجوية" الآن، وقد ضحكت كثيراً لرؤية ذلك الشعار على اللوحات الموزعة في كافة أرجاء المدينة. كانت غرفة التجارة تدلّل على شركات الطيران التي أقامت معاملها هناك، ولكنني فكرتُ في نفسي؛ الصبي العصفور الذي اعتبر ويتشوتا موطنه في يوم من الأيام. وجدت صعوبة في العثور على المنزل، ممّا قادني إلى توسيع دائرة بحثي عنه. كان يقع في ما مضى على أطراف المدينة، يقف وحيداً على طريق ترابي يقود إلى الريف المفتوح، أما الآن فقد كان جزءاً من التوسع السكني ومحاطاً بالمنازل الجديدة. كان الشارع يحمل اسم "جادة كورونادو"، وكان مزوداً بجميع التجهيزات الحديثة؛ الأرصفة، وأضواء الشوارع، وسطح أسود مخطط بالأبيض في الوسط. لكن المنزل بدا في حالة جيدة بالتأكيد؛ كانت الحصى تلمع بيضاءَ تحت سماء نوفمبر الرمادية، والأشجار الصغيرة التي زرعها المعلّم ياهودي في الحديقة الأمامية تتسامق فوق السطح مثل كائنات عملاقة. كان أصحاب المنزل يهتمون به جيداً، وبما أنه أصبح قديماً الآن فقد اكتسب مسحة تاريخية وبدا أشبه بقصرٍ مهيب يعود إلى عصر سابق.

ركنت السيارة وصعدت الدرج المؤدي إلى الشرفة الأمامية. كان الوقت عصراً، لكنّ ضوءاً كان يشع من نافذة الطابق الأول، وبعد

أن صرت هناك فكرتُ أن أمضي في ما عزمت عليه وأرنّ الجرس. فإن لم يكن قاطنو المنزل غيلاناً، ربما يسمحون لي بالدخول وإلقاء نظرة على البيت من أجل الأيام الخوالي. كان ذلك كل ما أملتُ فيه؛ إلقاء نظرة سريعة على البيت. كان الجو بارداً على الشرفة، وبينما كنت واقفاً هناك بانتظار أن يظهر أحد، فكرتُ في المرة الأولى التي أتيت فيها إلى هذا المنزل وأنا على مشارف الموت بعد أن تُهتُ في تلك العاصفة الثلجية. رننتُ جرس الباب مرة أخرى، ثم سمعت أصوات أقدام في الداخل، وعندما فُتح الباب أخيراً كنت غارقاً في ذكريات لقائي الأول بالسيدة ويذرسبون إلى درجة لم أدرك معها إلا بعد وهلة أن المرأة الواقفة أمامي هي السيدة ويذرسبون نفسها؛ أكبر وأضعف وأكثر تجعيداً بالتأكيد، لكنها السيدة ويذرسبون نفسها. كان بمقدوري أن أميزها في أي مكان. لم يكن وزنها قد زاد رطلاً واحداً منذ سنة ١٩٣٦؛ كان شعرها مصبوغاً بذلك اللون الأحمر الجذاب نفسه؛ واحتفظت عيناها الزرقاوان بزرقتهما الفاتحة المعهودة. كانت في الرابعة أو الخامسة والسبعين آنذاك، لكنها بدت في الستين، أو الثالثة والستين على أكثر تقدير. جاءت إلى الباب في ثيابها الأنيقة وقامتها المنتصبة، في فمها سيجارة مشتعلة، وفي يدها اليسرى كأسٌ من الويسكي. عليك أن تحب امرأة من ذلك النوع. كان العالمُ قد شهد تغيرات وكوارث كثيرة منذ أن وقعت عيناي عليها آخر مرة، لكن السيدة ويذرسبون بقيت تلك المرأة الصلبة التي طالما عرفتها.

عرفتها قبل أن تعرفني. وكان ذلك مفهوماً، لأن الزمن كان قد ترك

آثاره عليّ أكثر مما تركها عليها. كان النمش في وجهي قد اختفى كله، وكنت قد تحولت إلى رجل قصير وبدين بشعر رمادي خفيف ونظارة دائرية سميكة تسترخي على أنفي؛ لا شيء يشبه ذلك الشاب الأنيق الذي تناولَت الغداء معه في مطعم "ليملز" قبل ثمانٍ وثلاثين سنة. كنت أرتدي ملابس عمل باهتة – سترةً مخططة، وسروالاً كاكيّاً، وحذاء جلديّاً، وجوارب بيضاء – وكانت ياقتي مرفوعة لدرء البرد. ربما لم ترَ وجهي بشكل جيد، وما رأته كان بائساً ومنهكاً نتيجة صراعي مع الكحول، ولم يكن أمامي خيارٌ سوى تعريفها بنفسي.

لا حاجة للدخول في ما حصل بعد ذلك، أليس كذلك؟ الدموع، والقصص، والأحاديث المتفرقة التي استمرت حتى ساعات الصباح الأولى. كان المشهد استرجاعاً لذكريات مضت في "جادة كورونادو"، وأشك أن هناك لمَّ شملٍ أجملَ من ذلك الذي حدث في تلك الليلة. رويت لها ما حدث لي، لكن قصتها لم تكن أقل غرابةً من قصتي. فعوضاً عن تحقيق أرباح طائلة من استثمار ملايينها في التنقيب عن النفط في تكساس، بدّدت أموالها كلها في الحفر في أرضٍ جافة لا نفط فيها. كانت لعبة النفط مسألة تخمين في ذلك الوقت، وقد باءت تخميناتها كلّها بالفشل. ومع حلول سنة ١٩٣٨، كانت قد خسرت تسعة أعشار ثروتها. ومع أنها لم تعانِ من الفقر، فهي لم تعد من بين عداد أصحاب الثروات في "الجادة الخامسة"، وبعد الدخول في بضعة مشاريع فاشلة أخرى حزمت أمرها وعادت إلى ويتشوتا. ظنت أنها عودتها تلك ستكون مؤقتة؛ فبعد قضاء بضعة أشهر في المنزل القديم، سوف تنتقل إلى مشاريع

أخرى. لكن شيئاً قاد إلى آخر، وعندما اندلعت الحرب كانت لا تزال هناك. وفي لفتةٍ أذنت بنوع من التغير الجذري، تأثرت بتلك الحماسة الوطنية التي سادت آنذاك وعملت خلال السنوات الأربع التالية ممرّضةً متطوّعة في مشفى ويتشوتا. كان من الصعب عليّ أن أتخيلها وهي تلعب دور فلورنس نايتنغيل، لكن السيدة ويذرسبون كانت امرأة مليئة بالمفاجآت، وإن كان المالُ نقطة قوتها إلا أنه لم يكن الشيء الوحيد الذي يشغل بالها. وبعد الحرب، عادت إلى المعترك التجاري، لكنها بقيت هذه المرة في ويتشوتا، وشيئاً فشيئاً نجحت في تأسيس تجارة رابحة؛ في الغسالات الآلية، من بين جميع الأشياء الأخرى. يبدو الأمر مضحكاً بعد كل تلك الآمال الكبيرة في قطاعَي البورصة والنفط؛ ولكن لمَ لا؟ كانت من أوائل الأشخاص الذين استشرفوا الفرصَ التجارية في الغسالات، وقد سبقت منافسيها إلى الدخول في ذلك المجال. فعندما التقينا في سنة ١٩٧٤، كانت تملك عشرين مركزاً للغسالات الآلية موزعين في المدينة بالإضافة إلى اثني عشر مركزاً آخر في المدن المجاورة. كانت تسميها "بيت النظافة"، وقد حولتها الأموال التي تأتي من تلك المراكز إلى امرأة ثرية مرّة ثانية.

وماذا عن الرجال؟ سألتها. أوه، الكثير من الرجال، قالت لي، عددٌ هائل من الرجال. وماذا عن أورفيل كوكس؟ مات ورحل، قالت لي. وبيلي بيغيلو؟ لا يزال حياً يرزق. وهو يعيش في منزل قريب من هنا. كانت قد وظفته في مراكزها التجارية تلك بعد الحرب، وكان مديراً لأعمالها ويدها اليمنى حتى استقالته قبل ستة أشهر. كان بيلي قد بلغ

السبعين، وبعد نوبتين قلبيتين تعرض لهما نصحه الطبيب بالراحة. ماتت زوجته قبل سبع أو ثماني سنوات، وبعد رحيل أولاده عنه بقي بيلي على علاقة وثيقة بالسيدة ويذرسبون. وصفته بأنه أفضل صديق حظيت به في حياتها، ومن الطريقة التي رَقَّ صوتُها وهي تقول ذلك شعرت أن العلاقة بينهما كانت أكثر من مجرد الأحاديث العملية عن الغسالات والنشّافات. آها، قلت لها، إذاً كان للصبر ثمارُه وحصل بيلي الصغير اللطيف على مراده. غمزتني واحدة من غمزاتها الشيطانية تلك. أحياناً، قالت لي، ولكن ليس دائماً. حسب مزاجي.

لم تضطر إلى الإلحاح عليّ كثيراً للبقاء. كانت وظيفة البوّاب تلك مجرد شيء مؤقت وعابر، ومع نشوء فرصة أفضل الآن لم أتردد في تغيير خطتي. كان الراتب جزءاً صغيراً من الخطة بالطبع. فقد عدتُ حيث أنتمي، وعندما طلبت مني السيدة ويذرسبون أن أحلّ محل بيلي، قلت لها إنني سأباشر عملي الجديد منذ الصباح الباكر. لم تهمني طبيعة العمل. فلو أنها طلبت مني البقاء وتنظيف أرض المطبخ لكنت وافقت أيضاً.

نمتُ في الغرفة العلوية نفسها التي نمتُ فيها سابقاً، وسرعان ما أتقنت عملي الجديد وبدأت أدير أعمالها بطريقة جيدة. كانت الغسالات تعمل باستمرار، وازدادت الأرباح، وأقنعتها بالتوسع في مجالات مختلفة؛ صالة بولينغ، ومحل بيتزا، وصالة ألعاب التسلية. فمع تدفق طلاب الجامعات إلى المدينة في كل خريف من السنة، كان هناك طلبٌ كبير على الأطعمة السريعة والتسلية الرخيصة، وكنتُ الرجل المناسب لتوفير تلك الأشياء. عملت لساعات طويلة، وأحببت

العودة إلى إدارة الأعمال ثانية، وقد نجحت معظم المشاريع التي طلعت بها. كانت السيدة ويذرسبون تطلق عليّ اسم الكاوبوي، وخلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى عشنا معاً في تناغم تام. وفجأة مات بيلي. أصيب بنوبة قلبية أخرى، لكن ذلك حدث هذه المرة في "نادي شيروكي إيكرز الريفي" الواقع على النهر، وعندما وصل إليه الأطباء كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة. دخلت السيدة ويذرسبون في حالة من الكآبة بعد ذلك. لم تعد تذهب معي إلى المكتب في الصباح، وشيئاً فشيئاً أخذت تفقد اهتمامها بالشركة وتركت لي معظم القرارات المتعلقة بالعمل. كنت قد عشت تلك التجربة مع موللي، ولكن لم أرَ أي فائدة من إخبارها بأن الوقت كفيل بإخراجها من حالتها تلك. فالشيء الوحيد الذي لم تكن تمتلكه هو الوقت. كان الرجل يعبدها طوال خمسين سنة، وقد رحل الآن، ولن يتمكن أي شخص آخر من أن يحلّ محله.

في ليلة من تلك الليالي، سمعتها تبكي وأنا مستلقٍ أقرأ في السرير في غرفتي العلوية. نزلت إلى غرفتها، وتحدثنا لفترة قصيرة، ثم أخذتها بين ذراعيّ وحضنتها حتى غفت. ثم غفوت أنا أيضاً، وعندما استيقظت في الصباح التالي وجدت نفسي مستلقياً تحت الأغطية معها في السرير المزدوج الكبير. كان السرير نفسه الذي تشاركته مع المعلّم ياهودي في الأيام الغابرة، والآن جاء دوري لأنام قربها وأكون الرجلَ الذي لا يمكنها العيش من دونه. كانت المسألة في معظمها تتعلق بالارتياح والرفقة والنوم في سرير واحد بدلاً من سريرين، لكن هذا لا يعني أن الأغطية لم تلتقط اللهيب بين الفينة والأخرى. فالتقدم

في السن لا يعني موت الرغبة، وسرعان ما تلاشى وخز الضمير الذي كان يؤرقني في بداية الأمر. فخلال السنوات الإحدى عشرة التالية عشنا معاً كزوج وزوجة. لا أشعر بالحاجة إلى الاعتذار عن ذلك. ففي يوم ما كنت صغيراً بعمر ابنها، لكنني كنت الآن أكبر من معظم الأجداد، وعندما تصل إلى تلك السن لا تعود تلك القواعد تعنيك في شيء. تذهب إلى حيث عليك الذهاب، وتفعل أي شيء يضمن لك الاستمرار في الحياة.

كانت في صحة جيدة طوال الوقت الذي أمضيناه معاً. ففي أواسط ثمانيناتها، كانت لا تزال تشرب كأسين من الويسكي قبل العشاء وتدخّن السجائر، وفي معظم الأيام تشعر بالنشاط الكافي للخروج في جولة في سيارة الكاديلاك. عاشت حتى التسعين أو الواحدة والتسعين (لم يكن واضحاً في أي قرنٍ ولدت)، ولم تتدهور حالتها إلا خلال الأشهر الثمانية عشر الأخيرة. ومع اقتراب النهاية، لم تعد ترى جيداً، ولا تسمع جيداً، ولا تقدر على النهوض من السرير، لكنها حافظت على شخصيتها طوال الوقت، وبدلاً من إرسالها إلى مأوى للعجزة أو توظيف ممرضة للعناية بها، قمت ببيع الشركة وقررت العناية بها بنفسي. كنت مديناً لها بهذا، أليس كذلك؟ أحمّمها وأسرّح لها شعرها، وأحملها في المنزل بين ذراعيّ، وأمسح الخراء عن مؤخرتها كما سبق لها أن مسحت مؤخرتي في ما مضى.

كانت جنازة رائعة. وقد حرصتُ على ذلك وأنفقت المال اللازم لضمان ذلك. صار كل شيء ملكي الآن – المنزل، والسيارات، والمال الذي جنته من أعمالها، والمال الذي كسبته لها – وبما أن

الأموال التي بقيت كانت تكفيني لخمس وسبعين أو مئة سنة أخرى، قررت أن أقيم لها أكبر جنازة عرفتها ويتشوتا في تاريخها. شاركت مئة وخمسون سيارة في موكب الجنازة. تعرقل السير على مدى أميال، وبعد انتهائنا من الدفن كانت الحشود تملأ المنزل حتى الساعة الثالثة صباحاً، وكان الجميع يشربون ويملؤون بطونهم بأفخاذ الحبش والحلويات. لن أقول إنني كنت شخصية محترمة في المجتمع، لكنني كسبت بعض الاحترام مع مرور السنين وكان أهل المدينة يعرفون من أنا. فعندما دعوتهم للمشاركة في جنازة ماريون، جاؤوا فرادى وجماعات.

حدث ذلك قبل سنة ونصف. خلال أول شهرين، كنت أتجول في المنزل لا أعرف ما الذي عليّ أن أفعله. لم أكن قط مولعاً بأعمال البستنة، ولم أكن أحب الغولف، وفي سن السادسة والسبعين لم تبقَ لدي أية رغبة للعودة إلى العمل التجاري. كان العمل مسلّياً بسبب ماريون، ولكن بعد رحيلها لم يبقَ هناك أيّ سبب يدفعني إلى ذلك. فكرت في مغادرة كانساس لبضعة أشهر والقيام بجولة سياحية، ولكن قبل أن أشرع في رسم الخطط أنقذتني فكرة كتابة هذا الكتاب. لا أعرف كيف حدث الأمر، لكن الفكرة خطرت لي في أحد الصباحات وأنا أنهض من السرير، وبعد أقل من ساعة كنت أجلس إلى طاولة في البهو العلوي بقلم في يدي وأكتب الجملة الأولى. لم يكن لديّ شك أنني أفعل شيئاً يجب فعله، وكانت قناعتي في ذلك قوية جداً، وقد أدركت الآن أن الكتاب جاءني في الحلم؛ ولكن في واحد من تلك الأحلام التي لا يمكنك أن تتذكرها وتتلاشى في اللحظة التي تفيق

فيها وتفتح عينيك على العالم.

عملتُ عليه بصورة يومية منذ أغسطس السابق، أنتقل من كلمة إلى كلمة بأسلوبي الركيك. بدأت الكتابة في دفتر إنشاء مدرسي صغير، في واحد من تلك الدفاتر ذات الأغلفة الصلبة السوداء والبيضاء والخطوط الزرقاء العريضة، وقد ملأتُ ثلاثة عشر منها حتى الآن، بمعدل دفتر في كل شهر من الأشهر التي عملت فيها على الكتاب. لم أدع أحداً يقرأ كلمة واحدة، ومع وصولي إلى النهاية الآن بدأت أفكر أن يبقى الأمر على هذا النحو؛ على الأقل ما دمْتُ حيّاً. كل كلمة في هذه الدفاتر الثلاثة عشر حقيقية، لكنني واثق أن غالبية الناس لن يصدقوا ذلك. لست خائفاً اتهامي بالكذب، لكنني وصلت إلى سنّ متقدمة لا تسمح لي بهدر الوقت في الدفاع عن نفسي أمام مجموعة من الأغبياء. سبق لي أن التقيت بعدد كبير من المشكّكين الأغبياء أثناء تنقّلاتي مع المعلّم ياهودي، ولديّ أشياء أكثر أهمية الآن، أشياء أشغل نفسي بها بعد الانتهاء من هذا الكتاب. ففي صباح الغد، سوف أذهب إلى المصرف في مركز المدينة وأودع الأجزاء الثلاثة عشر في خزنة الأمانات. وبعدها سوف أذهب لرؤية محاميَّ، جون فَسكو، وأطلب منه إضافة فقرةٍ على وصيتي تفيد بإعطاء محتويات تلك الخزنة لابن شقيق موللي، دانييل كوين. سوف يعرف دان ما الذي عليه أن يفعله بالكتاب الذي كتبتُه. سوف يصحح الأخطاءَ الإملائية ويطلب من أحد ما إنجاز نسخة نهائية من الكتاب، وحالما تخرج **مستر فيرتيغو** إلى العلن، لن أكون موجوداً لرؤية أولئك التافهين والمعاتيه وهم يسعون إلى قتلي. سأكون ميتاً حينها، وسوف أضحك

عليهم؛ من فوق أو من تحت، كما يتيسّر الأمر.

طوال السنوات الأربع عشرة الأخيرة، هناك عاملة تنظيف تأتي إلى المنزل بضع مرات في الأسبوع. اسمها يولاندا إيبراهام، وهي من واحدة من تلك الجزر الدافئة؛ جامايكا أو ترينيداد، لم أعد أذكر تماماً. ليست شخصاً ثرثاراً، لكننا نعرف بعضنا بعضاً منذ وقت طويل وهناك نوع من الألفة بيننا، كما أنها ساعدتني كثيراً خلال الأشهر الأخيرة من حياة ماريون. عمرها بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وهي امرأة سوداء ممتلئة تتمتع بمشية رشيقة وصوت جميل. حسب معرفتي، ليس ليولاندا زوج، ولكن عندها ابن صبي في الثامنة من العمر اسمه يوسف. وفي كل يوم سبت من السنوات الأربع الأخيرة، كانت تترك ابنها معي عندما تقوم بأعمال المنزل. وبما أنني كنت أراقب هذا الطفل وأرصد تحركاته وسلوكه على مدى طويل، يمكنني القول إنه قمة في الغلاظة والسماجة وطول اللسان وكأن مهمته الوحيدة في الحياة هي نشر الفوضى والخراب في كل مكان يكون فيه. له واحد من تلك الوجوه المورروبة والنحيلة والمسننة وجسمٌ بائس يشبه رزمة من العظام الناتئة؛ مع أنه يمكن أن يكون أقوى وأكثر مرونة من أجسام معظم لاعبي الظهير الخلفي في دوري كرة القدم الأميركي. أكره هذا الطفل لما فعله بقصبتي ساقيّ، وأصابع يديّ وقدميّ، لكنني أرى فيه نفسي أيضاً عندما كنت في سنّه، وبما أن وجهه يشبه وجه إيسوب إلى درجة مذهلة – إلى درجة صعقتنا أنا وماريون عندما رأيناه للمرة الأولى – فإنني أسامحه دوماً على كلّ ما يفعله. لا أستطيع أن أتفادى ذلك الشعور. فالصبي عبارة عن شيطان

رجيم. فهو مقيت وفظّ وفاسد إلى درجة لا يمكن معها إصلاحه، لكنه يتوهج بشعلة الحياة، وأتمتع بمراقبته وهو يورط نفسه في مشكلة تلوَ الأخرى. ومن خلال مراقبتي ليوسف، أدرك الآن ما الذي رآه المعلم فيّ، وأعرف ما عناه عندما قال لي إنني أملك الموهبة. فهذا الصبي موهوبٌ أيضاً. وإن تمكنتُ من استجماع شجاعتي والتحدث إلى أمه في يوم ما، فسوف أضعه تحت جناحي دون أي تردد. وخلال ثلاث سنوات، سوف أحوله إلى الصبي المعجزة التالي. سوف يبدأ من حيث توقفت، وخلال وقت قصير سوف يقطع أشواطاً لم يسبقه عليها أحدٌ من قبل. يا إلهي، سوف يكون ذلك شيئاً جديراً بأن يعيش المرء من أجله، أليس كذلك؟ وسوف يجعل هذا العالم اللعين كله يغنّي من جديد.

المشكلة هي في الخطوات الثلاث وثلاثين. يمكنني أن أقول ليولاندا إنني سأعلم ابنها الطيران، ولكن بعد أن نجتاز تلك العقبة، ماذا عن البقية؟ فمجرد التفكير في ذلك يسبب لي الغثيان. فبعد أن عانيتُ من كل تلك القسوة وكل ذلك العذاب، كيف يمكن لي أن ألحقهما بشخص آخر؟ ليس هناك رجالٌ من أمثال المعلّم ياهودي الآن، وليس هناك صبية من أمثالي أيضاً؛ صبية أغبياء، وحساسون، وعنيدون. كنا نعيش في عالم مختلف آنذاك، والأشياء التي فعلناها أنا والمعلم معاً لم تعد ممكنة الآن. لن يتقبّلها الناس. وسوف يستدعون الشرطة، ويكتبون الرسائل إلى ممثليهم في الكونغرس، ويستشيرون أطباء العائلة. لم نعد صلبين كما كنّا من قبل، وربما يكون العالم الآن مكاناً أفضل بسبب ذلك، لا أدري. لكنني أعرف أنه لا يمكنك أن

تحصل على شيء مقابل لا شيء، وكلّما كان ما تريده أكبر كان الثمن أكبر.

ومع ذلك، عندما أفكّر في تكريسي المريع ذاك في سيبولا، لا يسعني إلّا أن أتساءل إن كانت طرائق المعلّم ياهودي بالغة القسوة. فعندما ارتفعت عن الأرض للمرة الأولى، لم يكن ذلك نتيجة أي شيء علّمني إياه. فعلت ذلك بنفسي على أرضية المطبخ الباردة، وقد جاء بعد حصار طويل من البكاء واليأس، عندما بدأت روحي تندلق خارج جسدي ولم أعد واعياً لذاتي. ربما كان اليأس الشيء الوحيد المهم في الأمر. وفي تلك الحالة، لم تكن تلك المحنُ الجسدية التي عرّضني لها أكثر من غطاء مزيف أو نوع من الإلهاء ليوهمَني أنّني أحقّق شيئاً من التقدم، عندما لم أكن، في حقيقة الأمر، أحرز أيّ تقدم على الإطلاق إلى أن رأيت نفسي مستلقياً على أرضية المطبخ تلك ووجهي إلى الأسفل. ماذا لو لم تكن هناك أية خطوات لازمة في تلك العملية؟ ماذا لو أن الأمر كلّه معلّق على لحظة واحدة، قفزة واحدة، لحظة متوهجة من التحول؟ تلقّى المعلّم ياهودي تدريبه تبعاً لمبادئ المدرسة التقليدية، وكان ساحراً في إقناعي بهرائه وترّهاته تلك. ولكن ماذا لو لم تكن طريقته تلك هي الطريقة الوحيدة؟ ماذا لو أن هناك طريقة مباشرة وأكثر بساطة؛ مقاربة تبدأ من الداخل وتتجاوز الجسد كله؟ ماذا لو؟

في قرارة نفسي، لا أعتقد أن على المرء أن يمتلك موهبة خاصة لكي يتمكن من رفع نفسه عن الأرض والتحليق في الهواء. كلّنا نملك هذه القدرة، كل رجل وامرأة وطفل. وبقدر كافٍ من العمل الدؤوب

والتركيز، يمكن لأيّ كائن بشري أن يفعل ما فعلْتُه بصفتي "الصبي المعجزة وولت". عليك أن تتعلم كيف تتخلى عن نفسك. فهنا نقطة البداية، وكل الأشياء الأخرى تتأتى من ذلك. يجب أن تترك نفسك تتبخّر. أرخِ عضلاتك بشكل كامل، ثم تنفّس حتّى تشعر بأن روحك تتدفق منكَ، ثم أَغلق عينيك. هذه هي الطريقة. فالخواء الموجود داخل جسدك يخفّ أكثر من الهواء المحيط بك. وشيئاً فشيئاً، يبدأ وزنك بالتلاشي. تغلق عينيك، وتفتح ذراعَيك، وتدع نفسك تتبخّر. ثمّ شيئاً فشيئاً، ترفع نفسك عن الأرض.

هكذا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

'من أعظم كتّاب عصرنا'

San Francisco Chronicle

'بول أوستر عبقري بحقّ'

هاروكي موراكامي

«كنت في الثانية عشرة من عمري عندما مشيتُ على الماء لأوّل مرّة».

هكذا تبدأ **مستر فيرتيغو**، قصة وولت، اليتيم المشاكس الذي نشأ في الغرب الأميركي، يتسوّل المال والطعام كلَّ ليلةٍ في الشوارع.

هناك، يقترب منه رجلٌ ببدلة سوداء وقبّعة حريرية ويقرّر نقلَه إلى منزله الغامض في السّهول حيث سيعلّمه الطّيران ويحضّره للنّجومية.

مستر فيرتيغو تأخذنا إلى أميركا العشرينيات؛ يقدّم فيها أوستر قصّةً مفعمة بالتّشويق والرّعب، تضجّ بالحياة في عالم محكوم بالموت.

بول أوستر (1947-2024) روائي وشاعر وكاتب مسرحي وسينمائي ومخرج أميركي. تُرجمت مؤلّفاته إلى أكثر من 40 لغة. حصد عدداً كبيراً من الجوائز ومُنح وسام الفنون والآداب من الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب، ووسام الفنون والآداب الفرنسي برتبة قائد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com